الإمارات
THE EMIRATES

مَرَاوِد

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

العدد 56 - يوليو 2023، السنة السابعة

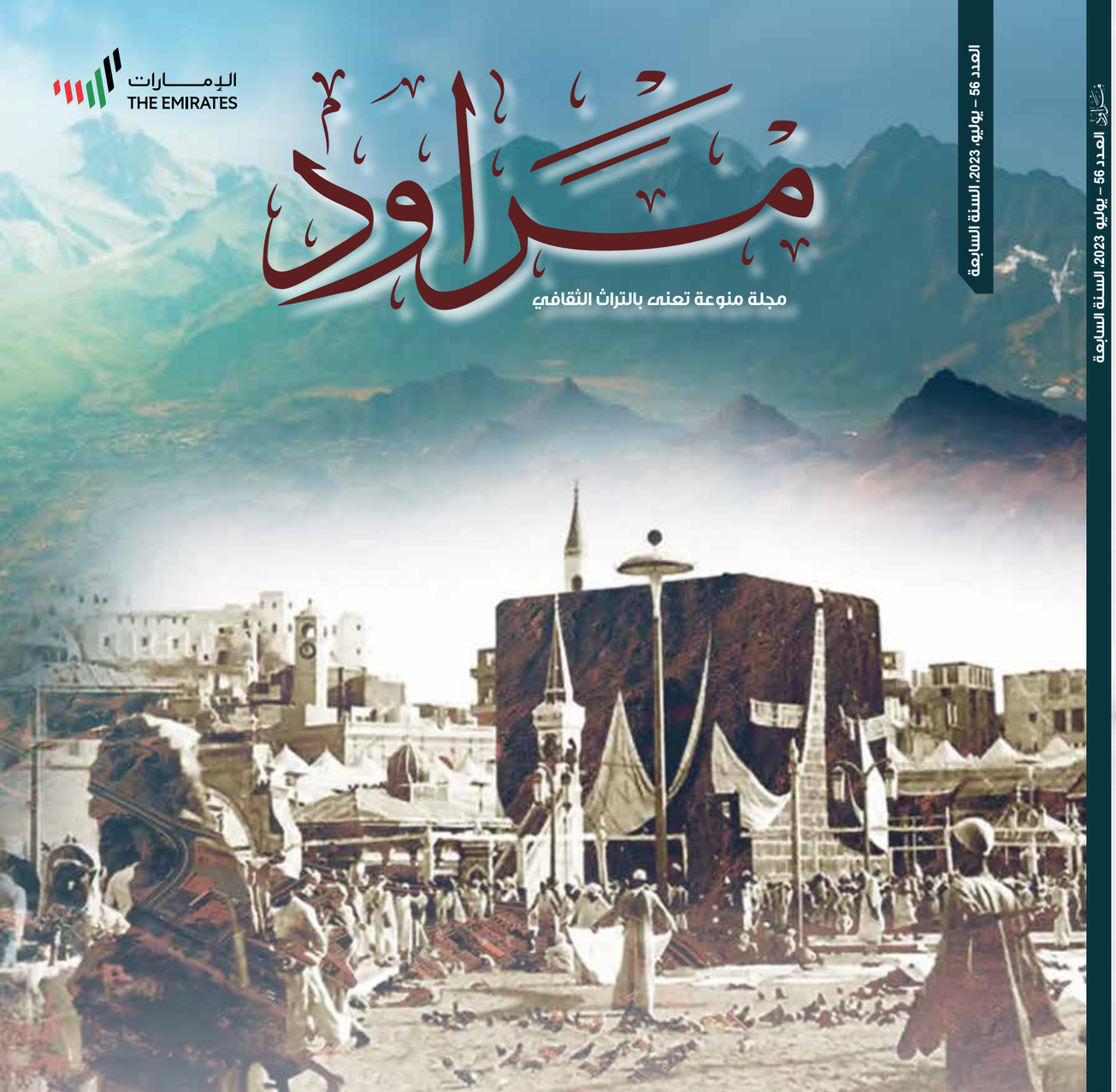

ملف العدد:

رحلة الحج في التراث العربي تقاليد راسخة

«الشارقة للتراث» يحتفي باليوم العالمي للأرشيف

«الشارقة للتراث» يستعرض التراث الإماراتي في «سيول الدولي للكتاب»

«الشارقة للتراث» يشارك في «الرباط الدولي للكتاب والنشر»

MARAWED Issue, 56, (JUL 2023), The seventh year

العدد 56 - يوليو 2023، السنة السابعة

صدر حديثاً

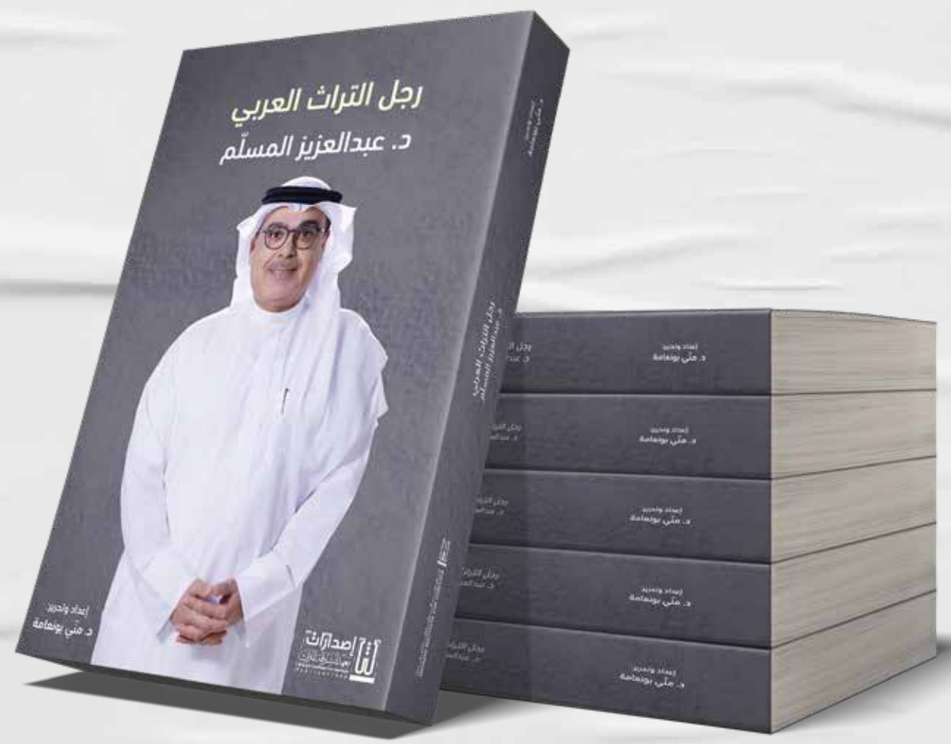

إدارة المحتوى والنشر
Content and Publishing Department
unesco
Centre
Under the auspices
of UNESCO
معهد الشارقة للتراث
SHARJAH INSTITUTE
FOR HERITAGE

مُرَاوِد

سياسة النشر

تعنى مجلة «مراود» بالتراث الثقافي الإماراتي بالدرجة الأولى، ثم العربي والعالمي، وتسعى من خلال أبوابها إلى الاضطلاع بتلك الغاية، والتركيز على موضوعات تراثية تتّسم بالجدة والموضوعية والتنوّع والشمول، ومقاربة التراث، بحثاً وتوثيقاً ودراسةً وتدقيقاً، كما تعمل المجلة على تتبّع تجليات التراث الثقافي في الأعمال الإبداعية الإماراتية والعربية من خلال الاحتفاء والتوظيف والاستحضار لمختلف عناصره ورموزه.

وتركّز المجلة على الموضوعات الثقافية والتراثية والإعلامية التي تلامس مختلف جوانب التراث الثقافي من مهن وحرف وألعاب وحكايات وأزياء وزينة وحلي وفنون وموسيقى.. وكل ما يتّصل بفروع التراث الثقافي وعناصره، محلياً وعربياً وعالمياً.

يشترط في المواد المقدّمة للنشر:

- الجدّة والأصالة، وألا يكون سبق نشرها أو مقدّمة للنشر لدى مجلات أخرى.
- الموضوعية في الطرح والمصداقية في التناول.
- سلامة اللغة، وسلاسة الأسلوب.
- التوثيق العلمي وعزوُ كل قول إلى قائله.
- ألا تتضمن المواد ما ينافي المبادئ الأخلاقية والمقدسات الدينية أو يخدش الحياء، أو ينافي الذوق العام.
- ترفق مع المواد صور عالية الدقة والجودة.
- يراعى في ترتيب المواد المقدّمة للنشر الجانب الفني والموضوعي وفق رؤية هيئة تحرير المجلة.
- يحق لهيئة التحرير التصرف في صياغة المواد، متى كان ذلك ضرورياً، لتتماشى مع سياسة النشر، ومع الطرح الإعلامي المناسب للقارئ.
- إدارة التحرير غير ملزمة بشرح أسباب رفض نشر المواد ولا إرجاعها.
- المواد المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة، وإنما عن رأي كتّابها.
- تستقبل المواد والمشاركات على بريد المجلة الإلكتروني: **marawed@sih.gov.ae**

للتواصل مع إدارة التحرير:

0097165014898

marawed@sih.gov.ae

الافتتاحية

د. عبدالعزيز المسلّم

رئيس معهد الشارقة للتراث

رئيس التحرير

الحج في الموروث الشعبي

للحج في الذاكرة العربية عادات وطقوس خالدة، توارثتها المجتمعات منذ قديم الزمان، وعبّرت من خلالها عن مدى تقديسها هذه الشعيرة الإسلامية القيّمة، وتمسّكها بها، وحرصها على أدائها، رغم كل المخاطر والعقبات التي كانت تعترض الحجاج، بسبب وعورة الطريق، والمخاوف التي كانت تصاحب الرحلة، وقد نسجت الذاكرة الشعبية الكثير من الطقوس التي درجت عليها المجتمعات، وتناقلتها جيلاً بعد جيل، بدءاً بالتحضير للحج، وشراء المستلزمات الضرورية، من ملابس الإحرام وغيرها، ثم وداع الأهل والأقارب، والاستعداد للرحلة الحجية.

في هذا العدد أفردنا ملفاً خاصاً عن «الحج في التراث العربي.. تقاليدُ راسخة»، استعرضنا فيه طقوس الحج وتقاليده، وما كان يصاحبه من ممارسات ثقافية لاتزال عالقة في أذهان المجتمع الإماراتي والعربي إلى اليوم، وحاولنا تقديم صورة متكاملة وشاملة عن هذا الموضوع الشائق، الذي نعيش هذه الفترة أجواءه الحانية، على أصداء التكبير والتهليل.

واستعرضنا في هذا العدد أخباراً ومتابعات لأنشطة معهد الشارقة للتراث خلال الفترة الماضية، مبرزين دورها في الإسهام في التعريف بالمعهد ودوره الريادي في نشر التراث، والتعريف به على أوسع نطاق، وتوقفنا عند مشاركة المعهد ضمن وفد الشارقة في معرض سيؤول الدولي للكتاب، حيث حلّت الشارقة ضيف شرف مميزاً على المعرض.

وقد شمل العدد مجموعة من الموضوعات الثقافية والتراثية الغنية، التي أضفت عليه صبغة مميزة، من بينها «مصادر التراث الموسيقي العربي»، «فن المناهيل»، «إضاءة على قصائد حمد خليفة بوشهاب»، و«أمثال النبات» وغيرها.

كما شملت أبواب العدد العديد من الموضوعات التراثية والثقافية المهمة، لاسيما ما يتعلق منها بالتراث الإماراتي الذي يفوح منه عبق الأصالة الفوّاح، ويرمز إلى العراقة والرقي، والتواصل بين الماضي والحاضر، ويعبّر بجلاء عن مدى تمسّك الإنسان الإماراتي بتراث آبائه وأجداده، وتواصله معه، وانفتاحه على التجارب الأخرى المفيدة للنهل من معينها الزاخر.

المحتويات

العدد 56 – يوليو 2023

مراود

الغلاف

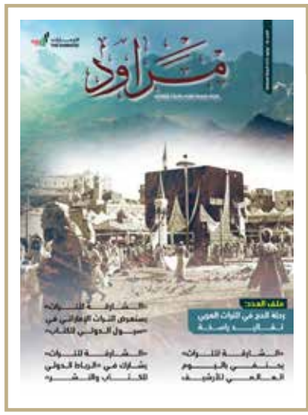

10
ملف العدد
رحلة الحج
في التراث العربي: تقاليد راسخة

106
زاوية
جهود الشيخ سلطان بن محمد القاسمي
في النهوض باللغة العربية وخدمة القرآن الكريم

84
فضاءات
الصورة الفكرية عن ذواتنا

86
زاوية
سلطان القاسمي يصدر كتاب
«تاريخ ملوك النبهانيين في
عُمان (1154 - 1622 م)»

94
قراءة أدبية
الدر المنثور في
طبقات ربات الخدور

98
سوالف الهامور
«يسووها الصغار
ويطيحوا فيها الكبار»

80
زاوية
نازك الملائكة والتنوير

90
قصة التراث الشعبي
أمثال النبات:
إبداعات ومعارف
وخبرات

10
برامج وفعاليات
«الشارقة للتراث»
يستعرض التراث
الإماراتي في
«سيول الدولي»
للكتاب

68
موسيقا الشعوب
مصادر التراث
الموسيقيّ العربيّ

70
فنون شعبية
فن المناهيل

72
دراسة
حمد خليفة بوشهاب..
وقصائد تفتح الآفاق

76
خواطر
الكويت
في الأرشيف
العثماني

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

رئيس التحرير
د. عبد العزيز المسلم
رئيس معهد الشارقة للتراث

مستشار التحرير
د. ماجد بوشليبي
كاتب وخبير ثقافي

مدير التحرير
د. منّى بونعامة
مدير إدارة المحتوى والنشر

هيئة التحرير
أ. علي العبدان
أ. عتيج القبيسي
أ. عائشة الشامسي
أ. سارة إبراهيم

سكرتير التحرير
أحمد الشناوي

التصميم والإخراج الفني
منير حمود

التدقيق اللغوي
بسام الفحل

التصوير
قسم الإعلام

صورة الغلاف:
الأرشيف والمكتبة الوطنية

حرف تراثية
الصناعات النسيجية التراثية في دمشق
126

الآراء الواردة في المقالات، والتحقيقات، والمقابلات، تُعبر عن رأي أصحابها ومواقفهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي وتوجه المجلة، ويتحمل أصحابها المسؤولية الأدبية أمام الرأي العام، والقانونية أمام الجهات المختصة.

800TURATH
+971 6 5092666
marawed_sih
www.sih.gov.ae

ISBN 978-9948-37-768-9

مقاربات
102
تمثل المرض عند هنود أمريكا الشمالية

أفق
122
«السنع» موروث ثقافي ومدرسة للأخلاق

أماكن ومعالم
130
كنيسة ودير صير بني ياس

ضوء
الخنجر العماني
134

قصص من التراث
تنين شرشال
142

ذاكرة مكان
قصر المويجعي.. رحلة تاريخية ممتدة
114

آفاق
أنماط الملكية والحيازات الزراعية التقليدية في منطقة كلباء
110

أماكن تراثية
118
الفنادق التاريخية بالمغرب في مطلع القرن العشرين

«الشارقة للتراث»
يستعرض التراث الإماراتي في «سيول الدولي للكتاب»

حظي معهد الشارقة للتراث على مدى خمسة أيام، من 14 حتى 18 يونيو الماضي، باهتمام متميز من قبل جمهور معرض «سيول الدولي للكتاب» في كوريا الجنوبية، وبمشاركة موسعة ضمن جناح إمارة الشارقة، ضيف شرف الدورة الـ65 للمعرض، الذي شهدت فعالياته تفاعلاً لافتاً مع مختلف شرائح المجتمع الكوري الجنوبي، إضافة إلى مرتادي المعرض من جمهور الكتاب والثقافة والتراث في أنحاء العالم.

وكانت مظاهر الضيافة العربية حاضرة في المشاركة، حيث استقبل جناح المعهد زائريه بأنواع من العطورات المحلية الشهيرة، واللباس التراثي الشعبي، وتقديم القهوة الإماراتية العربية الأصيلة، كما اطلع الجمهور الزائر بشغف على العديد من المطبوعات الأدبية والتراثية التي عرضت في جناح المعهد وباللغتين العربية والكورية، وتناولت موضوعات عدة.

«الشارقة للتراث» يشارك في «الرباط الدولي للكتاب والنشر»

شارك معهد الشارقة للتراث في الدورة الـ28 من معرض الرباط الدولي للكتاب والنشر، الذي أقيم خلال الفترة من 1-11 يونيو الماضي، بأكثر من 600 إصدار وعنوان في جناح المعهد.

وقال سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث، «تعد مشاركة المعهد في معرض الرباط الدولي للكتاب والنشر فرصة للتزود بالمعارف واقتناء الإصدارات النوعية».

وأبدى المسلّم سعادته باللقاءات الثقافية المهمة مع عدد من الباحثين والمهتمين المغاربة في رواق معهد الشارقة للتراث، الذين بدورهم عبّروا عن ارتياحهم للبرنامج الثقافي للرواق وللإصدارات المتنوّعة في التراث الثقافي العربي.

عرض الجناح 200 عنوان في مجال التراث الثقافي بشقيه المادي وغير المادي في التراث المغربي، من أصل 600 عنوان هي مجموع ما أصدره المعهد في التراث الثقافي العربي عبر إدارة المحتوى والنشر، وهي إحدى إدارات المعهد النشطة.

«الشارقة للتراث»
يشارك في «مغرب الحكايات»

شارك معهد الشارقة للتراث في المهرجان الدولي «مغرب الحكايات»، الدورة الـ20، المنعقد تحت شعار «عظماء بأمهاتنا»، بحضور 170 فناناً وباحثاً من مختلف دول العالم.

مثّل المعهد في هذه الدورة وفد مكون من أ. فاطمة المرزوقي، مديرة إدارة المكتب التنفيذي لرئيس المعهد، وأ. إسراء الملا، مديرة المدرسة الدولية للحكاية، وأ. سارة آل علي، وأ. دانة آل علي، والدكتور يحيى العبالي منسق المكتب الإقليمي للمغرب العربي في الرباط، التابع لمعهد الشارقة للتراث.

وتمثل مشاركة المعهد هذا العام إضافة مهمة للمهرجان، من خلال تبادل التجارب والخبرات، والتواصل مع أصحاب الاختصاص من أنحاء العالم، والتعرّف إلى تجربة المعهد في مجال سرد الحكاية وجمعها وتوثيقها، بما يسهم في تحقيق الأهداف المنشودة.

«الشارقة للتراث» يحتفي باليوم العالمي للأرشيف

نظّم مركز التراث العربي، التابع لمعهد الشارقة للتراث، في مقره، ندوة تحت شعار «مستقبل الأرشفة واستدامة الوثائق»، تزامناً مع اليوم العالمي للأرشيف، الذي يصادف التاسع من يونيو من كل عام، بحضور عائشة الحصان الشامسي، مديرة مركز التراث العربي.

واستعرضت الندوة، أوراق عمل عدة، أبرزها «أهمية الوثائق والأرشيف، ودورها في مراكز التوثيق والأرشفة»، قدمتها فاطمة المزروعي، من الأرشيف والمكتبة الوطنية في أبوظبي، بالإضافة إلى عرض لـ«أرشيف الشارقة الرقمي»، قدمته سلمى العبدولي، من هيئة الشارقة للوثائق والأرشيف، و«الدور الاستراتيجي لمركز حمدان بن محمد لإحياء التراث في ذاكرة الوطن»، قدمتها مريم راشد الزعابي، من مركز حمدان بن محمد لإحياء التراث، و«الحلول الذكية لإدارة الوثائق والأرشيف.. أفضل الممارسات المحلية والعالمية»، قدمها نور الدين يوسف، من «إيرون مونتن الإمارات».

وقالت عائشة الحصان الشامسي: «يحرص المعهد على أن يكون حاضراً وفاعلاً في كل المحطات والموضوعات المرتبطة بعالم التراث، ومن بينها الأرشيف، حيث يأخذ مركز التراث العربي، التابع للمعهد، هذه المهمة على عاتقه».

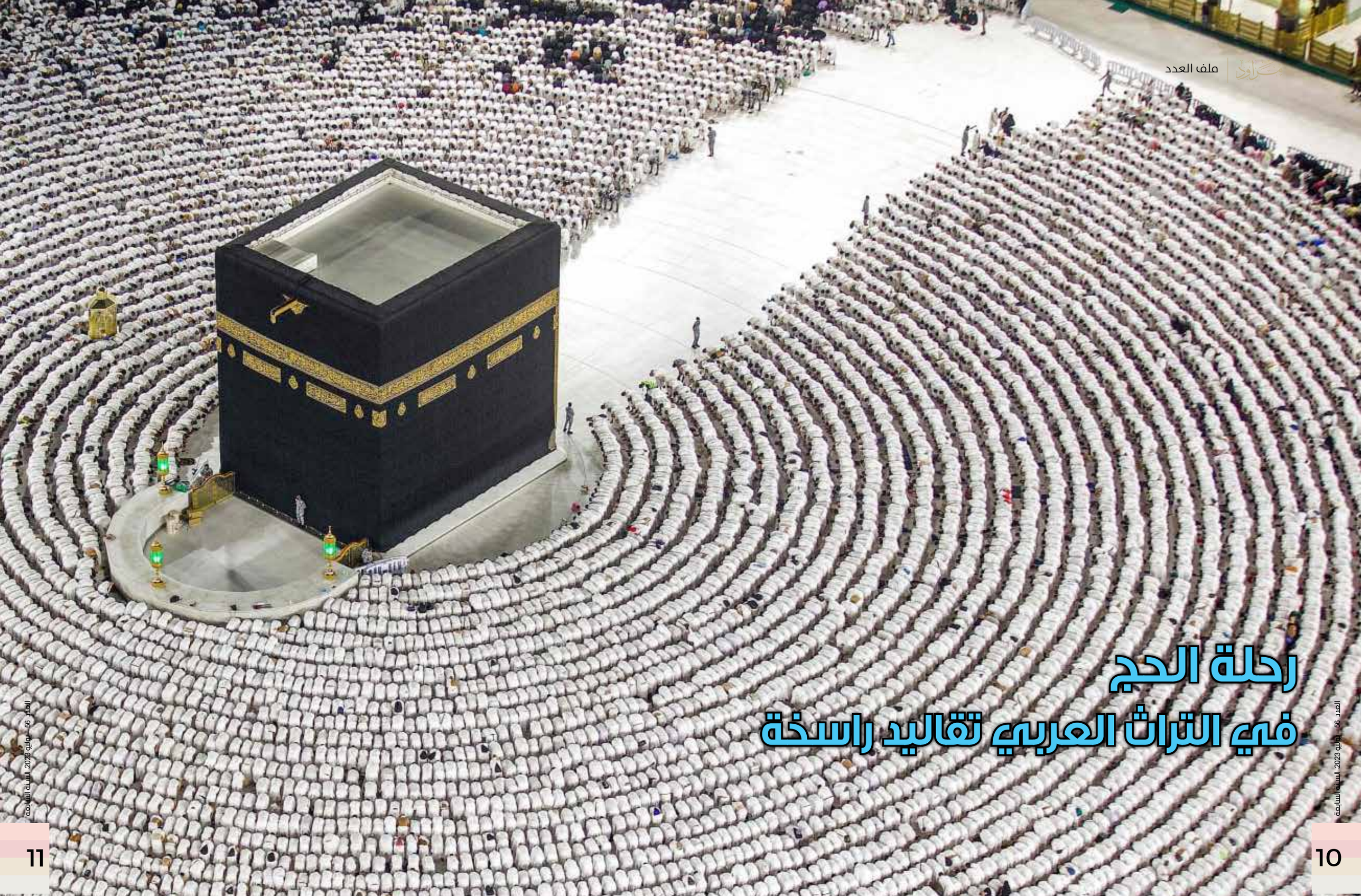

رحلة الحج
في التراث العربي تقاليد راسخة

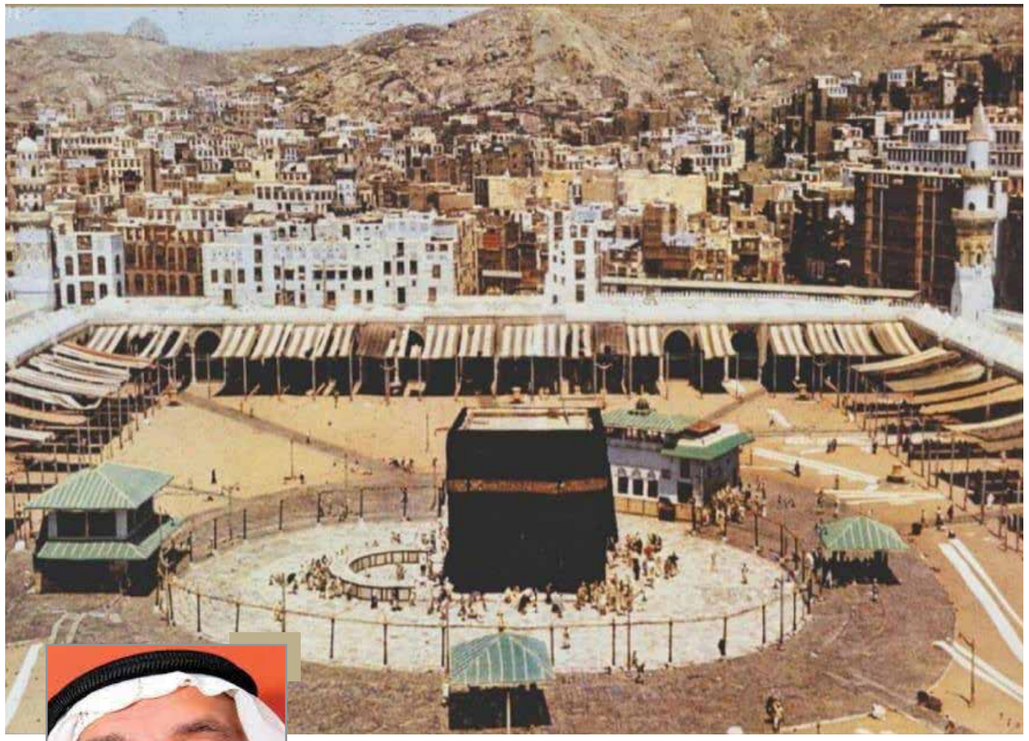

مع ذكريات الحج المبرور

قوافل ومراكب عبر الصحراء والبحر من الإمارات إلى البيت العتيق

عبدالله عبدالرحمن
كاتب - الإمارات

كما أن المسجد يجمع الأجساد والأرواح على الجمعة والجماعة، فإن رحلات الحج أمنية، تهفو إليها قلوب أبناء الإمارات، ورغم بعد المسافة ومشقة هذه الرحلات السنوية في الماضي، إلا أنه لم يمر عام هجري إلا وشهد انطلاق قوافل ومراكب الحجيج من مختلف مدن ومناطق الإمارات ملبية نداء ربها ومتجهة إلى البيت العتيق، وكما كانت رحلات الغوص على اللؤلؤ والأسفار الخارجية للنقل البحري والتجارة الخارجية سيمفونية تجسد قدسية العمل الجماعي في سبيل الرزق الحلال، فإن رحلات الحج شكلت تجلياً آخر لإيمان أهل الإمارات بأن (يد الله مع الجماعة)، وأن تكبد وفود الحجيج نساء ورجالاً لمشاق وتحديات رحلاتها البطولية والخطرة براً وبحراً يضاعف من الأجور المحتسبة من تلك الرحلات التي يرجع منها الحاج كيوم ولدته أمه.

ولأن الله، سبحانه وتعالى، لم يشرع الحج ويكلف عباده تجشم مشاقه ومعايشة تلك الأحوال والأهوال إلا لحكمة متعالية، فإن حصيلة تلك الرحلات كانت تنقش في قلوب وعقول ومظاهر حياة قاصدي البيت العتيق، والمصطفى الهادي، صلى الله عليه وسلم، دروساً في البذل والتعاون، وتسطّر ذكريات تغير مفهومهم لماهية الحياة، وتوسع من آفاقهم، وتعرفهم بأناس وثقافات ومناطق جغرافية، وفرص عملية تتعدد باختلاف المواسم والتجارب الفردية مصداقاً لقوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم)، ملخصة هدف هذه العبادة السامي، ولتشكل تجربة فريدة أسهمت وتسهم في بناء إنسان أرقى وأرحب أفقاً، وأكثر صموداً وصلابة ووداً وانصهاراً في نسيج الإنسانية المتنوع الألوان.

إذا كانت ظروف رحلات الحج في هذه السنوات المعاصرة تتميز بتوفير الاستطاعة المادية والمعنوية الذاتية لنسبة كبيرة من المسلمين لاستكمال هذا الركن العظيم من دينهم الحنيف، إضافة إلى تيسر وسائل السفر المريحة والسريعة من طائرات وسيارات، وما على متنها، وفي طرق رحلتها من خدمات وضروريات سخية.

وإذا كانت الأراضي المقدسة قد أصبحت هذه السنين بكامل الاستعداد وتنوعه لاستقبال الملايين من الحجيج سنوياً طوال فترة إقامتهم في مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة ومنى وعرفات وغيرها من البقاع، وكذلك خلال تأديتهم شعائر ومناسك الحج المتعددة، نقول: إذا كانت الظروف كذلك شأنها في تحسن وتيسير وأمن واستقرار بصفة عامة لحجاج هذه الأعوام، فالحقيقة أنها لم تكن هكذا حتى أقل من نصف قرن مضى؛ لقد كانت الفروق شاسعة، والاختلافات كبيرة، والمتاعب جمّة، والمشاق والمصاعب كثيرة، والإمكانات ضئيلة، والاستطاعة محدودة، والطرق بعيدة، والظروف قاسية.. كل ذلك بالنسبة لرحلات الحج ذهاباً وعودة، وخلال فترات الإقامة وتأدية الشعائر هناك.

لكن الشعائر ومناسك الحج على اختلاف مراحلها وإجراءاتها كانت ولاتزال وستبقى ذاتها إلى الأبد، كما نصت عليها آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، بلا شك ولا جدال.

بحثاً عن معرفة تفاصيل تلك الاختلافات والفوارق في ظروف رحلات الحج من الإمارات إلى الأراضي المقدسة بين الماضي والحاضر، سنجول بين مجالس الأجداد والآباء في بعض مناطق الدولة، للقاء بعض الحجاج، منهم أولئك الذين تحدوا كل الصعوبات الطبيعية والاقتصادية والمعيشية وضعف الإمكانات والوسائل، وشقوا طريقهم عبر البراري القاحلة، أو ركبوا عباب البحر وأهواله في سبيل الوصول إلى الكعبة المشرّفة عبر رحلات استغرقت أشهراً عدة من السنة ذهاباً وعودة وإقامة وتنقلات هناك.

ويستوقفنا أحد أقدم أخبار رحلات الحج التي انطلقت من الإمارات، فيما توثقه المؤرخة الألمانية فرواكة

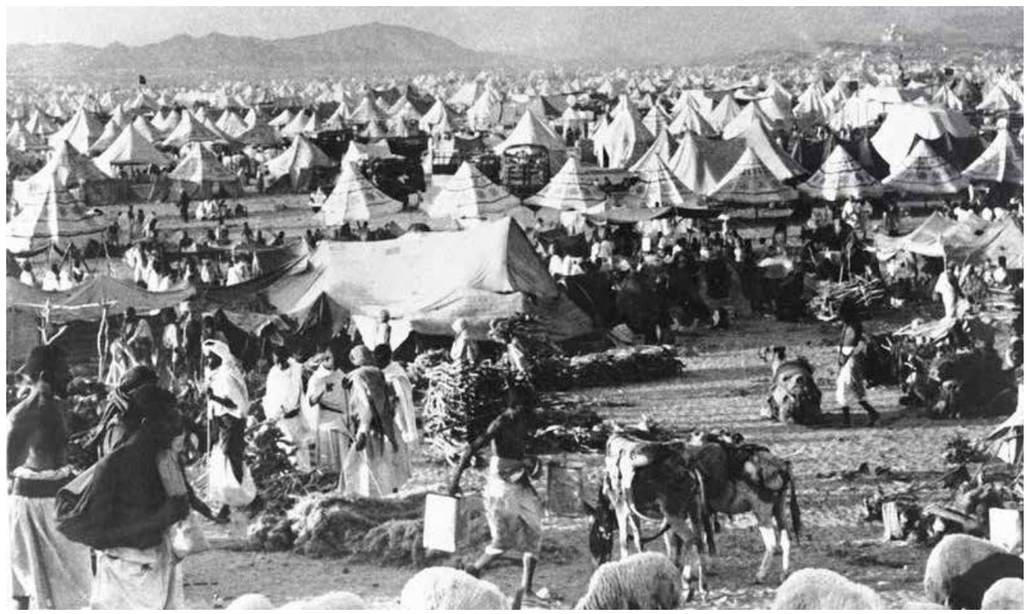

هـيرد، في كتابها «مـن الإمـارات المتصالحـة إلى دولـة الإمـارات»، بالقـول: «إنـه في أواخـر عهـد زايـد بـن خليفـة (زايـد الأول)، طيّـب اللـه ثـراه، حاكـم إمـارة أبوظبـي (1855-1909م) توجهـت مجموعـة مـن (1512) شخصاً مـن أبوظبـي بالمراكـب إلى حيفـا، ومـن هنـاك إلى القـدس، ومنهـا إلى مكـة المكرمـة، ولاتـزال رحلـة الحـج هـذه معروفـة لـدى أفـراد المجتمـع في الإمـارات». ولقـد كان السـفر عـن طريـق البحـر أكثـر راحـة مقارنـة بالرحـلات البريـة عـلى ظهـور الإبـل، والمـدة كانـت أقـصر، لكـن غالـب الرحـلات البحريـة للحـج كـما تؤكدهـا الذكريـات كانـت تتـم بوسـاطة المراكـب الشراعيـة، انطلاقـاً مـن موانـئ الإمـارات، وخاصـة دبي، متجهـة إلى بومبـاي أو كراتـشي، ومـن هنـاك يتـم السـفر للحـج عـن طريـق السـفن البخاريـة إلى جـدة، ثـم مكـة المكرمـة عـن طريـق الـبر.

ووثائقيـاً، فـإن موقـع عائلـة الـسركال يعـرض لنـا تأشـيرة مـرور أو تصريـح سـفر إلى الحـج صـدرت في الشـارقة يـوم 1924/5/9م، بتوقيـع عيـسى بـن عبداللطيـف الـسركال، المتـوفى عـام 1935م، وقـد كان الوكيـل الوطنـي للدولـة البريطانيـة في الإمـارات المتصالحـة منـذ عـام 1919م إلى عـام 1934م، وأعطيـت لـه صلاحيـات إصـدار وثائـق ـ تأشـيرة المـرور للمسـافرين ـ وقـد صـدرت الوثيقـة المعنيـة باسـم عبيـد ماجـد، مـن رعايـا الشـارقة، ومهنتـه غـواص، وكان يبلـغ مـن العمـر 25 عامـاً، ومـن مواليـد 1899م، ويسـكن بالشـارقة، وقـد صـدرت للسـفر إلى مكـة المكرمـة للحـج بمـدة صلاحيـة تمتـد لسـنة كاملـة.

ويلاحـظ في هـذه الوثيقـة ختـم شرطـة كراتـشي يـوم 1924/5/17م؛ أي بعـد 8 أيـام مـن إصدارهـا في الشـارقة، ومـدة 8 أيـام كانـت كافيـة للسـفر مـن الإمـارات إلى كراتـشي بالسـفن الشراعيـة؛ لأن الحـاج عبيـد سـافر مـن الإمـارات إلى كراتـشي، ومنهـا إلى جـدة للحـج عـن طريـق البحـر بالسـفن الشراعيـة أو البخاريـة واللـه أعلـم.

وقـد روى لنـا الشـيخ حمـد بـن محمـد المشـغوني، رحمـه اللـه، أنـه قـام بـأداء فريضـة الحـج 33 مـرة، كان أولهـا في الثلاثينيـات مـن القـرن العشريـن، مـع بدايـة حكـم الشـيخ سـلطان بـن صقـر القاسـمي للشـارقة: «يومهـا خرجنـا مـن هنـا 9 رجـال و9 نسـاء عـلى ظهـر أحـد المراكـب التجاريـة، وتوجهنـا إلى كراتـشي، وهنـاك انتظرنـا مركبـاً آخـر ليأخذنـا إلى جـدة عـن طريـق بـاب المنـدب في رحلـة اسـتغرقت أكثـر مـن عـشرة أيـام.

ومـن جـدة توافـرت سـيارة ركبـت فيهـا النسـاء وبعـض العاجزيـن عـن المـشي مـن المجموعـة، أمـا أنـا ومعـي (عمـران بـن تريـم) و(سـيف بـن عبدالرحمـن) وغيرهـما، فقـد مشـينا يومـين بلياليهـما مـن جـدة إلى مكـة، وذلـك ليـس بسـبب انعـدام المواصـلات أو عجـز الإمكانـات الماديـة، بـل طلبـاً للأجـر، فالسـيارة موجـودة، وأنـا تاجـر، فقـد قيـل (إن الحسـين بـن عـلي، رضي اللـه عنهـما، مـشى مـن المدينـة إلى مكـة(.

واسـتمرت رحـلاتي إلى مكـة للحـج سـنوياً دون انقطـاع مـن هنـا إلى الدمـام في «مراكـب شراعيـة»، ومـن الدمـام إلى مكـة في السـيارات.

وكثـيراً مـا كنـت أقيـم هنـاك مـا بـين 4 و6 أشـهر، أحـج وأعتمـر، فقـط منـذ ثـلاث سـنوات انقطعـت عـن رحـلات الحـج؛ نظـراً لأننـي قـد طعنـت في السـن، وأصبحـت مواسـم الحـج مزدحمـة بالملايـين مـن البـشر، وأذكـر في المـاضي أن الحجـاج لم يكـن يتجـاوز عددهـم 30 ألـف شـخص في عرفـة».

لقـد كانـت الإبـل هـي الوسـيلة الأساسـية والأكثـر اسـتخداماً لرحـلات الحـج مـن الإمـارات إلى الأراضي المقدسـة منـذ البعيـد وحتـى قبـل الأربعينيـات مـن القـرن العشريـن، ولقيـادة مثـل هـذه القوافـل عـبر الصحـارى الرمليـة الموحشـة البعيـدة المـدى، عـرف أولئـك الحجـاج أدلّاء خـبراء بخطـوط سـير الرحـلات، وبمواقـع مـوارد الميـاه والـكلأ لراحلاتهـم مـن الإبـل، وكذلـك المحطـات الآمنـة للراحـة والاسـتقرار مـن عنـاء الطريـق ومشـاق الرحلـة لبعـض الوقـت.

وفي إمـارة أبوظبـي أو واحـة العـين وتوابعهـا، اشـتهر مـن الأدلاء محمـد مبـارك الخييـلي، الـذي قـاد عـدداً مـن رحـلات الحـج عـلى ظهـور الإبـل، حيـث كانـت قوافـل الحجـاج تنطلـق مـن واحـة المعـترض وتسـتغرق الرحلـة شـهرين، وصـولاً إلى مكـة الكرمـة، وتمـر في طريقهـا عـلى مـوارد الميـاه الشـهيرة مثـل (المعـترض والعقابيـة والقليـل واللحمـة وليـح بالنـور وخويـر عـزان وشـبانة ومغايـل سـالم والقصيمـة ومغايـل مطـوع والخريمـة وبـدع المـزي وطـوي بويزالـة وطـوي عرجـان وطـوي النميريـة وطـوي الـزراف وطـوي خريجـة حمامـة وطـوي مطيـلان وطـوي البزمـي وغابـة الهدوانيـة وطـوي بـدع ثـلاب وطـوي بـدع دعـف وطـوي مليلـة وطـوي المرخيـة وطـوي العقيلـة وطـوي بـدع هـزاع وجزائـر بـن عفيصـان والسـلع والويايـة والغويفـات).

وتجـدر الإشـارة إلى أن ظاهـرة رحـلات الحـج عـلى ظهـور الجـمال وفي قوافـل متعـددة، تضـم كل منهـا قرابـة 15 جمـلاً وناقـة والعديـد مـن الحجـاج رجـالاً ونسـاء، إلى جانـب احتياجاتهـم الاسـتهلاكية الضروريـة مـن المـؤن والأغذيـة والملابـس والأغطيـة، وغـير ذلـك مـن اللـوازم.

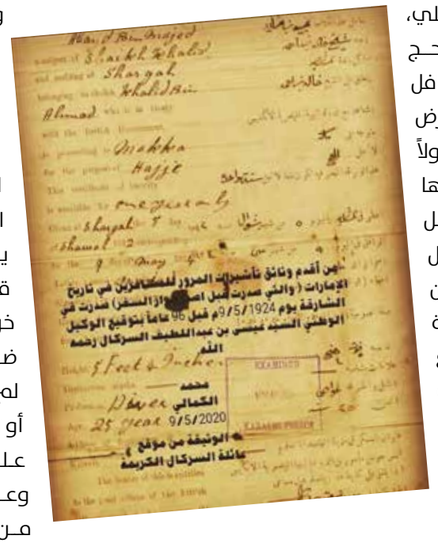

هـذه الظاهـرة كانـت جليـة للعيـان في حيـاة مجتمـع الإمـارات ماضيـاً كلـما اقـترب موسـم جديـد للحـج، أو حـين عـودة القوافـل إلى موطنهـا مـن رحلـة شـاقة إلى الحـج لمـن اسـتطاع إليـه سـبيلاً.

وعـلى الرغـم مـن ذلـك، وإلى جانـب الاحتياطـات الأخـرى لقوافـل الحجـاج، فإنهـم كثـيراً مـا كانـوا يتعرضـون للمـرض أو الوفـاة في خضـم تلـك الرحـلات الشـاقة التـي كانـت تسـتغرق أشـهراً عـدة مـن السـنة، وكثـيراً مـا كانـت بعـض رؤوس الإبـل هـي الأكـثر عرضـة للنفـوق في عـرض الصحـراء خـلال الذهـاب أو العـودة، وللتغلـب عـلى مثـل هـذه المشـكلة، فـإن تلـك القوافـل كانـت تجـد بعـض الفـرص المتاحـة في الأحسـاء أو جـدة أو غيرهـا مـن المحـاضر السـعودية لـشراء رؤوس بديلـة عـن تلـك التـي نفقـت.

كـما كانـت القوافـل حريصـة عـلى أن تـدع جمالهـا للراحـة والرعايـة في إحـدى المحطـات عـلى طريـق الرحلـة داخـل الأراضي السـعودية، وهنالـك تقـوم باسـتئجار جـمال أخـرى لمواصلـة رحلتهـا إلى الأراضي المقدّسـة في مكـة والمدينـة، ولتنقلاتهـا الداخليـة، وبرفقـة جمالـين سـعوديين كانـوا يتفرغـون في مواسـم الحـج لنقـل وخدمـة حجـاج بيـت اللـه، كـما كانـوا يتكفلـون أيضـاً بتوفـير المسـاكن والضروريـات الأُخـرى اللازمـة هنـاك.

يـروي حـاج عـاصر ذلـك الزمـان قائـلاً: « في تلـك السـنوات التـي خرجـت فيهـا إلى الحـج لأول مـرة ضمـن قافلـة عـلى ظهـور الجـمال، لم نكـن نعـرف سـوى هـذه الوسـيلة أو تلـك البواخـر التـي كانـت تعمـل عـلى الخـط البحـري بـين دبي والهنـد وعـدن ومسـقط والبـصرة وغيرهـا مـن الموانـئ، ولم تكـن رحـلات الحـج بو سـا طة هـذه البواخـر مبـاشرة، كـما أنهـا لم تكـن ميـسرة إلا للمقتدريـن، حيـث إن النفقـات كانـت تعتـبر باهظـة مقارنـة بظـروف تلـك الأيـام، لقـد كانـت هـذه البواخـر تنطلـق مـن دبي إلى بومبـاي في الهنـد، مـروراً بموانـئ عـدة أخـرى، وفي بومبـاي يجتمـع الحجـاج القادمـون مـن مختلـف أطـراف الهنـد قبـل التقسـيم لتحملهـم تلـك المراكـب بعـد ذلـك عـبر بحـر العـرب إلى جـدة، وقـد يكـون هنـاك مندوبـون عـن بعـض المطوفـين

في استقبال الحجاج، ولكل جنسية أو وفد مطوف خاص، ومع مندوب المطوف يرحل الحجاج على ظهور الإبل إلى مكة، وعلى الرغم من أن رحلات البواخر كانت أكثر يسراً وراحة مقارنة برحلات قوافل الإبل، إلا أنها كانت تستغرق زمناً لا يقل عن الشهر أيضاً تقريباً».

ننتقل إلى مجلس الحاج عبدالله بن نصيب في خور كلباء بالمنطقة الشرقية، لنرحل مع ذكرياته، عن تجارب مرحلة أخرى من ظروف ووسائل رحلات الحج قديماً، وهي تلك المرحلة التي اعتمدت على السفن الشراعية والبخارية، علماً بأن ابن نصيب كان قد خاض بنفسه مثل هذه التجربة 16 موسماً، كانت الأولى في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي.

يقول: «إن اقتراب مواسم الحج وإثارة الأحاديث حول هذا الركن الجليل من أركان الإسلام الحنيف، ورواية الذكريات والتجارب عن هيبة وجلال الوجود في رحاب بيت الله الحرام والمرافق والأراضي المقدسة، كانت أحداثاً تثير مشاعر الشوق والشغف في نفس كل إنسان ولاتزال. وماضياً كانت المشاعر والقلوب تتفاعل مع وحي قدوم هذا الموسم وخطب المساجد وأحاديث المجالس منذ دخول شهر رمضان المبارك، وتشتد لهفة القلوب واشتعال المشاعر لزيارة بيت الله الحرام مع انتهاء عيد الفطر المبارك ودخول شوال، بل كانت الحسرة والأسف تغمران بدرجة أكبر نفوس أولئك المعمرين من الآباء والأمهات، وهم يلاحظون القليل من إخوتهم وأخواتهم كبار السن أبناء المنطقة، وقد منَّ الله عليهم بفضله، وتوافرت لهم الاستطاعة، وها هم مع بداية شوال يشدون الرحال بنوايا مخلصة للاتجاه إلى مكة المكرمة.

لم تكن بدائية الوسائل ومشاق طريق الرحلة ومعاناة السفر والصعوبات الأخرى البدهية المتوقعة تقف عائقاً في وجه أي معمَّر رجلاً كان أم امرأة، لتلبية نداء الإسلام وتأدية فريضة الحج، فالمشاق والمصاعب والتحديات كانت جزءاً من الحياة المعيشية الطبيعية للإنسان في الماضي براً أو بحراً، وهي في سبيل الله مضاعفة الأجور والحسنات، لكن العائق الحقيقي الأساسي كان غالباً هو العجز المادي وعدم قدرة الإنسان على توفير مصروفات ونفقات الرحلة التي لم تكن تتعدى في تلك الأيام مضت مئتين وخمسين روبية، إضافة إلى 25 روبية أجرة السفينة من دبي إلى الخبر في السعودية، تلك الروبيات التي كانت ست منها تشتري كيساً من الأرز، وواحدة ونصف توفر 4 كيلوغرامات من القهوة، والاثنتان منها تشتريان 50 «وارا» من القماش، وهكذا.

وعلى الرغم من ذلك فلم تكن نسبة الحجاج المغادرين من مختلف مناطق الإمارات قليلة في كل موسم، ولقد كان بعض كبار السن أبناء المنطقة الشرقية مثلاً حين تنعدم كل حيلهم ومساعيهم لتوفير نفقات الرحلة إلى الحج، فإنه كان يتصرف بأن يبيع مزرعة نخيله الصغيرة أو «ضاحيته» الزراعية ليستطيع بقيمتها على تحقيق أمنيته قبل وفاته. كما كان البعض يوصي وهو طريح الفراش مريضاً بأن يباع جزء من تركته من النخيل أو قطعان الماشية أو الإبل أو غيرها من الممتلكات ويؤدَّى بقيمتها الحج نيابة عنه (الحج البدل) هكذا كانت درجات الحرص والإيمان والإخلاص لله لدى الآباء والأجداد، وتبقى دلائل ومظاهر أخرى كثيرة.

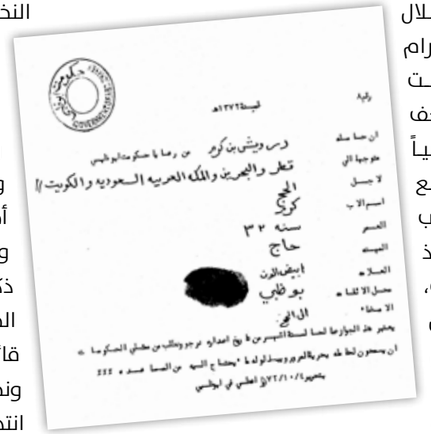

ويستطرد الحاج عبدالله بن نصيب ذكرياته عن واحدة من رحلاته إلى الحج بوساطة السفن إذ يروي قائلاً: تحركنا من المنطقة الشرقية ونحن سبعة حجاج، وذلك بعد انتهاء عيد الفطر المبارك، حيث ركبنا إحدى «الشاحنات» الكبيرة التي كانت حديثة الوصول إلى المنطقة آنذاك، متنقلين بين الطرق الصحراوية والجبلية الوعرة والوديان، وكانت تنقل بالأجرة البضائع والركاب، وخلال أكثر من نصف يوم تقريباً وصلنا إلى دبي، حيث كانت تصطف «اللنشات» المتنقلة بين موانئ الخليج للتصدير والاستيراد، وعلى متن إحداها وصلنا إلى البحرين في رحلة استغرقت أياماً عدة، وهناك أقمنا في مساكن بالأجرة بخمس روبيات لبضعة أيام، ثم رحلنا من البحرين إلى الخبر في السعودية. وهناك التقينا بمقاول يسمى «العماري»، وهو بحريني الأصل، حيث أسكننا في غرفة، ووفر لنا طباخاً، ولأننا في هذه المرة الأولى كنا قد جئنا مبكرين، فقد أبقانا المقاول في الخبر لأكثر من أسبوع متكفلاً بكل شيء مقابل مئتين وخمسين روبية، وذلك حتى عودتنا من الأراضي المقدسة إلى الخبر مرة أخرى. إلى هنا

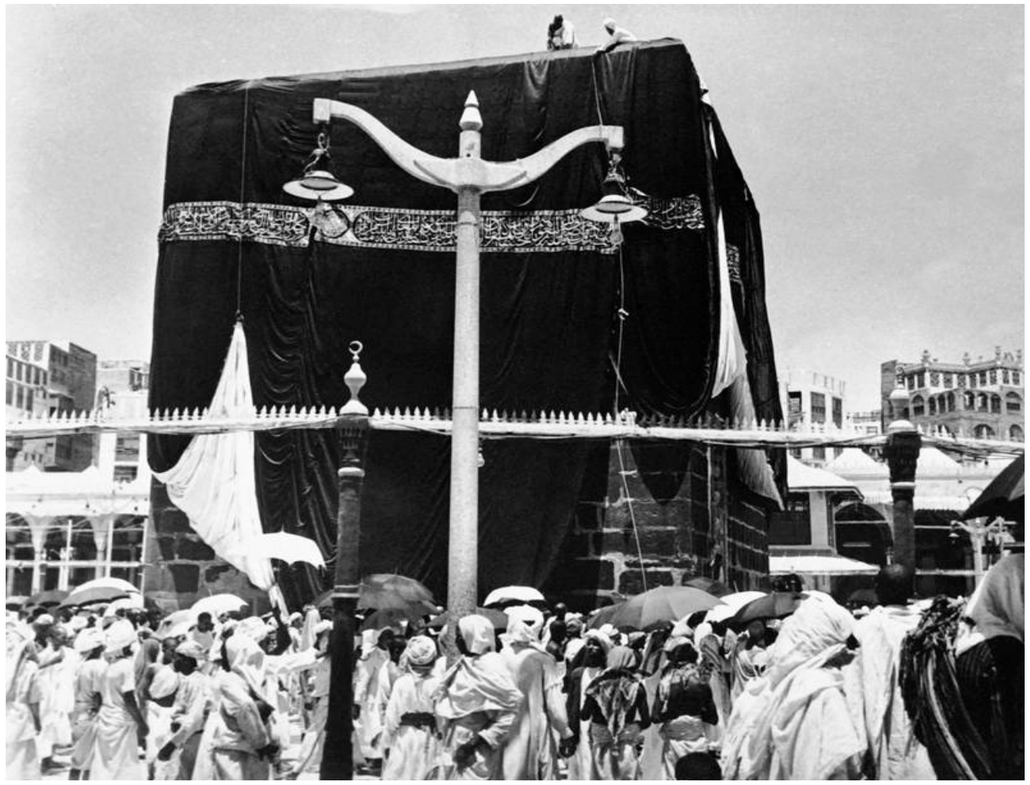

والرحلة تقريباً هادئة خالية من المشاق والمتاعب، لكن رحلتنا من الخبر حتى المدينة المنوّرة والتي استغرقت سبعة أيام بلياليها، كانت بالغة المشقة والعناء؛ إذ إنها تمت برفقة عدد كبير من الحجاج الآخرين بداخل شاحنة كبيرة مكشوفة، والفصل صيف لافح الحرارة وعبر براري رملية وطرق وعرة، ونحن جلوس على حمولة الشاحنة من «الحطب» الذي كنا نستخدمه للطبخ في محطات الاستراحة على طريق الرحلة، وإلى جانب الحطب كانت «جدورالطبخ» وحقائب الحجاج وغير ذلك.

لقد كانت حرارة الطقس تمنع الرحلة من الانطلاق والمسير نهاراً، بل إن الحركة كانت تتم منذ الغروب وحتى صباح اليوم التالي، وكثيراً ما كانت السيارة تقطع ليلاً بأكمله ثم يكتشف سائقها مع بزوغ الفجر أنه قد تاه في عرض الصحراء، وسلك طريقاً مختلفاً، فيضطر إلى العودة والانطلاق في الطريق الصحيح من جديد. وطوال مسيرة الرحلة بين الصحارى كانت الرمال تلفح وجوهنا وأجسادنا، الأمر الذي جعل ملابسنا رثة بالية، وحالتنا يرثى لها حقاً. ولقد كان الواحد منا يحمل برفقته في تلك الرحلة الشاقة «قربة» من الماء مغطاة بكيس ليحفظ برودة الماء فيها، وهي معلقة على أطراف السيارة (الشاحنة)، ولقد مررنا بمناطق عدة تزودنا منها بالمياه التي تُجلب بوساطة النياق، وبقينا كذلك حتى بلغنا المدينة المنورة، وثم بعد ثمانية أيام بلغنا مكة، ولقد كانت ظروف الإقامة والمأكولات متواضعة جداً هناك في السابق، ولكن على الرغم من ذلك، فإننا كنا نستلذ بكل شيء، ومنشغلين عن كل شيء بذكر الله، واحتساب الأجر منه تعالى، ثم بهيبة الأراضي المقدسة وجلالها الروحاني. وما أن عدنا من هناك حتى أخذتنا الأشواق إليها مرة أخرى في الموسم القادم.

وبالنسبة لي، فقد أصبحت منذ تلك الرحلة الأولى مواظباً على الحج كل عام، حيث حججت 32 مرة. وبحكم الخبرة أصبحت مقاولاً لخدمة حجاج المنطقة الشرقية عامة، وخور كلباء خاصة، ولقد تعاملت مع كثير من المقاولين السعوديين، كابن قرينيس، ومحمد بن شواي الذي كان يعمل هنا كل عام، وكنت أنا أجمع له الحجاج وأنقلهم إليه بسيارات شحن كبيرة إلى دبي، ومن ثم بالسفن إلى الخبر، ولقد استغرقت رحلتنا قرابة شهرين ونصف الشهر.

طقوس الاحتفال بالحجاج في التراث الشعبي الإماراتي

فهد علي المعمري
باحث - الإمارات

تعدّدت مظاهر الاحتفال في التراث الشعبي الإماراتي؛ فهناك الاحتفال بالأعراس، والاحتفال بقدوم المولود، والاحتفال بالعائدين من رحلة الغوص، والاحتفال بقدوم شهر رمضان المبارك، والاحتفال بالعيدين الفطر والأضحى، ولكل هذه الاحتفالات لها طقوسها الخاصة التي تميزها من غيرها من مظاهر الاحتفال عند مجتمع الإمارات في التراث الشعبي الإماراتي، ومن مظاهر الاحتفال كذلك الطقوس المنصهرة في العادات والتقاليد في تراثنا الشعبي هو الاحتفال بحجاج بيت الله الحرام.

تلك الرحلة الروحانية التي تنبثق من ديننا الإسلامي الحنيف، وهو حج بيت الله، لإكمال الركن الخامس من أركان الإسلام، وهي رحلة يحدوها الشوق والأمل إلى زيارة الديار المقدسة، أولها بيت الله الحرام، وثانيها مدينة رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، وتتخلل هذه الرحلة رحلة أخرى هي المزارات، وهي الأماكن التي يقصدها البعض في مكة المكرمة وفي المدينة المنورة، مثل جبل غار ثور وجبل غار حراء ومسجد الحن ومسجد الغمامة، أما في المدينة المنورة فهناك قبر النبي، صلى الله عليه وسلم، ومقبرة البقيع وجبل أحد والمساجد السبعة.

لقد تركت هذه الرحلة أدباً في التراث الشعبي الإماراتي، يتمثل في العادات والتقاليد التي دأب عليها الأجداد، لا سيّما منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، حيث كانت هذه الرحلة رحلة طويلة وشاقة لا تخلو من المخاطر، وتحتاج إلى الصبر والجهد، وتحمل الجوع والعطش، وربما استغرقت الرحلة أكثر من ثلاثة أشهر ذهاباً وعودة، والبعض يسافر على الجمال، وآخرون ربما عبر البحر حتى يلامس بر المملكة العربية السعودية ليكمل الرحلة على ظهور الجمال.

إذا ما عرفنا هذه الرحلة وسبرنا أغوارها، وأدركنا ما هيّتها، نستطيع أن نعرف أهميتها عند الأهالي في ذلك الوقت، لذلك كانت لها تلك المنولة العظيمة في نفوس الأهالي، فكانت مظاهر العادات والتقاليد حاضرة في هذه المناسبة الدينيّة الكبيرة، وهي شعيرة الحج الأكبر، فكيف كانت هذه العادات والتقاليد؟ وكيف كانت تمارس تلك الطقوس التي يقوم بها المجتمع الإماراتي تجاه تلك الثلّة القليلة التي سوف تغادر أوطانها وأهليها إلى رحلة لا تدري أتعود منها أم لا تعود؟ فالاحتفاء بذهاب الحجيج وعودتهم كان، ولا يزال، جزءاً أصيلاً من طقوس أداء الفريضة، لدى الشعب الإماراتي، بما يتضمنه ذلك من عادات وتقاليد خاصة بوداع قاصدي بيت الله الحرام، واستقبال العائدين بعد أداء الفريضة، وتشمل هذه العادات والتقاليد أهازيج وأكلات شعبية، وولائم وأعلاماً وشارات، شكلت إرثاً باقياً في الوجدان الإماراتي.

بما أن الرحلة طويلة، وتستغرق الوقت الطويل، فكان الاستعداد لأداء فريضة الحج يكون في وقتٍ مبكرٍ، وربما يبدأ في الربع الأول من السنة العربية، حتى إذا ما انتصفت السنة عُرِفَ من سوف يذهب لفريضة الحج لتلك السنة، وتبدأ الاستعدادات اللازمة من قبل الحجاج، حتى إذا ما انتهى شهر رمضان المبارك بدأت أولى طلائع الحجاج بالسفر إلى الديار المقدسة قاصدة المدينة المنورة ثم بيت الله الحرام.

يبدأ التجهير باختيار الشخص الذي يمتلك الجمال والذي يكون عارفاً بكل شيء عن رحلة الحج، فيتم تجهيز القوافل المتجهة للحج وتزويدها بكل ما يحتاجه الحجاج خلال الرحلة من المأكل والمشرب والأدوية اللازمة، ومن العادات والتقاليد المتبعة في مثل هذه الرحلة كان الرجل يذهب إلى أهله وجيرانه وأصدقائه، ويطلب منهم العفو والسماح بأن يحلّوا إن بدر منه شيء؛ لأنه ذاهب في رحلة ربما تكون رحلة اللّاعودة، فهو يريد الذهاب صافياً ليس لديه أحقاد أو ضغائن بينه وبين الآخرين.

تستعد القوافل المجتمعة للرحلة والانطلاقة في وقت واحد، وعندئذٍ يجتمع الأهل والأقارب والأصدقاء

لـوداع أهليهـم وجيرانهـم وأصدقائهـم، بينـما يقـوم أهـل بيـوت المسـافرين بإعـداد الأطعمـة المناسـبة لهـذه الرحلـة الطويلـة، ليحملهـا معهـم المسـافرون، وتنقطـع أخبارهـم حتـى يحـين موعـد وصولهـم إلى الديـار، وذلـك بعـد إنهـاء الحـج بوقـت ربمـا يسـتمر إلى أسـابيع، وأحيانـاً إلى أشـهر، وفي الوقـت المعلـوم والمحـدد، يتـم رصـد الأخبـار مـن الأهـالي، وهنـا يـأتي دور المطـراش ذلـك الشـخص الكثـير الأسـفار الـذي دأب عـلى الأسـفار، ولـه الجـمال الكثـيرة، ويجـوب مشـارق الأرض ومغاربهـا، ويـرى مـا لا يـراه الآخـرون، ومـما يـراه ويشـاهده تلـك القوافـل التـي جـاءت مـن بيـت اللـه الحـرام، بعدمـا أكمـل الحجـاج مناسـك حجهـم، فهـو أول مـن يراهـم، ويعلـم منهـم أي بلـد يقصـدون، فيكـون هـذا المطـراش هـو مـن يحمـل الخبر السـعيد، ويزفّـه إلى كل موقـع يمـر عليـه، ويكـون ذلـك المطـراش مرصـوداً مـن الجميـع، فمتـى مـا جـاء إلى مكان سـأله أهلـه هـل رأيـت قافلـة فـلان؟ أيـن وصـل أصحـاب القافلـة الفلانيّـة؟ ومتـى أخبرهـم بوصـول القافلـة التـي تخصّهـم تبـدأ النسـاء وأهـل الحـي بإعـداد الاحتفـالات.

بعـد أن ينقـل المطـراش الخـبر بقـرب موعـد الوصـول، تبـدأ الأسرة بوضـع الأعـلام الخضـراء عـلى أسـطح المنـازل، وفـور دخـول الحجـاج إلى البلـدة، يطلـق عـدد مـن الأهـالي والجـيران طلقـات مـن بنادقهـم للاحتفـال، وإعلانـاً عـن وصـول الحجيـج. ثـم يقـوم بنـثر النثـور، وهـي حلويـات، ومكـسرات، وأوراق وزهـور خـضراء، وبعـض القطـع المعدنيـة، تنـثر عـلى رأس العائديـن مـن الرحلـة على صوت أهازيـج ترحيـب بالعـودة. بعدهـا يبـدأ الأهـل والجـيران بالتوافـد إلى بيـت الحـاج لتهنئتـه بالعـودة، وبـدوره يقـدم الحـاج للمهنئيـن بوصولـه صوغـة الحـاج، التـي كانـت قديمـاً عبـارة عـن مـاء زمـزم، وتمـور المدينـة، وكحـل الأثمـد، وبعـض هدايـا الأطفـال البسـيطة، مثـل كاميـرا صغـيرة كانـت تسـمى عكاسـة، فيهـا صـور لمناسـك وشـعائر الحـج، وصـور للبيـت العتيـق، وكانـت تحـرك باليـد.

وكـما اسـتأثرت رحلـة الحـج بالذاكـرة الشـعبية والعـادات والتقاليـد في الطقـوس الخاصـة بهـذه الرحلـة الإيمانيـة، كذلـك الشـعر النبطـي اسـتأثر كذلـك برحلـة الحـج، وكانـت لـه وقفـات مـع شـعراء النبـط الإماراتيـين الذيـن جسّـدوا هـذه الرحلـة ووثقوهـا مـن خـلال أشـعارهم، لتكـون شـاهداً آخـر عـلى الحـج في الـتراث الشـعبي، يقـول الشـاعر عبدالله بـن سـلطان بـن سـليّم واصفـاً رحلـة الحـج قبـل ثمانيـة عقـود خلـت:

همّ السفر عالي الجناب وْصحبته
لي عصبته سِفر الويوه اشهامها
واعطى لنفسه ما بغت يوم اطلبت
صفْط العطا والطايلات اشهامها
هـذْوين لي مـرّن بهـن واذّمّـرن
وابها الشهود الناظـرة ولّامهـا

هـذمٍ تهيّـا في طريـجٍ جدّ بـه
لنـجٍ يسـير بـدون سـير وْلامهـا
واللي يبـاري لي لتمّـت نقـوتـه
م الطيّبـات الخيّـرين أعمـامهـا
في حال ما وصْل العجير إلنّ بـه
نـاسٍ ترحّـب باحتـرام كْلامهـا
من عقـب فيّـاي الغبيب ازّمّـلـوا
مـواتـرٍ تشـغـل بهـا خـدّامـهـا
ثمّ اقطعوا بعدٍ جليـل إيـلا بهـم
زول الـديـار وْعـاليـات أكمـامهـا
بْدار هجرٍ لـي بهـا مـن يلتجـي
للـواصليـن بْطيّبـات أكـرامهـا
ثمّ نووْا حثّ المسـير وقصـدهم
زوّار خيـر الأنبيـاء واختـامهـا
وصلوا حرم خير الأنـام وسـلموا
عـلـي نبـيٍّ مـن خيـــار آنـامهـا
يوم انقضى حجّ الوفود وودّعوا
دارٍ تعنّاهـا الـوفـود دْوامهـا
كلْ مرْكـزٍ لـي مرّ بـه خْمـولتـه
تلقـى مـواكيـب الجـري جدّمهـا
إيـلـنّ وافـي باليمـام وْحـفّ بـه
وآزم نزيـل بْقامتـه لـي قـامهـا
نصبت خيامه يـوم حصّ بْنـزلهـا
يا ذا العجب من قامته وخْيامها
رحّـب بهم سـاعـة تبيّـن زولـهم
لمّـا تبيّـن عقـب دكّ كْتـامهـا
يـا مـرحبـا بالسـاعييـن بـأرضنـا
والواصلين أم القرى واحرامها
يـا وفـد هِنّتـوا بصفطـان الـرضـا
مـن ربّنـا كتْب الجـزا بـاقـلامهـا

وتبقـى رحلـة الحـج ذاكـرة شـعبية تحتفـظ بكثـير مـن الحكايـات والمرويـات والقصـص والأشـعار التـي تجسـد هـذه الرحلـة الإيمانيـة والروحانيـة، وتمتـزج مـع الـتراث الشـعبي الـذي حفـظ لنـا جـزءاً مـن الذاكـرة الشـعبية في رحـلات الحـج عـبر قـرن ونصـف مـن الزمـن، ورغـم الحداثـة والمدنيـة التـي بلغـت ذروتهـا مـع مطلـع القـرن الواحـد والعشريـن، إلّا أنـه تبقـى الكثـير مـن الممارسـات والعـادات والتقاليـد تـؤدى إلى هـذا اليـوم، ربمـا تختلف في الشـكل، ولكـن تتفـق في المضمـون والمعنـى.

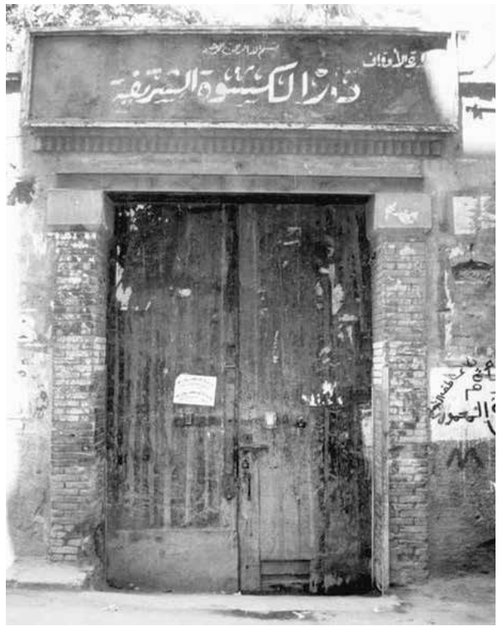

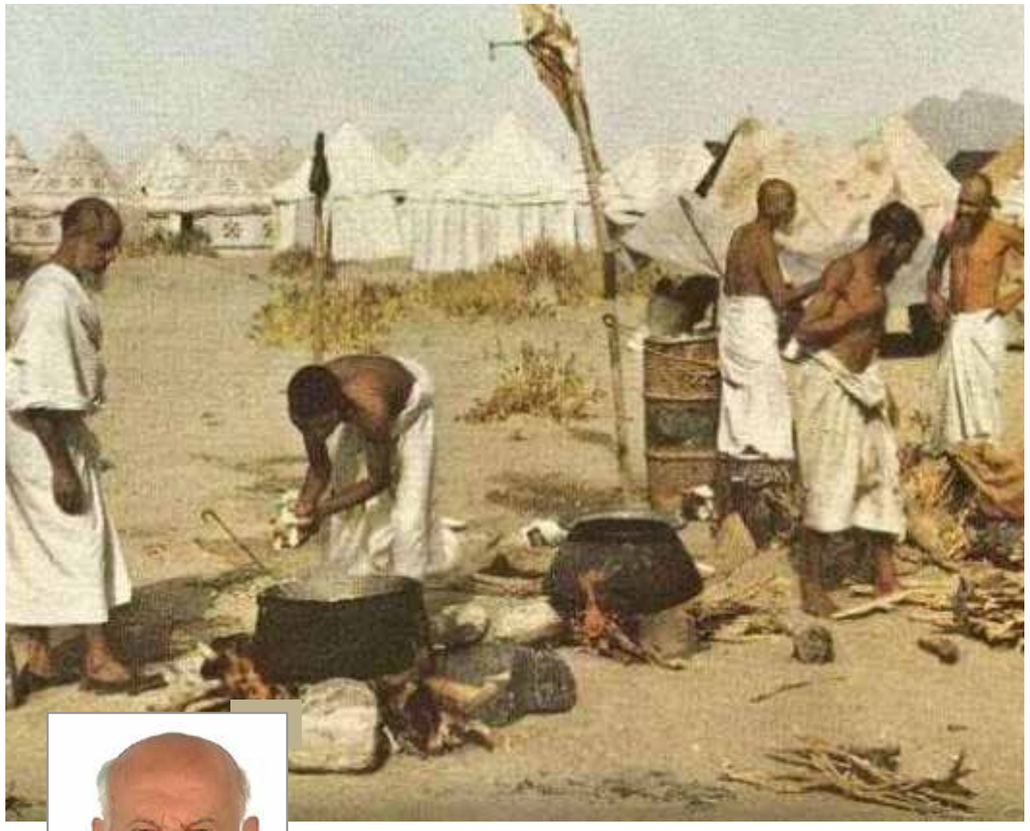

رحلة الحج

في التراث العربي والإماراتي

محمد نجيب قدّورة
كاتب وباحث - فلسطين

1: أطياف وذكريات:

الحج ميلاد جديد، تقول الملائكة فيه للحجاج: نزلتم أهلاً وحللتم سهلاً، حجكم مبرور، وسعيكم مشكور، يذهب تعب الحج، ويبقى أجره، سواء في وعثاء السفر أو في رخائه، أنتم اليوم بألف نعمة لو تأملتم بأطياف وذكريات، أقول صدق ابن القيم بقوله:

فلله كم من عبرة مهراقة
وأخرى على آثارها لا تقدّم!
وقد شرِقت عين الحب بدمعها
فينظر من بين الدموع ويسجم

أجل ما عليكم أيها الحجاج لو غبرتم أقدامكم ساعات في سبيل الله، محجكم فريض إن استطعتم ولو مرّة واحدة من العمر... ألا تسعدون بأنكم من حجكم الصادق النية والمناسك سوف تعودون كمن ولدته أمه؟! ألا ترون كسوة الكعبة وحمام الحمى، سواكم من غير المسلمين يزحفون إلى معابد وهياكل ما أنزل الله بها من سلطان، أما أنتم فتحجون إلى بيت وضع للناس، تشدون الرجال وأنتم واثقون بحفظ الله من أجل وصولكم سالمين، تجهزت الطرقات والسفن والمطارات، وأنتم برعاية عيون تحرس متاعكم وأرواحكم.. فكم راود سواكم خياله أحلامه وأمنياته بأن يسير معكم في رحلتكم العسيرة.

كل شيء في زمانكم تحت أمركم وخدمتكم، ولا بأس أن يقترن حجكم بالعلم والتجارة، وحب الاستطلاع، حتى تملأها عيونكم إعجاباً بمهرجان يقام لله وحده.

2: مسيرات مليونية:

لأن البيت الحرام كان أول بيت وضع للناس، كانت رمزية التوجه ببوصلة الروح إلى مراد الله، ولأن الإسلام آخر رسالة سماوية أنزلها الله للناس كافة، أكمل الله دين الإسلام بتمكين مكة قبلة ختامية، رضي الله بها لتمكين العقيدة التي بدأها إبراهيم، عليه السلام، بعد أن أمره الله بأن يؤذّن للناس بالحج لأهداف، أولها طاعة الله، وتطهير النفس، وتأكيد الولاء، أما الأهداف الأخرى فهي المنافع للناس بعد إجراء الشعائر في موسم الحج التي تبدأ من رؤية هلال الأول من ذي الحجة، فهو اليوم الأغر والفاتح، وذو الحجة هو الشهر الثاني عشر من السنة القمرية والتقويم الهجري والشهر الثاني من الأشهر الحرم، أعني موسم الحج.

وقد أحيط موسم الحج بضوابط، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال، والحج فريضة على من استطاع إليه سبيلاً، تبدأ بالنية والإحرام والطواف والسعي بين الصفا والمروة والمبيت بمنى والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة ورمي الجمرة الكبرى وذبح الأضاحي، بالإضافة إلى حلق الرأس وطواف الإفاضة، وأخيراً رمي الجمرات الثلاث، وطواف الوداع، كل ذلك في مسيرات مليونية إلى قبلة المسلمين واحة السلام للإنسانية جمعاء.

رحلة ابن جبير أنموذجاً في التراث العربي

لطالما قرأنا عن رحلات عربية كان القصد فيها الحج، قد تستغرق أمدها ثلاث سنوات كرحلة ابن جبير الذي وصف في رحلته ما كابده المسافرون من ضيق وذعر في أوقات الحروب بين الصليبيين والمسلمين، فكانت رحلته تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار من أهوال البحر، فالرحلة عبر البحر المتوسط ومن مصر من ميناء عيذاب إلى جدة لتكون البشرى بالسلامة عند رؤية منارة الإسكندرية أولاً، والبشرى الثانية بالوصول إلى مكة والمدينة مع شكواه من آفة الرياح الصحراوية، والخوف من الهلاك جوعاً وعطشاً، وفي العودة تحدث عن بعض العائدين بوصفهم (كأنهم منشرون من كفن)، وأن أهل المراكب كانوا يجلسون الناس بعضهم على بعض كأنهم أقفاص الدجاج المملوءة ودون مبالاة بما قد يصنع البحر.

ابن جبير باعتباره عالماً وصف الإسكندرية والقاهرة وجدة بكل ما يعجب الزائر، وفي المقابل ما في الناس من استغلال للحجاج في الجهات الحجازية، حتى كأن الخارج من كل أزمة مولود جديد، حتى قال من سخطه «لا إسلام إلا ببلاد المغرب»، وبعد الوصول إلى الحرم الشريف مسجلين عند صاحب مكة الذي أوصلهم إلى محط رحلهم للإحرام والتزود بالماء من بئر (معينة) للقيام بالعمرة في مكة المحروسة، سعداء بالتلبية والطواف والدعاء كأنهم حسب وصفه في عروس من ليالي العمر، وبكر بنيات الدهر، والكعبة هي أيضاً كالعروس المجلوة المزفوفة، ويبدأ بعدها بتوصيف المسجد الحرام والبيت العتيق من السدانة إلى الحجابة، ليفيض الحديث عن شعائر ومناسك الحج، ثم شدّ الرحال إلى المدينة المنورة، وباعتباره من العلماء ذكر أنه زار غار حراء وجبل ثور في مكة وأماكن موقعة بدر وأحد، المهم في هذه الرحلة ما ذكره ابن جبير من أساليب البيع والشراء من حجاج يمنيين بطريقة المبادلة، بعد أن عقدوا النية على الحج والعمرة وميرة البلد، وهذا ما يرجعنا إلى قضية المنافع الشرعية.. تحدث ابن جبير عن غسل الحرم وكسوة الكعبة، وإفراد يوم الطواف للنساء، ثم ليتابع ابن جبير رحلته إلى العراق، ثم إلى الشام وفلسطين، حيث عادة شد الرحال إلى المسجد الأقصى من تقاليد الأزمنة.

وهؤلاء أيضاً رحالة حجوا كعلماء:

- ابن بطوطة: هو مثل ابن جبير، إلا أن رحلته كانت برية، خرج من طنجة يقصد الحج، ليعود بعد ثلاثين عاماً لمسقط رأسه.

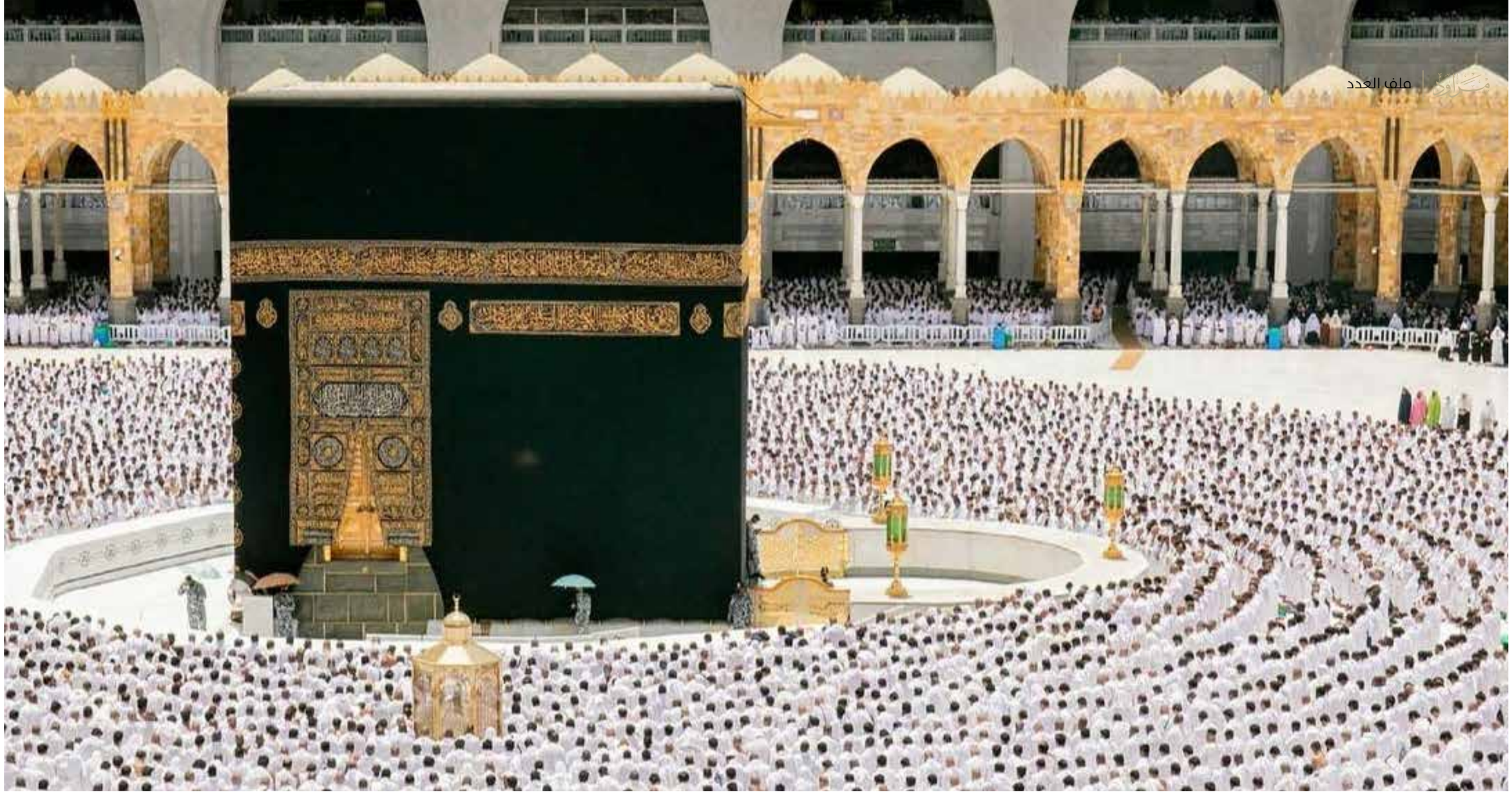

- ابن خلدون: خرج ابن خلدون أيضاً في زمن الصراعات والعنف في عالم السياسة من تونس إلى فاس إلى الأندلس، ثم الرحيل إلى القاهرة، والمرور بمكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف ودمشق الفيحاء. ويبدو أن الحج لم يكن إلا حجته الظاهرة، ربما فراراً من البطش والمحنة، ليستقر في مصر وادعاً، وليدرس في الأزهر، ويتحول إلى قاضي القضاة، وبعد عزله بدأ رحلة الحج، في موسم الحج غادر مصر بطريق بحر السويس إلى ينبع ثم إلى جدة فالمدينة فمكة، وكانت شكوى ابن خلدون رياح البحر وغبار البر، وبالطبع كان ابن خلدون قد تابع رحلته إلى بيت المقدس ليتبرك بزيارته والصلاة في المسجد الأقصى ويزور فلسطين، وهؤلاء العلماء لا يحصون، بل إن منهم من استقر في مكة وبات من أهلها على مستوى العالم الإسلامي.

رحلة الحج في التراث الإماراتي

عندما كنت أقوم بدراسة عن العمل البحري في رحلات ابن ماجد، عرفت كم كانت طريق الحج صعبة! ومثلها توجيه القبلة، فاخترع ابن ماجد البوصلة، كمعجزة في زمانه، وابن ماجد أقام في مكة حاجاً عابراً البحر الأحمر إلى جدة، وصاهر أهلها من بني ثقيف. كما ذكر الدكتور عبدالستار العزاوي - رحمه الله - لي شخصياً أن طرق التجارة إلى أسواق العرب القديمة كانت كلها توصل إلى مكة، حيث التبادل التجاري المرافق لأعمال الحج، وكأن العرب لم يغيروا مسالكهم لتتحول طرق التجارة إلى طرق للحج، وليس هذا بغريب أن يقوم أهل الإمارات بحملات للحج منذ القديم براً وبحراً، كما حدثني كبار السن، وكيف كانوا يستعدون لرحلة قد يكون فيها المسافر مفقوداً، ليتم التوديع كوداع الغاصة في موسم الغوص.. ولا تختلف المعايير القصدية عن أي بلد آخر سواء بسواء، كما في الطريق اليماني أم العراقي أم الشآمي أم المصري، فالأهداف واحدة في العبادة، وقد ترفق بتبادل تجاري اشتهر به حجاج اليمن والإمارات وعمان والبصرة.. ولا ننسى أهازيج الحج، وتحنين القلوب التي تفضح عن الاشتياق في الذهاب والإياب، ربما هي طلب تعجيل في أجر الحاج، وطلب هديته. كقول الأهزوجة:

درهوا يا مدرهين واستعينوا بالله
واكتبوا يا كاتبين كل شيء من الله

أو: يا دريب الحج لا تنبت الشيكان
انبتن كادي وريحانه
حتى لجاك الحبيب يستريح شويه

وأخيراً، فإن المكرمات الخيرية في دولة الإمارات كانت من نصيب الراغبين في أداء فريضة الحج، وهذه سنة سنها الشيخ زايد، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، فمن جهز الحاج كمن حج معه.

رحلات الحج الإماراتية..

من القوافل والجمال إلى السيارات والطائرات

فاطمة سلطان المزروعي
رئيس قسم الأرشيف الوطني

يعدّ الحج فريضة من الفرائض التي حثّ عليها الإسلام، وحاكت مبادئ الدين الإسلامي السمحة نسيج المجتمع الإماراتي القائم على المحبة والتسامح والعطاء والمساواة، لقد استطاع المؤسس الباني الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، في أن ينشر مبادئ التسامح والسعادة في نفوس أبنائه والقيادة الرشيدة التي سارت على خطاه، فنرى إيمان أهل الإمارات، والتزامهم أداء فريضة الحج منذ القدم، فرغم الصعوبات والظروف الصعبة، فقد تكاتف الجميع من أجل أداء فريضة الحج، وعندما تيسرت أمور الحياة بادرت دولة الإمارات إلى تمكين المسلمين في أنحاء العالم من أجل تأدية شعائر الحج، وقد استطاعت دولة أن تثبت أنها دولة الإنسانية ووطن التسامح والسعادة.

لقد حرص سكان دولة الامارات في الماضي على أداء فريضة الحج، إيماناً بقول تعالى: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً}، كما كان للمطاوعة أثر كبير في إرشاد الناس أثناء إمامة المساجد، ونصحهم بأصول الدين، وطلب العلم لخدمة المجتمع.

لقد كان الحج في السابق شاقاً جداً، فهو يحتاج إلى قوة الصحة والبدن، ويتطلب من الحاج الصبر وتحمل عناء طرق قوافل الحج التي عرفت بوعورتها وخطرها، ولا ننسى الأعاصير الجوية، ولا التقلبات المتمثلة في ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها أو الأمطار، إضافة إلى أنهم قد يتعرضون إلى قطاع الطرق واللصوص، أو قد تنفذ منهم المؤونة من التمر والماء، ويصعب توفيرها وسط الصحراء القاحلة.

كانت ظروف الترحال والطرق البرية التي يسلكها الحجاج قديماً صعبة، وكان عدد أفراد القافلة الواحدة يراوح بين عشرة وخمسة عشر شخصاً، من النساء والرجال، وكان يتسلح الرجال ببندقيات خفيفة لتأمين الحماية ودرء الخطر، وتتحرك القافلة على ظهر الجمال التي عادة يفوق عددها عدد المسافرين، والغرض من ذلك الرأفة ولتنال قسطاً من الراحة، وتسير هذه الجمال من الصباح الباكر حتى الظهيرة، وحينئذ يستظلون بظل الأشجار أو الصخور، ثم يستكملون المسير حتى غروب الشمس، وعندما يكون القمر بدراً تكمل القافلة مسيرتها فتقطع مسافات تعوضها من السفر نهاراً تحت أشعة الشمس، يروي السيد سالم محمد بن كبينة الراشدي، وهو (دليل متمرس في تضاريس البادية كلفه الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، مرافقة الرحّالة الإنجليزي ويلفريد ثيسجير، مؤلف كتاب «الرمال العربية»، أثناء رحلاته الاستكشافية في مناطق من الصحراء العربية والربع الخالي: «إن قبائل بعينها كانت تسكن غرباً، وتكون في اتجاه القبلة، ومنها قبيلة الصيعر والكرب، والدّهم وما جاورها من القبائل»، وهذا تشريف وتأكيد أن الاتجاه غرباً يتيح للمسافر معرفة القبلة واتجاه مكة، وموقع الأقوام في الحلّ والترحال.

إن رحلة حجاج الإمارات تبدأ بتوجههم ناحية الغرب حتى الوصول إلى حدود السعودية، وكان ذلك يستغرق أسبوعين تقريباً، ثم يتوجه الركب إلى منطقة الأحساء ثم مدينة الرياض التي تبعد عن مكة المكرمة نحو ألف كيلومتر، وهي مسافة طويلة جداً توازي تقريباً

ما قطعه الحجاج قبل ذلك، إذ كانوا يمرون بالمدينة المنورة قبل التوجه مباشرة إلى مكة بعد التوقف في أحد الأماكن التي فيها بئر للماء، فيغتسلون ويقضون حاجاتهم، ويبدؤون بالإحرام، ومعها مناسك الحج.

لقد كان اعتماد أهل الإمارات على الإبل في حلّهم وترحالهم، وكانوا يستخدمونها في الذهاب إلى الحج، وكانت رحلات الحج تستغرق أربعة أشهر أحياناً، يقضي المسافرون شهرين منها في الذهاب وشهرين في العودة، يظهر لنا ذلك مدى ارتباط البدوي بدابته وتكريمه للإبل، ويعتبر الحج من أهم الوقائع التاريخية التي أسهمت في التوثيق التاريخي للأحداث، فالبعض يذكر أنه ولد في السنة التي ذهب فيها الحاكم أو أحد أعيان البلاد لأداء فريضة الحج، ومنهم من يذكر أداء الفريضة بحدث معين كالزواج أو السفر أو الموت وهكذا.

لقد أسهم قيام دولة الإمارات العربية المتحدة في تسهيل السفر إلى الحج، كما أن ظهور السيارات والطائرات ووسائل التنقل قد ذللت الصعاب، فتوافرت حملات الحج البري والبحري، لقد قامت الدولة بتيسير رحلات الحج على مدار العام، وارتفع بذلك ضيوف عدد أبناء الإمارات الذين يحلون وأسرهم ضيوفاً على الرحمن في موسم الحج أو على مدار العام لأداء مناسك العمرة، كما قامت الدولة بتوظيف علماء الدين لتوعية الشعب وشرح مناسك الحج، لقد أسهم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، في تمكين أبناء شعبه وتسهيل أداء فريضة الحج على نفقته الخاصة، عندما أوفد 600 مواطن لأداء فريضة الحج في عام 1980 على نفقته الخاصة، كما أن ذاكرة الرواة تروي لنا بما يعرف بـ«البروة» في الإمارات قديماً، وهي ورقة مكتوبة بها أمر يقبض بموجبه حاملها المخصصات المذكورة فيها، فيذهب من كان قاصداً الحج إلى مجالس شيوخ القبائل وأعيان البلاد للحصول على مؤونة الدرب، مثل الأرز والطحين والسكر والقهوة؛ لذا كانت مبادرة الشيخ زايد، طيّب الله ثراه، لصون كرامتهم، أنهم يقدمون طلبهم عبر القنوات المعتمدة، والدولة تتكفل بطلبهم، ومعها الرعاية الصحية التي توفرها البعثات في مواسم الحج المتعاقبة.

يعتبر الحج ظاهرة اجتماعية كبيرة، يودع الحاج فيها أقاربه وأسرته طالباً منهم الصفح والتسامح، فيذهب إلى منازلهم، ومنهم من يقصدونه لمنزله حتى يذهب إلى الأراضي المقدسة وهو خالٍ من الشوائب، كما يتوافدون إلى منزله بعد عودته لتهنئته بسلامة العودة، فكم من الجموع توافدت لتهنئة الشيخ زايد، رحمه الله، عند عودته من الحج دلالة على أن الشعب والقيادة أسرة واحدة، كما أن في الماضي كان يتم وضع «نشرة» أو عَلَم باللون الأخضر على منزل الحاج، وذلك حتى يعلم الملأ بأنه قد عاد من الحج، فيتوافدون عليه للسلام، كما أن الحاج عندما يعود من الأراضي المقدسة هناك هدايا يحضرها معه، وقد أصبحت جزءاً من الذاكرة، وهي ماء زمزم، وعجوة المدينة والمسابح والمصاحف وسجادات الصلاة، وألعاب للأطفال، وهي على هيئة كاميرا فيها صور مكة المكرمة ومواقع الشعائر المقدسة والعطورات والبخور.

لقد استعرض الباحث عبدالله عبدالرحمن في كتابه (فنجان قهوة) من خلال الحوارات مع المعمرين وذوي الخبرة من أبناء الامارات وذكر عن أحد المعمرين من رأس الخيمة وقد توفي عن عمر تجاوز 115 عاماً وهو المواطن حسن سعيد عكش، إنه قام بإداء فريضة الحج قبل قيام الاتحاد، حيث ركب سفينة أقلته من دبي إلى مدينة الدمام ثم واصل رحلته إلى المدينة المنورة سيارة واستغرقت رحلته وقتها 45 يوماً، كما يذكر الراوي الصعوبات الطبيعية والاقتصادية والمعيشية أثناء مسيرة الحجاج ورغم ضعف الإمكانات والوسائل شقوا طريقهم عبر البراري القاحلة، وركبوا عباب البحر وأهواله في سبيل الوصول إلى الكعبة المشرفة عبر رحلات استغرقت شهوراً عدة من السنة، وكان يقوم برحلة الحج على ظهور الجمال وفي قوافل متعددة تضم كل منها قرابة 15 جملاً وناقة وتضم القافلة رجالاً ونساء إلى جانب احتياجاتهم الاستهلاكية الضرورية من المؤن والأغذية وغير ذلك من اللوازم ، لقد كانت الإبل هي الوسيلة الأساسية والأكثر اعتماداً في رحلات الحج.

كان هناك دلالون خبراء بخطوط السير وبمواقع توافر المياه والكلأ للراحلة من الإبل، وكذلك المحطات الآمنة للراحة والاستقرار من عناء الطريق ومشاق الرحلة وعلى الرغم من الاحتياطات وتأمين المستلزمات إلى الحجاج، وكثيراً ما كانت بعض الإبل هي الأكثر عرضة للنفوق في عرض الصحراء خلال طريق الذهاب أو العودة، وكان يتم الاستعاضة عن الأبل النافقة بشراء إبل غيرها من مناطق الإحساء أو جدة أو غيرها من الحواضر، وكان يحدث أن تترك بعض القوافل جمالها للراحة والرعاية في إحدى المحطات على طريق الرحلة داخل الأراضي السعودية، وهناك تقوم باستئجار جمال

أخرى لمواصلة رحلتها إلى الأراضي المقدسة في مكة والمدينة، ولتنقلاتها الداخلية وبرفقة حمالين سعوديين كانوا يتفرغون في مواسم الحج لنقل وخدمة حجاج بيت الله الحرام، كما كانوا يتكفلون بتوفير المساكن والضروريات الأخرى اللازمة هناك، وكذلك رحلات حج عبدالله بن نصيب وهو أحد سكان خور كلباء أدى فريضة الحج 32 مرة حيث سافر أول مرة بصفته حاجاً في منتصف القرن الشعرين ثم أصبح بعد ذلك مرشداً للحجاج وكان ينطلق في رحلته كل عام مستقلاً الشاحنة عبر الأراضي الوعرة إلى دبي ومن هناك كانت القافلة تنتقل إلى البحرين بالقارب قبل التوجه إلى مدينة الخبر في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية وكان الطريق الذي يسلكه عبدالله بن نصيب مشابهاً لطريق أم عبيد التي انطلقت مع زوجها وولدها بين مجموعة من الحجاج من مدينة خورفكان في ستينات القرن العشرين حيث أبحرت مجموعة الحجاج من ميناء الشندغة في دبي إلى مدينة الدمام في المملكة العربية السعودية وكان هذه الرحلة الأولى لأم عبيد والكثير من الحجاج معها عبر البحر، وتسترجع أم عبيد ذكريات رحلتها قائلة " تعرض الكثير من الحجاج لدوار البحر، وأذكر أنني كنت أسأل زوجي في عرض البحر عما إذا كان اللنش متحركاً أم واقفاً)

لقد ذهب عبدالله بن نصيب مرات عدة إلى الحج مرشداً حيث رافق مجموعات من الحجاج من بلدته إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة عابراً الطريق نفسه على مدار ثلاثة عقود وكانت الرحلة ذهاباً وإياباً من خور كلباء إلى دبي والبحرين والخبر والمدينة المنورة ومكة المكرمة عادة تستغرق ما يقرب من شهرين ونصف.

أما الحجاج الآخرون في منطقة الإمارات فقد كانوا يسافرون إلى الحج عبر متن السفن التجارية المتجهة إلى مومباي، حيث كانوا يلتقون بمجموعات من الحجاج القادمين من جميع أنحاء جنوب آسيا. ويتجهون معاً إلى مدينة جدة عبر بحر العرب وكانت هذه الرحلة تستغرق شهراً تثريباً ومن ناحية أخرى كان هناك آخرون يسافرون إلى الحج براً.

أما رحلة سعيد بن راشد الزعابي، لقد انطلق في رحلته إلى الحج عن طريق قافلة من الإبل عام 1939، وقد أحضر معه خمسة من الإبل ليبيعها على طول الطريق حتى يغطي نفقاته طوال رحلته التي استغرقت حوالي أربعة أشهر، وكانت قافلة الحج تمر على طول ساحل إمارة أبوظبي قبل أن تعبر المسطحات المحلية لسبخة مطي التي وصفها الدبلوماسي البريطاني اللفتنانت كولونيل(ستيفن بويد مايلز) قائلاً:" هو المستنقع الغادر، الذي يمرون به عند عبور المناطق المهترئة حيث تضل الإبل طريقها وتغرق في الوحل) ومن هنا ومروراً بمدينة السلع سافر الزعابي والحجاج معه شمالاً نحو واحة سلوى في الطرف الجنوبي لشبه جزيرة قطر ثم انطلقوا بعد ذلك عبر صحراء(الجافورة)وقد مر

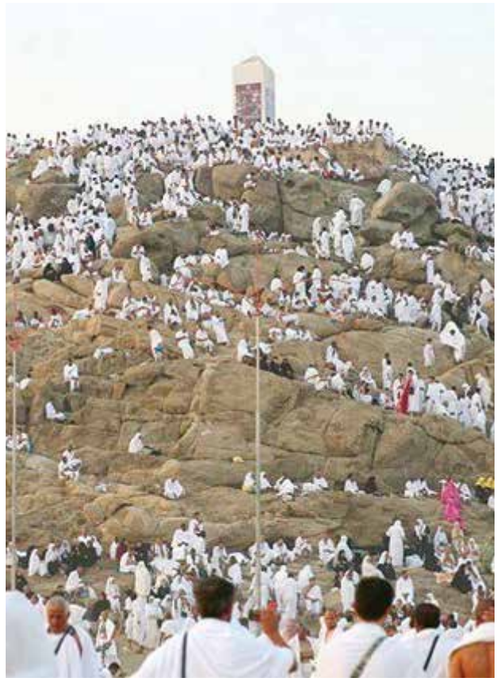

حينها 26 يوماً على مغادرتهم وطنهم ووصلوا إلى واحة الأحساء ثم إلى مدينة هفوف وسوقها حيث سلكت قافلة الزعابي مثل الكثير من الحجاج الآخرين القادمين من شرق الجزيرة العربية طرق الحجاج الذي سلكه المستكشف البريطاني هاري سانت جون بريدجر فيلبي ونشر تقريراً عن رحلته الاستكشافية في "ذا جيوغرافيكال جورنال" "الدورية الجغرافية "عام 1920، ويذكر الزعابي كيف كان رحلته من الهفوف إلى الرياض حيث صمدت قافلته خمسة أيام دون مياه وعند وصوله على العاصمة السعودية تم استضافتهم من ملك السعودية وذلك أيام حكم الملك عبدالعزيز بن سعود الذي كان قد خصص مواقع لاستضافة الحجاج وإكرامهم، كما يذكر الزعابي بأن باقي رحلته إلى مكة المكرمة كانت سريعة ووصلت قافلته إلى الدرعية العاصمة التاريخية لآل سعود، ثم المويه حتى العشيرة وفي الزيمة أحرم ودخل مكة المكرمة وأدى فيها مناسك الحج، لقد وصف فيلبي في رحلته من الرياض إلى ضواحي مكة المكرمة كيف كان يمر طريق الحجاج إلى مدينة الدرعية بوادي حنيفة وصولاً إلى جبال نجد وعابراً منطقتي العارضة والحمراء ثم قرى القويعية ومزعل والوريضة وبعد عبور منطقة جبل الدمخ يلتقي الطريق الضحل بين الأراضي المرتفعة والصحراء القاسية لقد انطلق ابن بطوطة في رحلته عام 1332 حيث اتجه من جزيرة البحرين إلى مدينة الهفوف ثم إلى الخرج حتى وصل على مكة المكرمة، كما انطلق ناصر خسرو رحلته المشار إليها عام 1051 م حيث اتجه من مكة المكرمة إلى مدينة الطائف والأفلاج ثم إلى الخرج وبعدها إلى الهفوف ثم غادر بع ذلك على البصرة في العراق

كما غادر الدكتور مارك بيتش عام 2015 ضمن بعثة تنقيب تابعة لهيئة أبوظبي للسياحة والثقافة على طول الساحل الشمالي لإمارة أبوظبي وكان الهدف من البعثة تتبع طريق الحج القديم من ابوظبي وحتى الحدود السعودية وتصوير المواقع التراثية الثقافية والطبيعية الممتدة على طول الطريق ومن بين المواقع التي تمت زيارتها غافة الشبهانة، بالقرب من مدينة السلع، حيث امتدت أشجار الغاف التي كانت تنبت بمفردها في الصحراء وكانت تعرف باسم الشهبانة وهي إحدى العلامات الرئيسية في طريق الحجاج المتجهين نحو الغرب، وقد كانت مكاناً

للاستراحة وقد اعتاد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان طيب الله ثراه زيارة الشجرة مما جعل لها أهمية تاريخية وعندما سقط فرع من الشجرة أمر الشيخ زايد بتدعيمها ولا تزال غافة الشهبانة قائمة حتى اليوم حيث تشكل محوراً لغابة الشهبانة التي تبلغ 300 هكتار والتي تمت زراعتها بتكليف من الشيخ زايد، كما وجدت أشجار الغاف في بعض الأماكن على طول طرق التجارة القديمة التي ترجع إلى عهد ما قبل ظهر الإسلام وطرق الحج في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية

رحلات الحج الإماراتية

بين متعة المعاناة وأهازيج الذكريات

مريم سلطان المزروعي
كاتبة - الإمارات

يعدّ الحج ركناً من أركان العبادة في الإسلام، عندما تبدأ رحلة الحج، نرى الاستعدادات، الجميع أشبه بخلية النحل، الكل يشارك ويساعد من نوى الذهاب إلى الحج، بتوفير كل ما استطاع من قدرات وإمكانات، فالتحضيرات للحج تتم قبله بفترة طويلة؛ حيث ينوي الحاج النيّة، ويعقد العزم لبلوغ المدينة المنورة ومكة، بزيارة الأهل والجيران والأصحاب والأصدقاء، والتقائهم، وطلب العفو ممن أساء إليه أو أخطأ في حقه.

كانت هناك وسيلتان للنقل، إحداهما بوساطة الخشب أو ما يطلق عليها الجوالبيت الضخمة، والأخرى من خلال الركوب على ظهور الإبل.

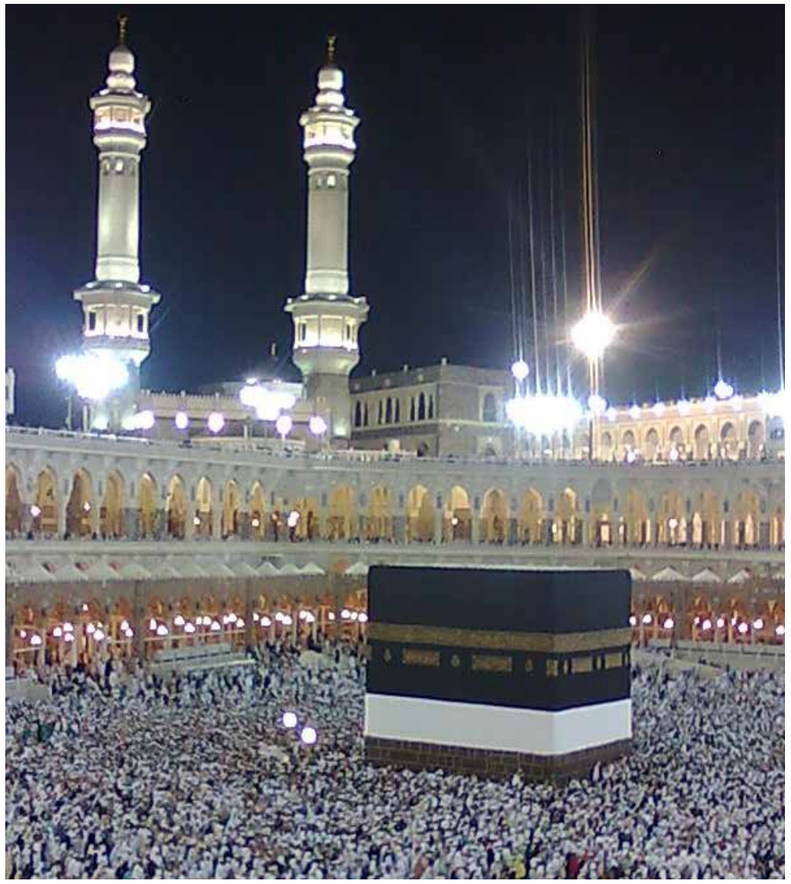

يُذكر في إحدى الروايات للسيد الحاج بن حمد من مدينة أبوظبي: «كانت رحلة الحج من أصعب الرحلات التي تستمر قرابة الخمسة أشهر، أو ثلاثة أشهر على حسب طاقتهم وقدرتهم وتوافر وسائل النقل، وذلك بسبب صعوبات الحياة سابقاً؛ حيث كانت محفوفة بالمخاطر، لعدم وجود البنى التحتية من الطرق المعبدة أو الاستراحات، أو توافر وسيلة نقل أخرى غير الإبل التي كانت بحاجة إلى حراسة حتى لا تتعرض قوافل الحجاج لقطاع الطرق، وبالتالي إلى السلب أو الخطف أو للحيوانات المفترسة، كما كانوا يحملون معهم الحطب والطعام والزاد والماء الذي يحمل بالسعن (قِرْبة تستخدم لحمل وحفظ الماء ولها استخدامات أخرى)، مع بعض البنادق لتأمين رحلتهم، وضمان أمنهم واستقرارهم، ولابد أن يكون معهم الدليل الذي يحرص على ضبط حركة السير الذي يكون ملماً ويعرف جيداً الأمكنة والطرقات وأماكن وجود الماء ومواردها، كما أن خط سير حجاج أبوظبي يبدأ بالمرور بالأراضي القطرية حتى الأحساء بالسعودية، ومن ثم إلى الرياض، وبعدها إلى المدينة المنورة، ومنها ينطلقون إلى مكة المكرمة، يردون الماء ويرتاحون، كما كانوا يستبدلون إبلهم بإبل أخرى قوية، حتى يستطيعوا مواصلة المسيرة، كما كانوا يرددون تغاريد، ولكن عندما يصلون بالقرب من المدينة المنورة، تبدأ تكبيرات الإحرام، أذكر أن والدي - رحمه الله - كان يحب الشعر والقصائد ويرددها دائماً، يقول لي: عندما كنت في الطريق إلى الحج، كنت أتسلى بذكر الأبيات الشعرية.. حيث كان يستحث قريحته، ويصفّي ذهنه، كما كان والدي يمتلك سرعة البداهة، فالشعر لديه أشبه بعين الماء النابضة بالحياة، ومنها قصيدة للشيخ راكان بن حثلين:

يا ما حلا الفنجال مع سيحة البال
في مجلس ما فيه نفس ثقيلة
هـــذا ولـد عم وهذا ولـد خال
وهذا رفيـقٍ ما لقينا مثيلـه

ومـن الروايـات أيضـاً، مـا رواه لي السـيد خميـس بـن سـعيد مـن مدينـة دبي: «كنـا حريصـين كل الحـرص عـلى ذبـح الأضاحـي بأنفسـنا، وتوزيـع لحومهـا عـلى الفقـراء والمحتاجـين في ضواحـي مكـة المكرمـة، وعنـد الانتهـاء مـن مناسـك الحـج، نسـتعد لرحلـة العـودة، بعـد أن نعبـئ السـعون بمـاء زمـزم، ونأخـذ معنـا الهدايـا بسـيطة كسـجّادات الصـلاة والمسـابح والغـتر والتمـر، وغيرهـا مـن هدايـا للأطفـال، وكان لدينـا شـخص يطلـق عليـه (المطـراش)؛ أي المبشّـر الـذي يبـشر الأهـالي بوصـول قوافـل الحجـاج، وعنـد وصـول الحجـاج إلى ديارهـم كان الأهـالي يسـتقبلونهم مـن الرجـال والنسـاء والأطفـال بسـعف النخيـل، ويتوافـدون مـن كل صـوب فرحـين بقدومهـم سـالمين غانمـين، فالحـج فيـه كثـير مـن المشـكلات والأخطـار والمشـاق، فالإمكانـات ضئيلـة والطـرق صعبـة والوسـائل ضعيفـة، فالـدلال في المـاضي كان شيء مهـم للقوافـل، حيـث كانـوا يتفقـون معـه قبـل فـترة، مقابـل مبلـغ بسـيط يتشـارك فيـه الجميـع، فهـم أدرى بمواقـع توافـر الميـاه والـكلأ للإبـل، بينـما الذيـن يركبـون السـفن كانـوا ينتقلـون مـن دبي، حيـث كانـت السـفن تصطـف بأشرعتهـا الضخمـة بانتظـار حجـاج بيـت الله الحـرام، لتسـتعد للرحلـة، بعـد التأكـد مـن صيانتهـا وتوفـير كل المسـتلزمات عليهـا، ومنهـا يصلـون إلى البحريـن التـي كانـت تسـتغرق أيامـاً معـدودات، ومـن البحريـن إلى السـعودية بمنطقـة الخـبر، ومنهـا إلى المدينـة المنـورة، بعدهـا يركبـون سـيارات كبـيرة أشـبه بالشـاحنات المكشـوفة التـي تنقـل الحجـاج للأيـام».

وفي إحـدى الروايـات الشـفاهية عندمـا كانـوا ينطلقـون بالسـيارات للحـج يعـدّون القصائـد، وينشـدون ويذكـرون اللـه، ويبـدؤون بتكبـيرات الإحـرام، لـكي يمـر عليهـم الوقـت، ويكـسرون الصمـت القاتـل في هـذه الطـرق الوعـرة الطويلـة الصفـراء الشاسـعة والمترامية الأطـراف، للعديـد مـن الشـعراء، ومـن إحـدى هـذه القصائـد أبيـات للشـاعر أحمـد الكنـدي المـرر – طيّـب اللـه ثـراه -:

صوبهم في خاطري سيره
فـوق جيبٍ يقطـع الفيّـه
يطـرب السوّاق في سيره
لـي ضـــرب دارٍ خـلاويّـه

ذكـر المؤلـف محمـد لطفـي جمعـة، في كتـاب «الأيـام المـبرورة في البقـاع المقدسـة 1940م»، مـدى معانـاة الحجيـج وهـم في عـرض البحـار: «شيء واحـد لم يـرق للحجيـج، هـو أن أصحـاب اللنشـات (السـفن) حملوهـا فـوق وسـعها في الذهـاب، وأخـذوا مـا اشـترطوا عليـه، ولـدى العـودة منعـوا أن ينـزل مـن جـدة إلى الباخـرة أكـثر مـن أربعـة أشـخاص في كل لنـج، فجـاؤوا جـدة قبـل الحـج ثقـالاً، وعـادوا مـن جـدة بعـد الحـج خفافـاً، وقـد بلغـت معظـم اللنجـات مـن القـدم مـا لا تؤمـن معـه عاقبـة النـزول بهـا، تخـزن مـن الموسـم إلى الموسـم، ولا (الكُهْنَـة)، ويخيـل إليّ أن تلـك النقـالات البخاريـة لا تنشـط إلا شـهراً، ففيهـا المخـرق والممـزق والمعـرض للاحـتراق والغـرق، ولكـن اللـه، سـبحانه وتعـالى، كفيـل بالنجـاة والإنقـاذ، فيرسـل الريـح رخـواً رهـواً، يـزف موكـب أضيافـه المحرمـين القاصديـن إليـه، يمـلأ شراع المراكـب ريحـاً طيبـة ويمـلأ نفوسـنا فرحـاً وزهـواً، فتترامـى إليـك عـن بعـد أصـوات الفـرح، والأغـاني والأناشـيد والزغاريـد المصريـة، التـي تسـمعها في الأفـراح والأعيـاد، فـلا تبـال خوفـاً ولا حزنـاً، ولا تشـعر إلا بأنـك محمـول عـلى أجنحـة الملائكـة، وتبـدو لـك جزيـرة سـعيد، وقـرى الصيادين، ثـم يأخـذك جـمال البحـر وبيـاض جـدة كبطن سـمكة فضيـة ممتدَّة تتنفـس الهـواء، وتداعبهـا أشـعة الشـمس الذهبيـة».

وفي روايـة أخـرى تـم التطـرق إليهـا في كتـاب «رحـلات محمـد أفنـدي السـعودي: 1904-1908»: «لقـد هـدأ البحـر في اليـوم التـالي، وكلـما توغلـت السـفينة جنوبـاً، أصبـح الطقـس أكـثر دفئـاً، أُعجـب السـعودي بالمسـاواة التـي اتّسـم بهـا الحجـاج الذيـن ارتـدوا جميعاً الـرداء الأبيـض ذاتـه، ويتكـون مـن قطعتـي قـماش منفصلتـين وغـير مخيطتـين، تُلـف إحداهـما حـول الجـزء السـفلي مـن الجسـم، أمـا الأخـرى فُتلـف حـول الكتفـين لتغطيهـما، ثـم ظهـرت معـالم جبـال الجـاز الوعـرة في الأفـق، وبـدت السـماء مـن فوقهـا مثـل قبـة زرقـاء».

إن حجـاج بيـت اللـه الحـرام يتعرضـون لكثـير مـن الصعوبـات والمشـكلات والمخاطـر في البحـر والبـر، ففـي البحـار دوار وعواصـف وأحيانـاً الغـرق، وفي البـر لابـد أن يختـاروا الإبـل القويـة والمناسـبة، والأكـثر تحمـلاً لصعوبـات ومشـاق السـفر، يقـول الشـاعر فهـد راشـد بورسـلي:

أنصـح التـاجـر نصيحـة والفقيـر
لا يحـدّونـه على ركـب البعيـر
لا يحـدّونـه عـلى ركـب الركاب
بالدراهم يشتري ضيـم وعذاب
عقب خمسة يسحب وروكه سحاب
من نزل من كورها مثـل الكسـير
خلفوا بالقلب جـــرح ما يطـيب
والمجـرّب يـالـــربع غير الطبيب

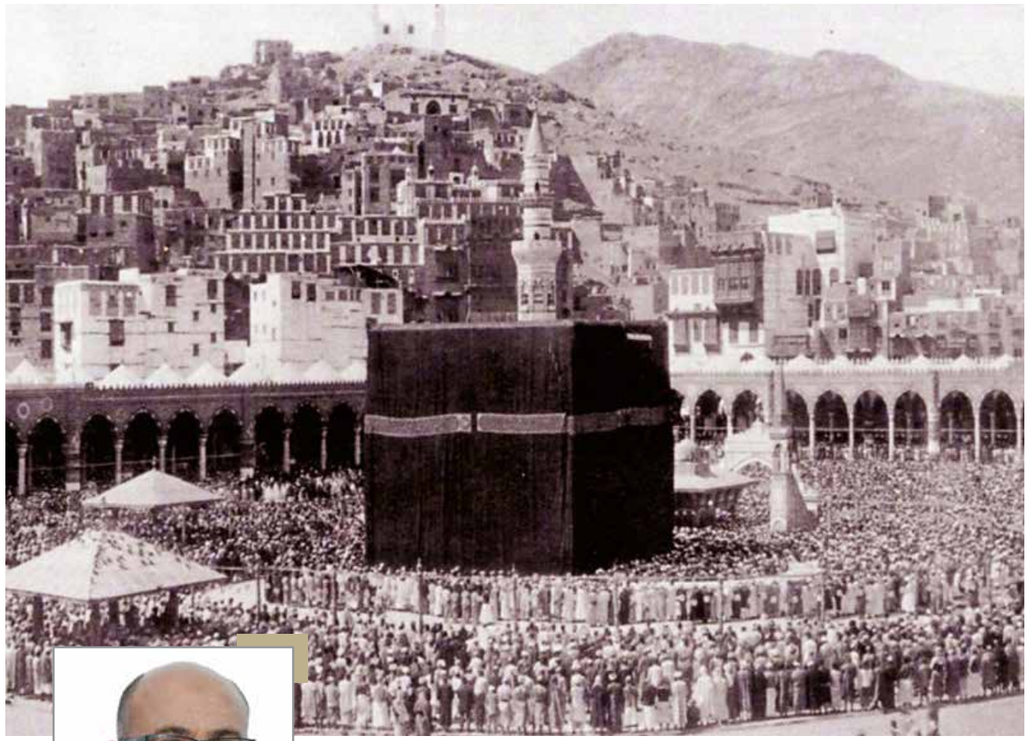

الحج في التراث الإماراتي..

ورفقة العدوَّين: البحر والصحراء

خالد صالح ملكاوي
باحث وإعلامي - الأردن

على مرّ قرون طويلة اكتسبت رحلة الحج مكانة خاصة في نفوس المسلمين في كل البقاع، وظلَّ الطريق إلى مكة محفوفاً بالأشواق والآمال، تماماً كما ظل الوصول إليها محفوفاً بالصعاب والمخاطر التي لم تلِنْ من عزائم حجاج بيت الله، ولم تُضعف من أمنيات العبور في الطريق الصعب، سواء كان المنطلَق من الشرق أو الغرب، أو من الإمارات التي كان أهلها يطوون الأشهر والأيام في عبور صحراء الربع الخالي المملوءة بالأهوال والأخطار، أو عبور عباب البحر إلى البحرين والعبور إلى موانئ الساحل الشرقي السعودي الذي يسلّمهم إلى الطرق البرية والصحراوية ثانية قبل أن تتكحل أعينهم بنور البيت العتيق.

والحج إلى مكة، في الذاكرة الإنسانية، هو الموسم الأكبر في التاريخ، فقد كان الحجيج يقطع آلاف الأميال مشياً على الأقدام، أو على ظهور الجمال التي ظلت الوسيلة المفضلة للحجيج عبر الصحراء التي كانت رفيق الحجاج وعدوهم، أو عبر رحلات بحرية مضنية يركبون فيها السفن متحدّين العواصف والأمواج الهائجة، عازمين على تتويج حياتهم بتحقيق حلم الوصول إلى مكة المكرمة مهوى أفئدتهم، وأداء الفريضة المكتوبة.

ومثل غيرهم من المسلمين،حرص أهل الإمارات على أداء فريضة الحج، رغم الصعوبات التي كانوا يواجهونها، والمشاقّ التي يتكبدونها؛ فلعقود ليست بعيدة، كان موسم الحج عند الحجاج الإماراتيين، يبدأ قبل أشهر عدة من موعده المحدد، إذ يُشرع بتجهيز القوافل المتجهة إلى بيت الله، وتزويدها بالمتاع كأولى الخطوات الرئيسة لبداية الانطلاق، فالطريق إلى المشاعر المقدسة طويلة على ظهور المطايا التي تنهب الأرض تماهياً مع أشواق المحبين فوقها تسبقها إلى القبلة التي تُستحضر خمس مرات في كل يوم، ولحاقاً بأمنياتهم بتحقيق ميلاد جديد.

الحج برّاً

لم يكن قديماً ما يتفوق على الإبل وسيلة للترحال التي يستعين بها الحجيج في رحلة الحج براً، نظراً للظروف القاسية التي تحيط بالرحلة التي كانت تستغرق أشهراً، وتتطلب الاستعانة في قيادتها بأدلاء خبراء في الطريق يعرفون جيداً الطريق وأماكن آبار المياه الصالحة للشرب، وأماكن توافر الكلأ التي ترعى فيها الإبل، وتحصل على قسط من الراحة قبل استكمال المسير.

فبعد أن ينوي المرء الحج، كان عليه أن يبدأ في البحث عن الرفقة الصالحة الطيبة، ثم يقوم، قبل وداع أهل الحي باحتفالات شعبية، بتجهيز راحلته من الإبل، وعادة يجهز الحجاج قافلة كبيرة من الإبل يفوق عددها عدد الحجاج، وفي الغالب كانت القافلة تتكوّن من عشرين جملاً وناقة، تقسّم إلى فئات، تبعاً لوظيفة كل منها، فبعضها للركوب، وأخرى لحمل الزاد والمؤونة، وثالثة لحمل الحطب، لتأمين عمليات الطبخ في الطريق، وتتضمن القافلة عدداً احتياطياً لتعويض ما قد يلحق إبل القافلة من تعب أو نفوق في عرض الصحراء نتيجة المشقة وطول الرحلة، إذ كثيراً ما تنفق الإبل خلال الرحلة، فيضطر الحجيج لاستبدالها بأخرى يشترونها من الأحساء أو جدة.

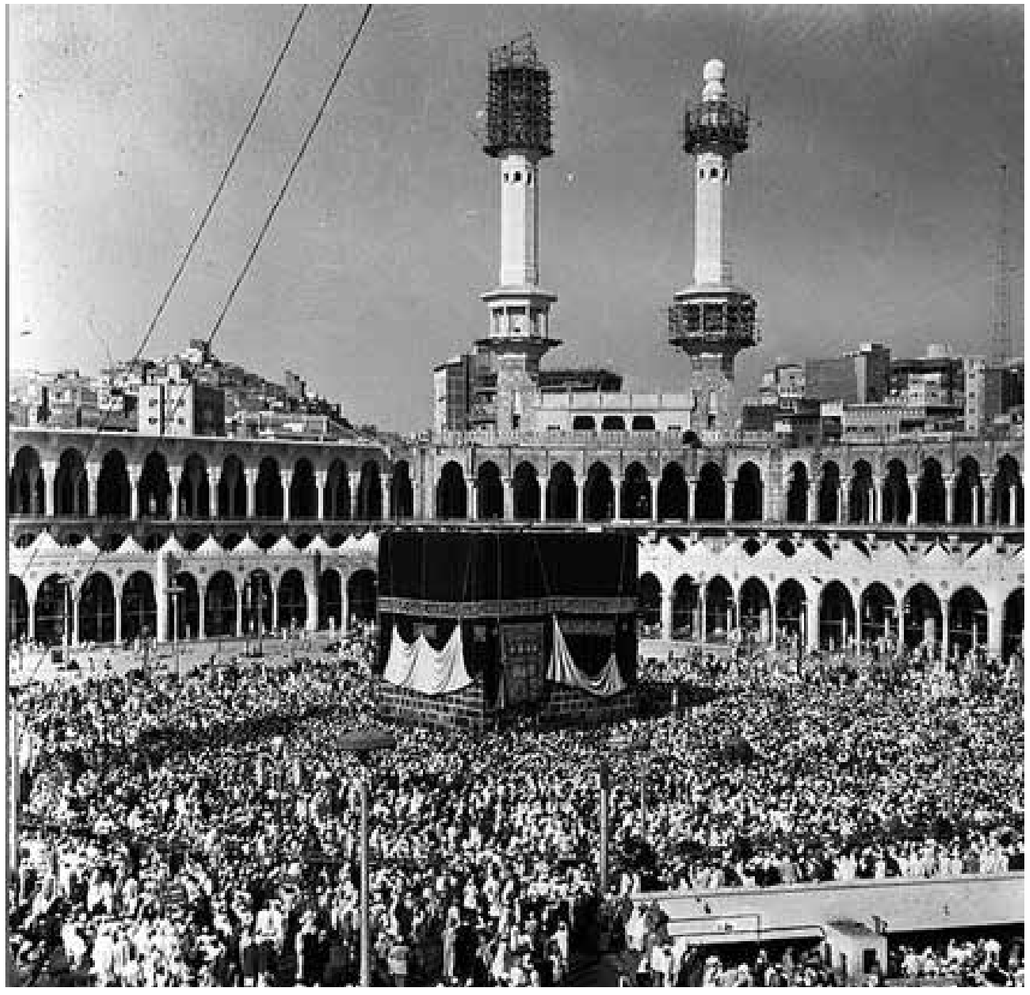

كانـت الإبـل تمـضي النهـار كلـه في السـير، لا تتوقـف إلا وقـت انتصـاف الشـمس في السـماء، فيسـتظل أفـراد القافلـة بأشـجار أو صخـور إن وجـدت، ويجمعـون الحطـب مـن أي مـكان خـلال مسـيرتهم، كي يسـتخدموه للطهـي. وكانـت أوقـات الراحـة في المسـاء تَقِـلُّ كثـيراً إذا مـا كان القمـر بـدراً، فيشـجع ذلـك أفـراد القافلـة عـلى اسـتغلال اعتـدال الطقـس ليـلاً، وانكشـاف الطريـق أمامهـم بفضـل ضـوء القمـر لقطـع مسـافات أكـثر تقلـل مـن عنـاء السـير تحـت أشـعة الشـمس الحـارة.

كان طريـق البدايـة في الإمـارات يتجـه صـوب الغـرب إلى مسـار معـروف للأهـالي آنـذاك، يُسـلمهم إلى بدايـة الأراضي السـعودية بعـد نحـو عـشرة أيـام مـن المسـير، وفـق خـط سـير مرسـوم سـلفاً يمـر بمناطـق وآبـار محـددة، ظلـت طريقـاً متعارفـاً عليـه لقوافـل الحـج قرونـاً عديـدة حتى أواخـر الخمسـينيات عندمـا بـدأت رحـلات الحـج في السـيارة. وفي الأراضي السـعودية يعـبر الحجيـج إلى منطقـة الأحسـاء شرقـي السـعودية، ومنهـا إلى الريـاض، فالمدينـة المنـورة ومكـة المكرمـة، مـروراً بـأبيار عـلي للاغتسـال والتـزوّد بالمـاء، والإحـرام للبـدء بـأداء مناسـك الحـج.

الحج عبر البحر

كانـت الرحلـة البحريـة تتطلـب صـبراً وتحمـلاً لتغـيرات الطقـس وأهـوال البحـر وأعاصـيره وأمواجـه العاتيـة، وكانت تسـتغرق وقتـاً طويـلاً، وتتمّ عـلى مراحـل يسـتريح الحجـاج خلالهـا في الطريـق، يتـزوّدون بالمـؤن ويحمـل المركـب أشـخاصاً آخريـن

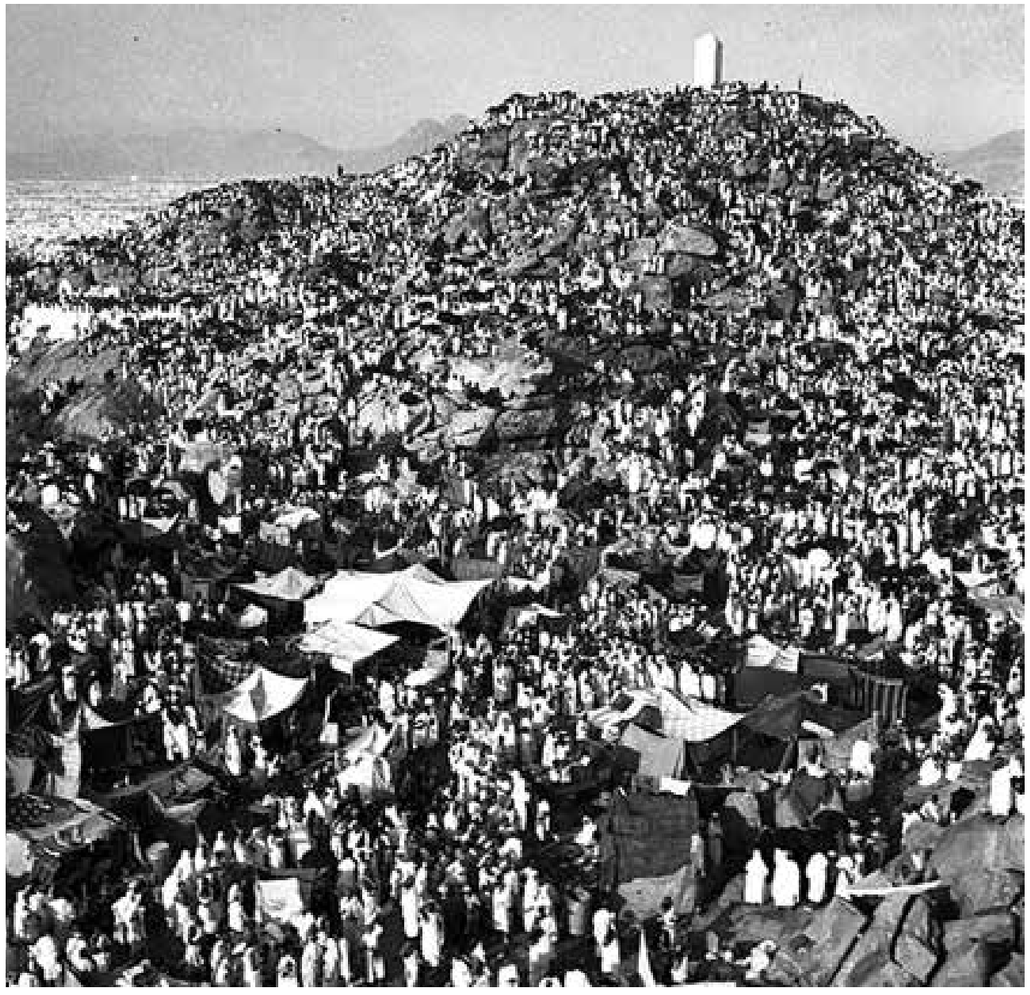

وبضائـع مـن مرافـئ عـدة. وكانـت تكاليفـه الرحلـة باهظـة، إذ كانـت أكـثر راحـة مـن رحـلات القوافـل البريـة عـلى ظهـور الإبـل، وكانـت المراكـب فيهـا تبحـر بـين موانـئ دبي والهنـد وباكسـتان وعـدن ومسـقط والبحريـن والبـصرة، فتسـتغرق الرحلـة ذهابـاً وإيابـاً نحـو خمسـة أشـهر.

فمـن كان مـن الحجـاج انطلاقتـه مـن دبي قـد يبحـر إلى ميناء كراتـشي في باكسـتان، وينتظـر في باكسـتان نحـو أسـبوعين، بعدهـا ينتقـل في مركـب آخـر إلى جـدة مـروراً بالبحـر الأحمـر، ويمكـث المركـب في جـدة، فيـما يمتطـي الحـاج ثلاثـة أيـام ظهـر الإبـل المسـتأجرة إلى مكـة، وبعـد انتهائـه مـن مناسـكه يذهـب إلى المدينـة المنـورة، ومـن ثـم يعـود إلى جـدة، ويمكـث فيهـا نحـو عـشرة أيـام اسـتعداداً لرحلـة العـودة؛ فيتـم تجهيـز وصيانـة المركـب وخياطـة الـشراع قبـل الإبحـار إلى كراتـشي مـرة أخـرى، مـروراً بميناء جيبـوتي وزيلـع وتهلـك، وبعـد 15 يومـاً مـن الانتظـار في كراتـشي يعـودون إلى دبي .

وثمـة مسـار مختلـط بـين البحـر والـبر، اعتـاده الحـاج مـن أهـل الإمـارات منـذ منتصـف القـرن المـاضي انطلاقـاً مـن دبي مـروراً بالبحريـن، فـكان الحـاج يسـتقل المركـب مـن دبي ويتجـه إلى البحريـن التـي يصلهـا بعـد أيـام عـدة، ويمكـث فيهـا أيامـاً، ثـم يسـتأنف الرحلـة إلى مدينـة الخُبَرَ شرقـي السـعودية، ليكمـل مسـيره بـراً عـبر السـعودية، يمتطـي الجـمال وغيرهـا مـن الـدواب، أو بعـض أنـواع الحافـلات التـي تيـسَّر وجودهـا بعـد سـنين.

مخاطر تهدد الحياة

كثيرة هي المخاطر والتحديات الصحية والبيئية والأمنية التي كانت تواجه رحلة الحج الإماراتية قديماً، سواء كانت الرحلة براً أو بحراً؛ فبعضها مرتبط بصعوبة الطريق، وطول السفر، حيث الطرق الوعرة التي كانوا يقطعونها على ظهور الجمال أو سيراً على الأقدام، أو عبر ميناء الدمام بالسعودية في رحلة بحرية مضنية. وبعضها ارتبط بقسوة الطقس والتقلبات الجوية، من برد قارس شتاء، وشمس محرقة صيفاً، وعواصف رملية، ورياح قوية، ما يسبب أمراضاً وأوبئة فتاكة قد تقضي على الحجاج، أو قد تدفع بهم إلى التيه في الصحراء.

وأخطر ما في هذه الرحلات، التي كانت تتم بمعية دليل خبير بالطرق الصحراوية، مواجهة قُطّاع الطرق للسطو على ما يحملوه من عدة وعتاد وغذاء، سيما أن أغلب الطرق التي كان يمر بها الحجيج هي مناطق صحراوية شديدة الوعورة وشحيحة الماء؛ لذا فقد كانوا مطمعاً دائماً لهذه النوعية من البشر. فقبل استتباب الأمن في الجزيرة العربية، وبخاصة في الأراضي السعودية على يد الملك عبدالعزيز آل سعود، ظل الحجيج عرضة للقتل، وقوافلهم هدفاً للنهب والسلب، من قطاع الطرق الذين لا يراعون حرمة. فكان المسافر إلى الحج يودع أهله، وهم على علم تام بأنه مقدم على رحلة صعبة، قد يعود إليهم منها أو لا يعود.

ولم يكن السفر بحراً يخلو من مخاطر أيضاً، إذ كان حجاج البحر يتعرضون لأهوال البحر ويصارعون أعاصيره وأمواجه العاتية في رحلة قد تستمر أشهراً عدة حافلة بالتعب والخوف والحزن على فراق أحبائهم وأبنائهم وأقاربهم، يمضيها الحجاج في عرض البحر متنقلين بين الموانئ المعروفة آنذاك. فقد كانت رحلات الحج عبر المراكب تعاني طول السفر وتواجه العواصف التي يمكن أن تقابل المركب، وقد تعرّضه للغرق في بعض الأحيان، وتجعل حياة الحجاج عرضة للموت في أيّ لحظة، إضافة إلى ما كان يرافق هذه الرحلات من أمراض البحر مثل الدوار الذي كان يسمم حياة كثير من الحجاج معظم أيام الرحلة.

العودة والاحتفاء بالوصول

رحلة العودة كانت أيسر على النفس من رحلة الذهاب، رغم أنها أكثر منها مشقة على الأبدان، فالحجاج أنهكتهم المناسك والسفر، والرواحل أضناها المسير أشهراً، ومن كتب الله له إنهاء المشاعر تغمره السعادة أنه أدى واحداً من أركان الإسلام التي طالما تاق لأدائها، وتكسو نفسه فرحة العودة، فيشرع بشراء هدايا للأهل والجيران مثل السبح، والقحافي (أغطية الرأس)، وسجاجيد الصلاة التي كانت تصنع فقط في الأراضي المقدسة، ويتزود بالزاد وبماء زمزم ما استطاع إلى حمله سبيلاً، وتأخذ قافلته مجدداً طريقها إلى الأهل.

وبعد نحو شهرين من انتهاء المشاعر المقدسة في مكة المكرمة، تبدأ أنظارأهالي الحجاج في الإمارات تتجه عبر الفيافي باتجاه الغرب، لعلها تلحظ حركة للحجيج. وثمة من كان يتحرى، بمسافات أعمق، مسير القافلة ويرصد اقترابها رويداً رويداً، ويدعى «المبشّر»، فحالما يتأكد من سلامة اقتراب القافلة يسارع إلى سبقها والعودة إلى أهالي الحجيج يزف لهم بشرى وصول قوافل الحجيج إلى أرض الوطن، فيجود الأهالي عليه بهدايا رمزية على هذه البشرى، وتشيع مظاهر الفرح احتفاء بعودة الحجيج، وترتفع الرايات الخضراء على بيوتهم، ويبدأ بعض الأهالي والجيران بإطلاق عدد من طلقات بندقية خاصة بالاحتفالات إعلاناً عن وصول الحجيج. وعلى صوت الأهازيج ترحيباً بالعودة، ينثر بعضهم النثور على رأس العائدين من الرحلة، وهي عبارة عن حلويات ومكسرات وأوراق وزهور خضر، وبعض القطع المعدنية.

«شد الرِحال»

«رحلة الحج فولكلورياً»

د. أحمد علواني
كاتب - مصر

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ
أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال:
«لا تشد الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى».

رحلة الحج/ احتفالية الحج:

يشد الحجيج رحالهم لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، ومع مراحل رحلة الحج المقدسة تشَدو الجماعة الشعبية شدواً غنائياً يتوازى مع الرحلة بوصفها احتفالية دينية كبرى لِما يرتبط بها من طقوس فولكلورية وعادات وتقاليد اجتماعية لدى مجتمعاتنا العربية، ولا سيما الجماعة الشعبية[1].

ولقد درس د. محمد رجب النجار فولكلور الحج، مُسلطاً الضوء على الأغاني الشعبية «أو ما يُعرف في البيئة المصرية باسم (حنون الحجاج) أو (تحنين الحجاج) كما يُطلق عليه في فلسطين وبلاد الشام عموماً، بما هي ضرب من الأهازيج والأغاني الشعبية التي تتغنى بها المجتمعات القروية والريفية، العربية والإسلامية بمناسبة قيام أحدهم بأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول، صلى الله عليه وسلم»[2].

وفي مقالتنا هذه سنركز على تلخيص الأهازيج والأغاني الشعبية المصاحبة لرحلة الحج منذ النية والإعداد وحتى العودة والانتهاء، التي جمعها د. محمد رجب النجار في كتابه «فولكلور الحج.. الأغنية الشعبية نموذجاً»، ولقد نجح د. النجار في الوقوف على النسق الثقافي الشعبي المُصاحب لأداء فريضة الحج في البيئات القروية الريفية المصرية التي يغلب عليها التراث الشفهي، كما كشف د. النجار عن الغايات الجمالية والوظيفية للأغاني الشعبية المرتبطة بالحج تحديداً في صعيد مصر.

ويُعرّف د. النجار أغاني الحج بأنها: نوع من الأغاني الشعبية الذائعة في معظم المجتمعات الإسلامية القروية، تؤديها الجماعات الشعبية إبان موسم الحج السنوي احتفالاً واحتفاء بخروج بعض رجالها ونسائها لأداء فريضة الحج. وكان أداء مثل هذه الأهازيج أو الأغاني الشعبية جزءاً من احتفالية كبرى تُقام بهذه المناسبة، وتُشكل طقساً شعبياً موازياً ومعبراً عن فرحة جمعية بأداء هذه الشعيرة الإسلامية المقدسة[3].

وثمة مراسم ما قبل رحلة الحج/ زفة الحاج، ويتواكب معها إطعام الطعام ويحييها المنشدون والمداحون ويتغنون فيها بالمدائح النبوية والأشعار الدينية والأهازيج الروحية وهذه الاحتفالات خاصة بالرجال. وثمة احتفالات نسائية يغنين فيها أغاني شعبية تُعرف بأغاني الحجيج/ حنون الحاج[4].

وتبدأ شعائر هذه الاحتفالية بارتداء الحاج أفضل ثيابه، ولا سيما الملابس البيضاء، إذا كان مقتدراً (ومثله المرأة الحاجة التي ترتدي أيضاً الملابس البيضاء) وتُضاء البيوت، وقد يتم تزيينها ببعض الأعلام والرايات الملونة، ثم يشرع في تلقي التهاني والتبريكات من أهله وذويه وأصدقائه المقربين بهذه المناسبة السعيدة، وينادونه من الآن بلقب حاج ابتهاجاً بهذا اللقب الجديد الذي له احترامه في الوجدان الديني عند الجماعة الشعبية؛ بل إن البعض يحج ـ كما يقول أحمد أمين ـ ليلقبوا «بالحاج فلان أو الحاجة فلانة»، فالحج عند العامة يُعلي من شأن صاحبه بين أهله ومعارفه أكثر من الصلاة والزكاة[5].

ليالي الغناء/ ليالي التحنين:

قبل موعد السفر للحج بأسبوعين أو ثلاثة على الأقل وحتى للحظة العودة، كانت تُقام سهرات احتفالية خاصة، حيث تتميز بإنشاد الأذكار والمدائح النبوية.

يجتمع كل ليلة في بيت الحاج/ الحاجة عدد كبير من النساء والصبايا من أهل بيته ومن الأقارب والجيران والأصدقاء، وذلك بعد صلاة المغرب حتى وقت متأخر نسبياً من الليل لإحياء ليالي التحنين؛ حيث يغنين ويترنمن بكثير من الأغاني المتخصصة في موضوع الحج، وتُعرف باسم «حنون الحجاج» في المجتمع الشعبي المصري والتي كانت تستهوي القلوب، وتؤجج المشاعر الدينية، كما كانت تؤدى بمصاحبة بعض الآلات الموسيقية الشعبية البسيطة في أداء جماعي أو مشترك، حيث تؤدي مغنية واحدة موهوبة هذه الأغاني، ثم ترددها معها كل النساء المشاركات في هذه السهرات الاحتفالية الغنائية، فإذا ما كانت المغنية محترفة، فإنها تصحب معها بطانتها من المرددات وبعض العازفات اللائي يرددن وراء كل أغنية «لازمة غنائية» خاصة بمدح الرسول، عليه السلام، والشوق لزيارته[6].

زفة العُرس/ زفة الحاج:

يخرج الحاج/ العريس قبل سفره/ عرسه بليلة أو ليلتين في زفة، وكأنه عريس يُزف لعروسه، مرتدياً أفضل ثيابه، راكباً فوق حصان مُزين، يملكه أو يستعيره، وربما يُعار له ـ مجاملة ـ من أحد أعيان القرية، وأمامه البيرق والطبل الكبير، وحوله كثير من أهله وأصدقائه، ليمر في شوارع القرية التي تم تزيينها بالأعلام والرايات والأنوار بهذه المناسبة البهيجة مُسلّماً ومودّعاً، حيث يتلقى التهاني من الجميع[7].

وصف الرواحل/ أنموذج لحنون الحجاج[8]

يرى د. النجار أنه ليس محض مصادفة أن تكون أقدم أغاني الحج تتعلق بوصف الرواحل، باعتبارها ــ قديماً ــ وسيلة الانتقال الأولى لقطع البراري والقفار، واجتياز الصحاري والفيافي، وكان على كل حاج ــ قديماً ــ أن يُجهز ركباً صغيراً مكوناً من أربعة جمال: اثنين لركوبه هو وزوجته، واثنين لحمل الأغراض والأمتعة والمياه، وسرعان ما ينضم هذا الركب الصغير إلى قوافل الحجيج حتى المدينة إذا كان اختار الطريق البري، أما إذا اختار الطريق البحري (مدينة عيذاب ــ قديماً ــ وميناء السويس ــ حديثاً) كان عليه أن ينتقل بالرواحل من قريته حتى أحد الميناءين، فإذا ما عبر البحر بسلام، كان عليه أن يلحق بركب آخر (حجازي هذه المرة) يستعين به في الوصول إلى جدة فمكة فالمدينة، ذِهاباً وإياباً.

تقول الأغنية/ المقدمة التي تهدف أساساً إلى ضبط الإيقاع، وكانت تؤدى بصوت بطيء الأداء، ممدود الصوت، يُشبه جِداء الإبل في الصحراء الممتدة:

ثلاثة وبَكْره يا جِمال النبي[9].

ثلاثة وبَكْره يا جِمال النبي.

ربابة تغني في طريج النبي[10]:

يا مدح الرسول:

فترد المرددات على المغنية في أداء جمعي ينم ــ صوتاً وإيقاعاً ــ عن الفرحة العظمى بتحقيق هذا الأمل العظيم بزيارة الحرم النبوي الشريف:

* والجعده ديّه في حرم نبيه[11]

صحبه جمعية[12] (يا عيني) في حرمك يا نبي.

وقد تؤدى هذه الأغنية على هذا النحو:

*ربابة تقول لي في طريق النبي يا مدح الرسولي.

والقعدة دّيه في حرم نبيه

صحبه جمعية يا عيني في حرمك يا نبي.

1- محمد رجب النجار: «فولكلور الحج.. الأغنية الشعبية نموذجاً»، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة دراسات شعبية، ع 76، ط1، 2003، ص15.
2- محمد رجب النجار: فولكلور الحج، ص16.
3- السابق نفسه: ص43.
4- نفسه: ص29.
5- أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، تقديم: د. محمد الجوهري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999، ص225.
6- محمد رجب النجار: فولكلور الحج، ص ص58 وما بعدها.
7- السابق نفسه: ص ص51ـ52.
8- نفسه: ص ص77 وما بعدها.
9- (البكرة: الفتي من الإبل).
10- (طريج: طريق).
11- هذه القعدة.
12- صحبة جماعية.

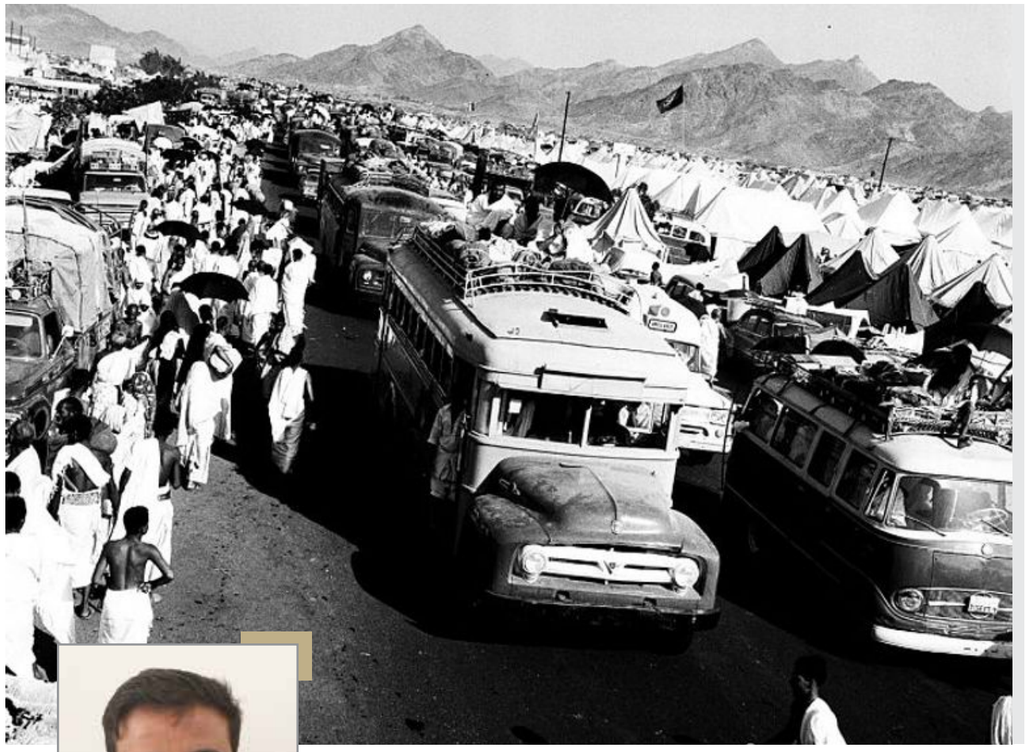

رحلة الحج
في الموروث الشعبي الأردني

د. مهدي الشموط
محاضر لغة عربية
في كليات التقنية العليا

ترتبط رحلة الحج بالمشقة؛ لذلك ارتبطت أداؤها بالاستطاعة؛ لأن الله جلّ وعلا، يعلم أن السفر لأداء مناسك الحج يتطلب القدرة البدنية والمالية، فقال في كتابه العزيز {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا}، (آل عمران 97)، فمن المعروف أن حجاج بيت الله الحرام يقصدون الديار الحجازية لتلبية نداء الحج، والقيام بهذه الفريضة التي يرتبط أداؤها مرة واحدة بالعمر على المسلم المكلف المستطيع الذي يقدر على البلغة وتساعده صحته.

وقد كان لهذه الفريضة في التراث العربي حضور وقصص وكتب ومدونات، حُفِظَ منها جزء وضاع منها كثير، ومن الأمثلة على ذلك كتاب «أشهر رحلات الحج» للعلامة حمد الجاسر، و«المختار من الرّحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النّبوية»، لمحمد بن حسن الشريف، الذي اختصر فيه أكثر من عشرين كتاباً من كتب رحلات الحج القديمة والحديثة، وأصدر أحمد محمد محمود كتاباً بعنوان «رحلات الحج»، تحدَّث فيه عن عدد من رحلات الحج خلال القرون الثّلاثة الأخيرة، كما أصدر المؤرخ عبدالله بن حمد الحقيل كتاباً بعنوان «رحلات الحج في عيون الرحّالة وكتابات الأدباء والمؤرخين»، وكتاب «التراث الشعبي الأردني في مدينة معان وما جاورها» للمؤرخ الدكتور عبدالله العساف، الذي أفرد باباً من ذلك الكتاب للحج وعنونه بـ«تقاليد الحج»، وهو في أغلبه سلسلة لقاءات مع رجال مسنين عاصروا تلك الفترة أو نقلوا عن آبائهم أو من التقوهم.

وما يميز الحج في التراث العربي في الأردن بشكل خاص، وبلاد الشام بشكل عام، أن أهلنا قديماً كانوا في ضنك من العيش، وأن رحلة الحج كانت شاقة؛ لذلك قلّ عدد الحجيج قديماً فكان لقب «حجي» من الألقاب النادرة لقلة من أدّى المناسك في ذلك الوقت، فلا تكاد تجد في النزل كاملاً حاجاً واحداً أو اثنين.

وتبدأ المناسك عند الأهل قديماً حين يعقد الشيخ؛ أي شيخ القبيلة، النيّة على أداء المناسك، فيصنع وليمة، ويدعو لها القبيلة، ويعلن لهم أنه سيسير إلى أداء مناسك الحج، وكل من يجد في نفسه القدرة يحق له أن يلتحق بالقافلة، وأن يكون فرداً منها، شريطة أن يؤمّن أهله بما يكفيهم حتى يعود، وقبل أن يذهب الحاج للحج، يجتمع عنده الأقارب والأصدقاء ليودعوه ويهدونه بعض المال الذي يسمى «النقوط»، وغالباً ما يكون مبلغاً من المال ليرة أو ليرتين، ثم يقضون عنده بعض الوقت، ويطلب منهم السماح والعفو إن بدر منه ما يكدرهم، ثم تكون تلك الرحلة؛ أي رحلة الحج، وهي رحلة شاقة تحفها المخاطر لبعد المكان ووحشة الطريق وانقطاع السكان، وقد تنوّعت وسائل النقل في رحلة الحج، فمنهم من حجّ راجلاً، وقد أخبرني الثقات من المعاصرين أن جده حج ماشياً مدة شهرين، وكان يمشي باتجاه مكة على مراحل من منازل البدو حتى وصل إلى مكة وأدى المناسك ثم عاد بالطريقة نفسها ماشياً، وكذلك منهم من نوى الحج مفرداً، وأكمل

مسيرته باتجاه مكة المكرمة، وأكمل النسك وأدى الحج وحده، دون أن يذكر تفاصيل الرحلة وما حدث له.

على أن أغلب الناس في مناطق الأردن وبلاد الشام يحجون على الإبل، وهي الراحلة الأكثر رواجاً في ذلك الزمان، وأغلب الظن أن مدة الرحلة ثلاثة أشهر؛ شهر ذهاباً، وشهر إياباً، ويبقى في النسك شهراً كاملاً، ومن ينوي الحج يكرم راحلته فترة طويلة قبل موعد الحج؛ كي تقوى على السفر، وحين تعود الراحلة تكون ضعيفة هزيلة من السفر، ومنهم من يبيع راحلته أثناء الحج أو يستبدلها بغيرها في حال وجدها لا تقوى على العودة معه، وكانوا في الأغلب يمشون بشكل جماعي، ومعهم السلاح، خوفاً من قطاع الطرق، ومعهم جملين أو ثلاثة، وتسمّى الزمالات؛ لنقل الطعام والأمتعة، ومعهم دليل يأخذهم لأقرب طريق، وغالباً ما يكون طعامهم مكوناً من السمن والتمر والبكيلة والجميد والعربود (وهو القرص بلغة أهلنا في الإمارات).

ومن طريف ما حدثني به أحد الأصدقاء أن جده ذهب حاجّاً إلى مكة على ذلوله، ومعه مجموعة من حجاج بني صخر، وهم من قبائل شرق الأردن، يقطنون البادية الوسطى، وقد أخذوا معهم كل ما يلزم من الطحين والجميد والسمن والبكيلة والماء، وكذلك قاموا بشراء أكفانهم وما يحتاجون إليه من فؤوس ومجارف حتى إذا ما توفي أحدهم، لا قدر الله، دفنوه.

وهناك جزء من حجاج المدن يحجون عن طريق القطار، وذلك عن طريق سكة القطار التركية التي لها محطات، فيخرج الأهالي ليودعوا حجاجهم، ويوصلوهم إلى محطة القطار التي تنقلهم إلى الديار المقدسة، والرحلة بالقطار ليست شاقة كما هي على الإبل.

وحين يعود الحجاج، فإنهم يعودون محملين بالهدايا، وأهمها القهوة، والبخور والحنّا والقلايد وبعض الملابس؛ كالعباءة والشماغ، وقد يخص الحاج شيخ العرب بهدية خاصة، وعادة ما تكون الهاون والقهوة والبهار من الحجاز، وعطر العنبر للدلال؛ فيبدأ الأهل استقبالهم بالزغاريد والغناء والرايات البيضاء والأهازيج، ومن ذلك قولهم:

يا مرحبا بالحجاج اللي زاروا بيت الله

متى يلفوا علينا نطلب النصر من الله

ويتوافد الزوار للحاج، ويدعونه إلى وليمة الغداء أو العشاء، ويستمر الاحتفال بالحاج سبعة أيام أو أكثر، يقضيها الحاج من زيارة لأخرى، وقد يتخلل الاحتفال سباق خيل وقصائد، ثم يكون ختام تلك الأيام عند الحاج الذي يقوم بدعوتهم جميعاً إلى بيته، وذلك من باب رد الدعوة وإكرامهم وتوزيع الهدايا عليهم.

تقديس الحج

ومن الحجاج من كان يعتقد بضرورة التقديس بعد الحج، وهو استكمال مسيرة الحج إلى بيت المقدس للصلاة في المسجد الأقصى – فكّ الله أسره – وأظن أن ذلك الأمر يأتي بعد أن يزور الحاج المسجد الحرام والمسجد النبوي، فيكون لابد من استكمال مسيرة المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها، فتكون آخر محطة من محطات الحج هي زيارة المسجد الأقصى، ثم العودة إلى الأهل، وهنا لابد من الإشارة إلى أن التقديس بلغة أهلنا قديماً؛ أي زيارة القدس، كان اعتقاداً عاماً عند أغلب الناس، ولكنه لم يكن أمراً إلزامياً يأتي به الجميع، ولكنه من العادات المحمودة في ذلك الزمان.

وأخيراً لابد من التنويه بأن بعض رحلات الحج كانت عن طريق البحر، فقد روى أحد الأصدقاء أن جده حين كان صغيراً حج مع أبيه عن طريق ميناء حيفا إلى جَدّة، وكان أسهل طريق حج في ذلك الوقت؛ أي الحج عن طريق البحر، وبهذا نخلص إلى أن أهلنا كانوا يحجون: إما راجلين على أقدامهم، وإما راكبين على نوقهم ورواحلهم، وهي الأكثر رواجاً مصداقاً لقوله تعالى: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ الحج}، (سورة الحج27)، وإما بالقطار عن طريق خط السكة الحجازي، وهو الأكثر أمناً والأقل مشقة، وإما عن طريق البحر، وهي من ميناء حيفا إلى جدة إلى مكة، وأن الناس في ذلك الزمان كانوا يعدون رحلة الحج مرحلة تحول، فما إن يبدأ الرجل التجهيز للحج حتى يعيد المظالم إلى أهلها ويكتب وصيته، ومنهم كما ذكرنا من يأخذ كفنه؛ لأنه يعلم أن الذئاب والضباع وقطاع الطرق قد تترصده، لذلك يتوكل على ربه، ويأخذ سلاحه، ويبدأ رحلته، وما إن يعود حتى يشعر بأن الحياة قد وهبت له من جديد، فيحمد الله، ويثني عليه، ويستكمل حياته بأعمال البر والتقوى.

الحج.. زمان أول

ميسون يوسف الأنصاري
كاتبة – الإمارات

إن قافلة رحلة الحج لتأدية أهم الشعائر الإسلامية، المحفوفة بمخاطر الطريق، وصعوبة الوصول إلى الأراضي المقدسة، تستمر من أربعة إلى خمسة أشهر ذهاباً وإياباً، كان الحجاج بعد عقد النية، والتوكل على الله، بعد عيد الفطر مباشرة، يحملون حاجات الرحلة والزاد، والحصول على الموافقة من حاكم المنطقة التي يسكنونها (البروة)، وذلك لعدم وجود جوازات السفر في تلك الأيام، مع أخذ تطعيم الحج، ثم يتوادعون من أهلهم وأصدقائهم ومعارفهم، ويطلبون منهم أن يسامحوهم، فلا يعرف الشخص إن كان سيعود سالماً أم لا، حيث يختار الشخص كيفية الوصول إلى الأراضي المقدسة، إما عن طريق البر أو البحر أو الاثنين معاً، حسب ميزانيته ومقدرته المادية، فيقسم رحلته من منطقة سكنه إلى السفينة التي ستنقله إلى قطر وإلى البحرين، ومن ثم يدخل إلى الأراضي السعودية في اتجاه المدينة المنورة، أو أنه يختار طريق البر مباشرة إلى المدينة المنورة.

كان الزاد الذي يحمله الشخص عبارة عن التمر والأرز والسمن والسكر والعسل والملح والماء، والجمال المستخدمة في رحلة الحج الطويلة والشاقة هي (الزمول)، المعروفة بتحمل الطريق ومشاقه، وعددها يصل إلى عشرين جملاً وناقة لحمل الحجاج والمؤن وحاجات الرحلة الأخرى، فكم من ناقة نفقت، ولم تستطع مواصلة الطريق، واضطر صاحبها إلى أن يشتري جمالاً أخرى حتى يستطيع الوصول مع الحجاج في الوقت المحدد، وتلك مصروفات لم تكن في الحسبان.

إن رحلة الحج لا تخلو من المخاطر، سواء كانت في فصل الصيف أو في فصل الشتاء، فالأخطار تكمن في سلامة الحجاج من الأحوال الجوية، كالبرد والأمطار والعواصف وقطاع الطرق والأمراض، فقد كان الحاكم يرسل مع القافلة حراساً يؤمّنون طريق القافلة، ويكونون دليلاً لهم، دراية بالطرق الصحراوية، أو أن القافلة لمتعهد الحج (المقاول)، فيحرس القافلة من الجخة الأمامية والخلفية، وأثناء نوم الحجاج ليلاً أو أثناء صلاتهم.

كانت تلك القوافل تمر على عائلات البدو في الصحراء، فيصرون على استضافتهم، ثم يواصلون مسيرهم بعد تلك الاستراحة إلى المدينة المنورة، ومن ثم إلى مكة لتأدية مناسك الحج، وبعد الانتهاء منها يشترون الهدايا، ويحملون ماء زمزم، ويبدؤون في رحلة العودة إلى بلادهم، وفي تلك الأثناء يحمل بشرى خبر عودة الحجاج إلى البلاد (المطراش) أو المبشر، وهو شخص كثير الأسفار، ولديه جمال كثيرة، وينقل البضائع.

عند وصول خبر عودة الحجاج، يقوم أهل بيت الحاج بتعليق العلم (النشرة) الخضراء على بيته، وبعضهم يرسم الكعبة المشرفة أو تعليق الزينة أو الأنوار، وما أن يصل الحاج إلى بيته بالسلامة حتى يتوافد المهنئون وينثر (النثور) وهو الحلويات والمكسرات على رأس الحاج، وتقدم الولائم من قبل بيته ثم تتوالى على بيوت الحجاج الآخرين، والحاج بدوره يعطيهم الهدايا التي جلبها معه من ماء زمزم وتمور وسجادات الصلاة وكاميرا (عكاسة) ومسابح وقحفية (طاقية) وكحل (أثمد).

لقد حق القول إن فريضة الحج لمن استطاع إليه سبيلاً، فعلى الرغم من كل المشاق والصعوبات التي يتعرض لها الحاج في رحلة الحج، إلا أنه ينساها لشوقه، وهو الوصول إلى الأراضي المقدسة في ذهابه، وحنينه لرؤية أهل بيته في رحلة عودته واستحقاقه كلمة حاج قبل ذكر اسمه، فهناك مثل شعبي يردد، هو: «الذاهب للحج مفقود والعائد منه مولود».

الكَعْبَةُ المُشَرَّفَة

قِبلَةُ المُسلمين في صَلاتِهم

المهندس عاطف زريق فرحات
كاتب – سوريا

الكعبة المُشَرَّفة لها مكانةٌ عظيمةٌ في قلوب المسلمين، فقد جعلها الله قبلةً في صلاتهم، كما أنها مكان قضاء مناسك الحجّ والعمرة، حيث يُؤدي المسلم ما شرعه - جلّ وعلا - من الأعمال، ومنها الطواف حول الكعبة، وهي أول بيت وُضِعَ في الأرض، وقد سُميت الكعبة نسبةً لتكعيبها، وهو تربيعها، وكل بناء مرتفع «كعبة»، قال الإمام النووي «سُميت بذلك لاستدارتها وعلوها وقيل تربيعها في الأصل»، وذكرها يترافق مع ذكر المسجد الحرام حيث يبدأ تاريخ المسجد الحرام بتاريخ بناء الكعبة، وقد بنتها الملائكة قبل آدم، عليه السلام، ومن مسمياتها البيت الحرام، حيثُ حرَّمَ الله القتال فيها، قال تعالى: ﴿إنَّ أولَ بيتٍ وُضِعَ للناسِ للذي ببكةَ مباركاً وهدىً للعالمين﴾ (آل عمران 96).

وَصف الكعبة ومقاساتها:

تتكوّن الكعبة من بناء مكعب الشكل، وهي تقع في وسط المسجد الحرام تقريباً، بارتفاع 15 متراً، ويبلغ طول ضلعها الذي به الباب 12 متراً، أما الضلع الذي فيه الميذاب فطوله 10 أمتار، والعلاقة وثيقة وأزلية بين الكعبة المُشَرَّفة منذ بنائها ومحيطها الجُغرافي القريب، ونعني به المسجد الحرام، وقد أدى هذا التجاور بينهما إلى النظَر في زيادة مساحات المسجد الحرام منذُ بزوغ فَجر النبوة، بما يُتيح للمسلمين أداء شعائرهم في خشوعٍ وطمأنينة.

جوف الكعبة المُشَرَّفة ومحتوياتها:

جوف الكعبة هو عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل من الداخل جدرانها مغطاة بالرخام المُجَزَّع، وقد تم وضع سقف خشبي محمول على ثلاثة أعمدة، بينما الناحية

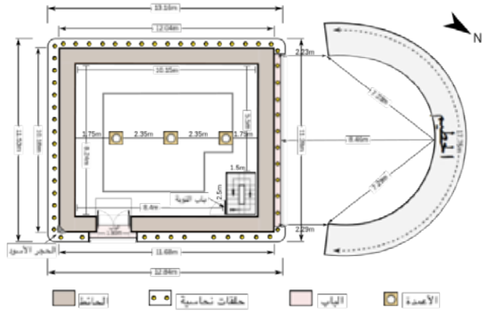

الشمالية منها بها فتحة في السقف للصعود إلى السطح.

تحتوي الكعبة المُشَرَّفة في داخلها على صندوق كبير يحتوي على المقتنيات الخاصة بالكعبة، ويتدلى من السقف قناديل ضخمة من الذهب المُرَصَّع بالجواهر والأحجار الكريمة.

أسماء الكعبة المُشَرَّفة كما وَرَدَتْ في القرآن الكريم:

وَرَدَتْ أسماء عديدة للكعبة المُشَرَّفة في القرآن الكريم، يمكن إيرادها كالآتي:

1. الكعبة: (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس) (المائدة 297).
2. البيت: (ولله على الناس حج البيت من استطاعَ إليهِ سبيلاً) (آل عمران 97).
3. البيت العتيق: (وليطَّوفوا بالبيت العتيق) (الحج 29).
4. البيت الحرام: (ولا آمّين البيت الحرام) (المائدة 3).
5. البيت المعمور: (والطور* وكتابٍ مسطور* في رقٍ منشور* والبيت المَعمور) (الطور 1 إلى 4).
6. البيت المُحَرَّمْ: (ربنا إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتكَ المُحَرَّمْ) (إبراهيم 37).

بناء الكعبة:

تقول الروايات التاريخية إن الكعبة أُعيد بناؤها بعد بنائها الأول خمس مرات عبر التاريخ لأسبابٍ مختلفة، ويعتقد بعض عُلماء المسلمين مُستندين إلى مرويات

عن بعض الصحابة، أنَّ تسلسل بناء الكعبة تاريخياً بعد بنائها الأول بوساطة الملائكة وآدم، عليه السلام، وابنه شيث بن آدم كان كالآتي:

1- البناء الأول للكعبة: هو بناء إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) عندما انهار بناؤها الأول، ولم يبق منه إلا القواعد، وقد غطتها الرمال والحصى، قال تعالى: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تَقَبَّل منا إنَّكَ أنتَ السميع العليم) (البقرة 127).

وقد سكنت جوار الكعبة بعدها قبائل العماليق وجَرْهُم، وقد قامت هذه القبائل بترميم الكعبة عند تَضَررها من آثار العوامل الجوية من سيولٍ وأمطار.

2- البناء الثاني للكعبة: في عهد قُصَيّ بن كلاب (الجد الرابع للنبي محمد)، حَيثُ تشقَّقَ بناء الكعبة، ما استوجبَ إعادة بنائها، وهوَ أول من جَعَلَ لها سقفاً من مريد النخل وخشب الدوم، وقد بنى أيضاً دار الندوة، حيث يجتمع كبار القوم للتشاور بما يهمهم من الأمر.

3- البناء الثالث للكعبة: هو بناء قريش، حيث قامت قُريش على عِمارة البيت الحرام وسقاية الحجاج إلى أن وُجِدَتْ ظروف دعت قريشاً إلى تجديد بناء الكعبة، عندما شبَّ حريق في الكعبة أثناء تبخيرها من قِبَل امرأة من قريش، حيثُ ضَعُفَ البناء نتيجة ذلك، ثُمَّ جاء سيلٌ كبير حطَّمَ أجزاء من الكعبة، فأعادت قريش بناءها بعد هدمها فكانت بارتفاع 18 ذراعاً، وكان باب الكعبة مرتفعاً 4 أذرع، حتى يكون الدخول إلى الكعبة غير مُتاح بسهولة، ولمنع ماء السيل من الدخول إلى داخل الكعبة، وبنوا لها سقفاً خشبياً، ووضعوا له ست دعائم من صفين، ولكن نقص من عرض الكعبة ست أذرُع، دخلت ضمن حِجر إسماعيل، وقد قام بالبناء بَنَّاء رومي الأصل، يُدعى باقوم، كانَ مُلِماً بصناعة البناء والنجارة، كما أنَّ النبي محمداً، صلى الله عليه وسلَّم، شارَكَ في بنائها، وحَسَمَ الخلاف بشأن الحجر الأسود، وذلِك بأن جعل الحجر يوضع على رداء تحمله كل قبيلة من طَرَف حتى إذا بَلَغَ موضعه أخَذَهُ ووضعه بيده في موضعه، وكان ذلك بعد 30 عاماً من عام الفيل، قبل بعثته، صلى الله عليه وسلَّم.

4- البناء الرابع للكعبة: كان بوساطة عبدالله بن الزبير، عندما أعلَنَ خلافته بمكة بعد مقتل الإمام الحسين وموت معاوية بن أبي سفيان، حيث بناها مُستعملاً

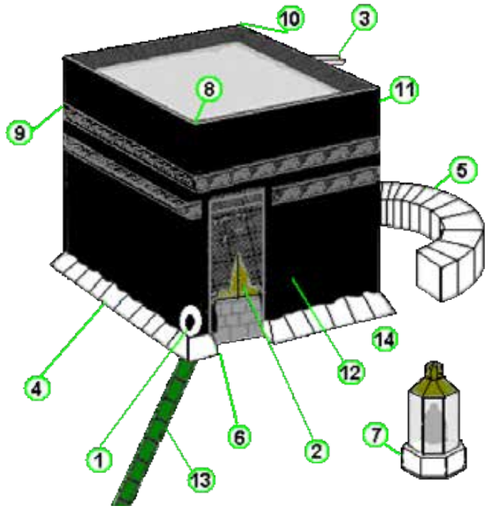

الجص النقي من اليمن، مُحدثاً بعض التغييرات بها، حيث ألصق بابها بالأرض، وفَتَحَ باباً آخر يقابله ليخرج الناس منه، وجعل ارتفاعها 27 ذراعاً بدلاً من 18 ذراعاً، وعند الانتهاء من بنائها صمَّخها بالمسك والعنبر وكساها بالديباج، وقد انتهى من ذلك في شهر رجب من عام 49 للهجرة.

5- البناء الخامس للكعبة: كان بوساطة الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان قد هدم ما بناه عبدالله بن الزبير، وأعاد البناء إلى ما كانت قد بنته قريش سابقاً.

6- البناء السادس للكعبة: في عهد السلطان العثماني مُراد الرابع، حيث وقع سيلٌ كبيرٌ في مكة وصل إلى الكعبة المُشَرَّفة، وارتفعت المياه إلى منسوب القناديل المُعَلَّقة، حيث تمت معاينة الأضرار وإزالة الرمال والأشياء العالقة بالكعبة، كما تمت عملية إصلاح وإعادة بناء للأجزاء المُتَضَرِّرة من الكعبة مع عملية تنظيف واسعة لمحيط الكعبة، واستَغرَقَ ذلك قرابة الستة أشهر، وانتهت الأعمال عام 1040 للهجرة.

أقسام الكعبة المُشَرَّفة

يتم تقسيم الكعبة المُشَرَّفة إلى الأقسام الآتية (كما هو موضح في الشكل أدناه ومُفَصَّل في الشرح بعدها):

1- الحَجَر الأسود: يوجد في جنوب شرقي الكعبة (الركن الشرقي)، وهو حجر ثقيل بيضاوي الشكل أسود اللون مائل إلى الحمرة، قطره 30 سم، وارتفاعه

عن الأرض متر ونصف، وهو نقطة بداية الطواف حول الكعبة، نزل الحجر الأسود من الجنة أبيض من اللبن، فسودته خطايا بني آدم، وهو سواد في ظاهر الحجر، أما بقية جرمه فهو على ما هو عليه من البياض، وفيه قال النبي محمد، صلى الله عليه وسلَّم: «إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، طمس الله تعالى نورهما، ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب».

أول من ربط الحجر بالفضة هو عبدالله بن الزبير، ثم تتابع الخلفاء في عمل الأطواق من الفضة، كلما اقتضت الضرورة، وقد وضع الملك سعود بن عبدالعزيز طوقاً جديداً من الفضة عام 1375 للهجرة، تم ترميمه في عهد الملك فهد بن عبدالعزيز عام 1422 للهجرة.

2- باب الكعبة: يقع في الجهة الشرقية من الكعبة، يرتفع عن الأرض من الشاذروان 222 سم، وطوله 318 سم، وعرضه 171 سم، بعمق نحو نصف متر، وهو مصنوع من الذهب الخالص بوزن 280 كغ، وقد صُنِعَ في عهد الملك خالد بن عبدالعزيز عام 1398 للهجرة، ويُعتَقَد أنَّ أول من صنع باب للكعبة هو تُبَّعْ الثالث أحد ملوك اليمن المُتَقَدمين عن بعثة النبي محمد بزمنٍ بعيد، وقد تغير طول الباب ومواصفاته على مرِّ العصور، حتى استقرَّ على وضعه الحالي، أما مفتاح باب الكعبة فيودَعْ عند بني شيبة الذين لهم سدانة الكعبة، كما هي وصيَّة النبي، صلى الله عليه وسلَّم.

3- الميزاب (ميزاب الرحمة): وهوَ مُثبَّت على الجهة الشرقية من الكعبة، والممتد نحو حِجْر إسماعيل، وهو مصرف لتصريف المياه المتجمعة على سطح الكعبة عند غسلها أو سقوط الأمطار، وأول من وَضَعَهُ قُريش سنة 35 من ميلاد الرسول الكريم، وقبل 5 سنوات من نزول الوحي، والميزاب الحالي هو الذي عَمَلهُ السلطان العثماني عبدالمجيد عام 1276 للهجرة، وهو مُصَفَّحٌ بالذهب، وقد أُضيفت عليه مسامير علوية مانعة لوقوف الحمام عليه في عهد الملك سعود بن عبدالعزيز.

4- الشاذروان: وهو ما تُرِكَ من عرض أساس البيت الحرام خارجاً، ويُسَمَّى تأزيراً؛ لأنَّهُ كالإزار، (مأخوذ من الفارسية - شوذر يعني إزار)، وهوَ مُسَتَّم ومبني

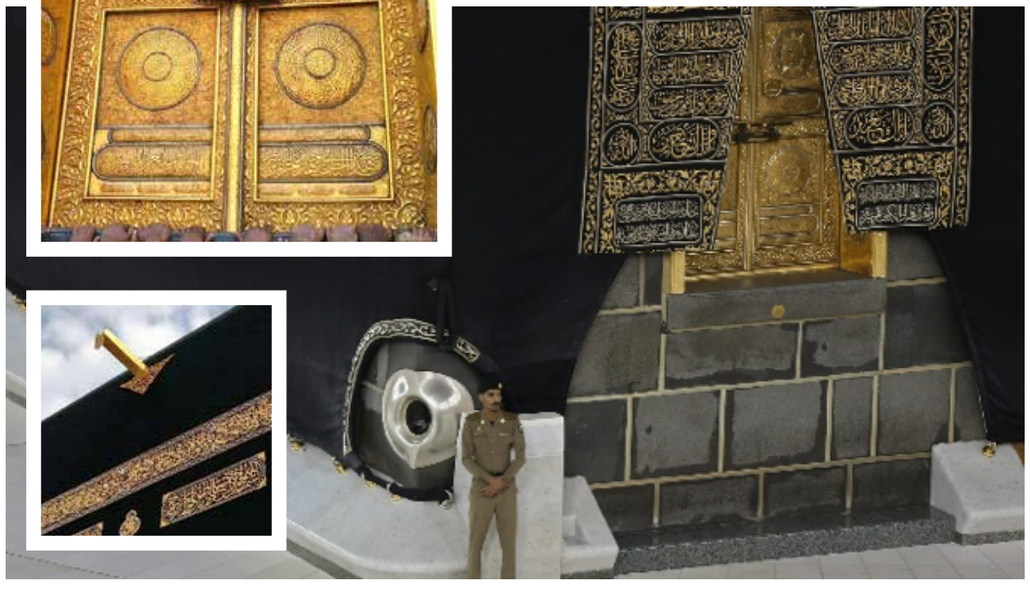

مِنَ الرخام في الجهات الثلاث للكعبة، ما عدا جهة الحجر عند باب الكعبة، ومُثَبَّتٌ بِهِ 41 حلقة، يربَط بها حِبال مع ثُوب الكَعْبَة، وقد بُنيَ الشاذروان لتقوية جدار الكعبة المُشَرَّفة وحمايته من السيول، لِذَلِكَ لا يُعْتَبَرَ من الكعبة، بل هو إضافة لها، وقد جُدِّدَ بناؤه مرات عدة نتيجة للعوامل الجوية في أعوام 542 – 636 – 660 – 670 – 1010 للهجرة، ويُعَدُ آخر ترميم في عهد الملك فهد بن عبدالعزيز عام 1417 للهجرة.

5– حِجْرُ إسماعيل (أو الحَطيم أو الحِجْرُ): هو بناء حجري نصف دائري، مُغَلَّف بالرخام يقع في الجهة الشمالة من الكعبة بين الركنين الشامي والعراقي، ارتفاعه من الداخل 123 سم، وعرضه من الأعلى 152 سم، ومن الأسفل 144 سم، وله من الجهتين المجاورتين للركنين فتحتان، ويفصل بين الحِجْر وكل من الركنين المجاورين الشامي والعراقي ممر يوصِل إلى داخله، يعود أصل الحجر أنَّ إبراهيم الخليل حينَ بنى الكعبة مع ابنه إسماعيل جعل بجانب الكعبة من جهة الشمال حجراً مدوراً حولها، وبنى عليه عريشاً من أراك لغَنَم إسماعيل لتؤوي إليه.

للحجر فَضْلٌ عظيم، فالصلاة فيه مُستحبَّة؛ لأنَّهُ من البيت، وقد صحَّ عن النبي أنه دخل البيت عام الفَتْح، وصلّى فيه ركعتين، وهو يُعَدُّ جزءاً من الكعبة، ويأخذ أحكامها، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله، صلى الله عليه وسَلَّم، قال: «صلي في الحِجْر

إذا أردتِ دخول البيت، فإنما هو قِطعَةٌ من البيت».

6– المُلتزَم: هو الجزء من الكعبة المُشَرَّفة الواقع في الجدار الشرقي بين الحجر الأسود وباب الكعبة، ومقداره نحو مترين، وهو موضع إجابة الدعاء، يختص بأن من وقف فيه ولَجَأ إلى الله، عَزَّ وجَلّ، بِقَلبٍ صافٍ أجابَ اللهُ دعاءه؛ لذلك يُسمى موضع إجابة وقضاء الحوائج، ويُسَنُّ به الدعاء مع إلصاق الخدين والصدر والذراعين والكفين بالجدار، ليُظهِرَ الداعي فَقره وضراعته وحاجته إلى ربه، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلَّم: «ما دعا أحدٌ بشيءٍ في الملتزم إلا استُجيبَ لَهُ».

7– مقام إبراهيم: المُتَفَق عليه أنَّهُ موضع الحجر الذي قام عليه النبي إبراهيم، عليه السلام، عند بناء الكعبة، «روي أن الرسول، صلى الله عليه وسَلَّم، مَرَّ بالمقام ومعهُ عُمَر بن الخطاب، رضي الله عنهُ، فقال عمر: يا رسول الله، أليس هذا مقامُ أبينا إبراهيم؟ قال: بلى، قال: أفلا نتَّخذه مُصَلّىً؟ قال لم أومر بذلك، فلم تغب الشمس من يومهم حتى نزلت الآية (واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلّىً)».

وقد استمر الحجر في مكانه مُلاصقاً للكعبة حتى عهد رسول الله في يوم الفتح، حيث أَخَّرَهُ عن موضعه عندما نزلت الآية أعلاه إلى مكانه الحالي

حتى لا يعوق المصلون خلفهُ الطائفين وهو يقع أمام باب الكعبة على بعد 10-11 متراً في الجزء المتّجه إلى الصفا والمروة، وقد حدث على هيئته تعديلات مُختلفة، آخرها في عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز، عندما وُضع الصرح البلوري والغطاء النحاسي عليه، وتم تجديد الغطاء بعدها من النحاس المُغَطى بشرائح من الذهب والكريستال والزجاج المُزَخرف في عهد الملك فهد بن عبدالعزيز.

8– ركن الحجر الأسود: أو الركن الشرقي الذي يوجد به الحجر الأسود الذي سبق ذكره أعلاه، وهو يُقابل بئر زَمْزَم، وعنده يبدأ الطواف حول الكعبة، كما يوجد الملتزم الذي سبق شرحه بين هذا الركن وباب الكعبة.

9– الركن اليماني: وهو الركن السابق لركن الحجر الأسود أثناء الطواف، وسُمي بالركن اليماني لكونهِ باتجاه اليمن، ويُسَمَّى كذلك بالركن الجنوبي لمواجهتهِ للجنوب، وكذلك يُسَمَّى بالمُستجار «قال رسول الله، صلى الله عليه وسلَّم: إنَّ مَسْح الحَجَر الأسود والركن اليماني يحطّان الخطايا حطّاً».

10– الركن الشامي: وسُميَ بالركن الشامي، لكونه باتجاه الشام، وهوالركن الذي يلي الركن الشمالي، حسب جهة الحركة في الطواف، ويُسمَّى أيضاً بالركن الغربي لمواجهته للمغرب. وهوالرُكن الذي يكون على الجانب الغربي من حجر إسماعيل.

11– الركن العراقي: وسمي كذلك كونه باتجاه العراق، وهو الركن الذي يلي الركن الشرقي، ويُسمى كذلك الركن الشمالي لمواجهته الشمال، وهو يقع شرقي حِجر إسماعيل.

12– ستارة الكعبة: أو كسوة الكعبة، وهي قطعة من الحرير الأسود عليها آيات قرآنية منقوشة بماء الذهب، ويتم تغييرها مرة في السنة في التاسع من ذي الحجة موسم الحج في صباح يوم عرفة. تغير لون كسوة الكعبة المشرفة من عهد إلى آخر، ولم يثبت على اللون الأسود إلا في القرن السابع الهجري، حيث يمكن تلخيص تطور كسوة الكعبة من ثياب حمر مخططة وأنطاع ونمارق عراقية في بداية الإسلام وقبل الهجرة، إلى ثياب مخططة بيضاء وحمراء كساها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعد فتح مكة، وكُسيت بالثياب اليمانية والقباطي (الثياب البيضاء الرقيقة) في عهد الخلفاء الراشدين، ثم كساها ابن الزبير في سنة 64 للهجرة.

كُسيت الكعبة المشرفة باللون الأبيض أيام حكم الخليفة العباسي هارون الرشيد، وفي عهد المأمون عام 206 للهجرة أصبحت تُكسى ثلاثة مرات في العام (بالديباج الأحمر يوم التروية – والقباطي الأبيض يوم هلال رجب – والديباج الأبيض يوم 27 رمضان)، وثبت الفاطميون كسوتها البيضاء عند حكمهم مكة، وبعد زوال حكمهم استمرت كسوتها بالديباج الأبيض حتى غيره الخليفة الناصر إلى الأخضر، ثُمَّ إلى الأسود، وهو شعار العباسيين، وقد تغير لونها في عهد الإمام سعود بن عبدالعزيز عام 1221 للهجرة، حيثُ كُسيت بالخز الأحمر، ثم عادت إلى كسوتها باللون الأسود حتى يومنا هذا.

13– الخط المرمر البني: وهو الخط المرسوم على الأرض من اتجاه ركن الحجر الأسود، وهو يعتبر العلامة لبداية الطواف حول الكعبة ونهايته.

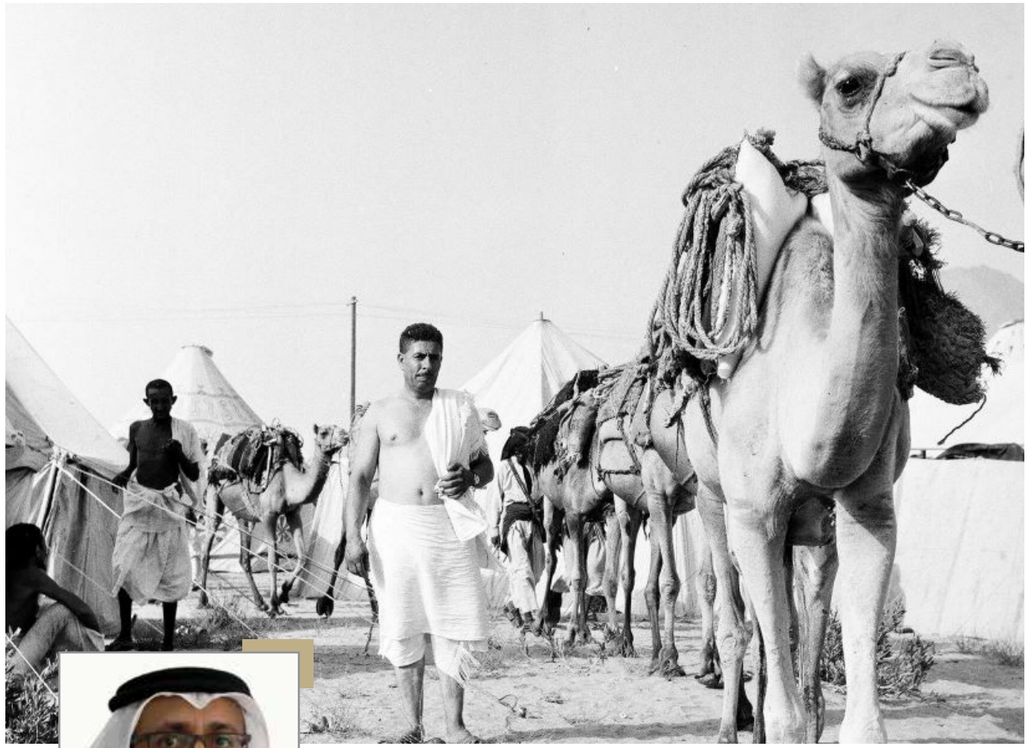

رحلة الحج
في التراث الإماراتي والعربي

د. سالم زايد الطنيجي
كاتب وباحث تراثي - الإمارات

على مدى رحلات الحج عبر التاريخ، وثّقت كتب الرحّالة والمؤرخين رحلات الحجاج الأوائل من قارات العالم المختلفة، أوروبا وإفريقيا وآسيا، في رحلات بحرية وبرية شاقة للغاية، كانت تستغرق أشهراً وسنوات حتى تصل مكة، حيث كان لكل قافلة طريق وخطة وبرنامج مختلف، فيه كثير من المعاناة والحماسة والأمل والتجاوزات التي وثقها أهلها بصور مختلفة، وأثارت حفيظة العلماء الذين اتخذوا مواقف وأصدروا فتاوى جريئة في بعض الأزمنة. وعلى الرغم من ذلك المجهول في طريق الحج ذهاباً وإياباً، فقد امتثل المسلمون في طوال التاريخ الإسلامي نداء الله: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) [الحج: 27].

فمن تلك الفجاج البعيدة في أقاصي الأرض من مشرقها ومغربها يحج المسلمون منذ شُرع الحج في العام التاسع من الهجرة، ومنذ حجة النبي، صلى الله عليه وسلم، التي عُرفت باسم حجة الوداع وإلى اليوم يفعلون، وفي سبيل ذلك واجهوا – لاسيما في عصور ما قبل الدولة الحديثة – ما لم نكن نتخيله في يومنا هذا لولا تواتره في التاريخ.

كان الله في عون الحجيج أيام زمان، حيث كانت الأمور صعبة والرحلة شاقة وثقيلة على النفس، حتى المحظوظين في ذلك الوقت الذين كانوا يسافرون بالطائرة، الحج كان مغامرة، فقد كان من الطبيعي جداً، مثلاً، أن يهاجمك قطاع الطرق وينهبوك ويسرقوك، ويقتلوك إذ لا يوجد أمان أبداً.

كان من يقوم بالحج أيام زمان كمن كان يقوم بعملية استشهادية، غفر الله لهم جميعاً، وشملهم برحمته ومغفرته، وجزاهم الجنة على معاناتهم التي كانت فعلاً معاناة طويلة وشاقة، خاصةً إن كانوا من كبار السن، النقل والمواصلات في الزمن الماضي غير الآن، وكذلك الإقامة والنوم والأمن والأمان نحن الآن نعيش في بحبوحة مختلفة تماماً.. طبعاً لاتزال هناك مشقّة، ولكن أي مشقة وتعب لا يقارن بأيام زمان. ورغم المشقة التي يلقاها الحجاج لقضاء تلك الفريضة إلا أن الأمر قديماً كان أكثر صعوبة، فكان الحجيج يستخدمون الجمال، وقليل منهم يستخدمون السيارات من أجل السفر إلى الأراضي المقدسة، الأمر الذي أصبح أكثر سهولة الآن بعد التقدم التكنولوجي الذي يشهده العالم، حيث الطائرات والبواخر.

ورحلة الحجاج إلى بيت الله الحرام عام 1938 ميلادياً، وحين نسمع عن تلك المشاهد التي تدل على كمّ التعب والمشقة اللذان يواجهانهما خلال الرحلة، حيث يتجه بعضهم لأداء فريضته سيراً على الأقدام، بينما يجلس البعض الآخر على الجمال أو ركوب السيارات، لا يقي السائرون منهم من حرارة الجو شيء، بينما اتخذ الآخرون قطعة من القماش صنعوا بها ما يشبه الهودج فوق سنام الجمال وقاية لهم، أو سطح السيارة الصغيرة.

«رحلة سعيدة في بيداء فسيحة الأرجاء، لا يشعرون خلالها بتعب أو مشقة، فهم مشغولون بالتلبية والذكر،

مأخوذون بروح نية الحج، ذاهبون إلى بيت الله الحرام، حيث التوبة وحيث المغفرة»، تلك العبارة التي وصف بها المعلق على الفيديو حال الحجاج الموجودين فيه، ورصد خلاله رحلتهم من بداية خروجهم من باب جدة متجهين إلى مكة المكرمة، ثم طوافهم حول الكعبة الشريفة طواف القدوم (7 أشواط) مكبرين الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله.

ثم يشرح المعلق أيضاً دخول الحجاج إلى هذا البناء الكبير، حيث يشربون من بئر زمزم المأثورة التي عثرت عليها السيدة هاجر تحت أقدام سيدنا إسماعيل، عليه السلام، وهي تبحث عن الماء عند نزولهم أرض مكة؛ لذا فإن لجميع المسلمين شغفاً للشرب منها، والتبرك بمائها؛ لأنها سقت كثيراً من الأنبياء، وخاتمهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

لكل زمن معطياته وأدواته، فالحج في العصر الحديث اختلف جملة وتفصيلاً عن الأزمنة الماضية، في ظروفه ووسائل مواصلاته ومخاطره. نستعرض أهم معالم وحكايات الحج قبل نحو 117 عاماً، استناداً إلى كتاب «الحج قبل مئة سنة»، للكاتب الروسي يفيم ريزفان، الذي جمع في كتابه تقارير وثائقية كتبها ضابط روسي مسلم دُعي عبدالعزيز دولتشين. كانت السلطات القيصرية الروسية أرسلته عام 1898 إلى أراضي الحجاز بقصد الحج كسبب معلن، وبقصد وضع تقرير عن مشاهداته وانطباعاته عن حال بلاد العالم الإسلامي كسبب مضْمر.

النهب والاعتداء

تكمن أخطار السفر للحج في عمليات النهب التي يقوم بها البدو، وفي اعتدائهم السافر على القوافل، وكذلك المقاومة المسلحة التي تبديها بعض القبائل لمرور القوافل في أراضيها. قال دولتشين في تقاريره إن البدو ينقسمون إلى كثير من القبائل التي يشرف على كل منها شيخ، وتشغل كل منها منطقة معينة، وهناك قبائل غالباً ما تتعادى فيما بينها، وتهاجم بعضها بعضاً، ولها حسابات دائمة بصدد الدم. وهم يعتبرون أنفسهم الأسياد الحقيقيين لمناطقهم، ولهم الحق في أن يجيزوا أو يمنعوا القوافل من المرور في أراضيهم. يحمل البدوي دائماً الأسلحة في اليدين، سواء بندقية شطف (بقداحة) أو بندقية بفتيل أو رمح، وعلى الكتف أو على الظهر، يتدلى سيف ذو حد أو حدين، وعلى حزامه الجلدي مسدس وخنجر، ولوازم معدنية مختلفة لحفظ البارود والرصاص. وبندقية الشطف تعتمد في إشعال بارودها على المقمع، الذي يحتوي في قعره على كبريت يشتعل بالضغط على الزناد. ومن أسمائها «القداحي» أو «المقمع». أما بندقية الفتيلة، فهي ذات قصبة طويلة تُدكّ بالبارود من فوهتها بسيخ يسمّى «المدك». بندقية الرمح هي بندقية يُركب في مقدمتها سكين.

وفي الطريق بين مكة وجدة، حيث الحركة الدائمة، تشكلت عصابات كاملة من قطاع الطرق تنهب وتسلب على الدوام، رغم وجود المخافر، أما في الطريق بين مكة والمدينة المنورة وينبع، فإن هذا الشر يتطور أثناء حركة الحجاج، فالقبائل برمتها تتعاطى السلب والنهب، من دون أن تعتبر ذلك جريمة، وتبيع علناً وبكل حرية ما تحصل عليه من الأشياء بهذه الطريقة.

ويروي دولتشين أنه أثناء إحدى الوقفات في الطريق بين مكة والمدينة المنورة، ظهر بدوي، وأخذ يتنقل على الركب كله، عارضاً بيع سلاح وحزام وألبسة حج، وبدلة حاج اعترف بقتله على المكشوف، ورغم السعر التافه الذي طلبه لم يعمد أحد من الركب إلى شراء المعروض. البدو الذين يتعاطون السلب والنهب، يتتبعون القافلة، كما تتبع الذئاب الجائعة القطيع، متخفين نهاراً في مكان ما يترقبون المسافرين المتخلفين. وحين تتوقف القافلة في الظلام لأجل الراحة ينقضون عليها، ويحدث في هذه الحال الهرج والمرج. ثم يتسنى لهؤلاء الضواري، أن يختلطوا مع أهل القافلة، ويقطعوا الزنانير التي تحفظ فيها النقود عادة، صاعقين مسبقاً بضعة أشخاص بضربات على مؤخرة الرأس بالهراوة، وهو ما يسفر غالباً عن الموت.

وقال الضابط الروسي في تقاريره إن هناك اعتقاداً بأن مقترفي أعمال النهب والسلب هم سواقو جمال القافلة، الذين يعرفون الأشرار، ويعطونهم التعليمات بصدد من ينهبون وكيف؛ لهذا يحاول المسافرون أن يستميلوا سواقيّ الجمال في قافلتهم، بإعطائهم يومياً البخشيش وبقايا الطعام وما شابه.

مصاعب الانتقال

يستعرض الكتاب مصاعب الحركة وانتقال الحجاج من

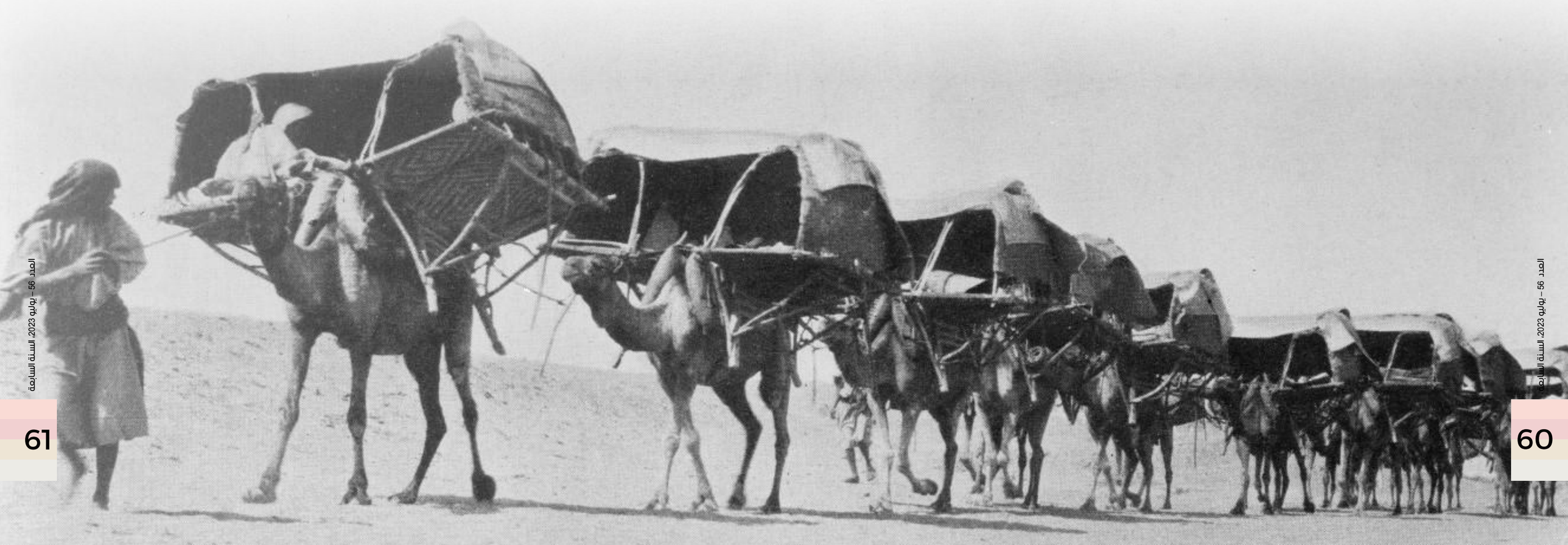

مـكان لآخـر، فتربـة جميـع الطـرق في الحجـاز مـن الرمـل الخشـن جـداً، وهـي موجـودة بجـوار الجبـال، وتتناثـر فيهـا أحجـار متفاوتـة الكـبر. أمـا الطـرق الضيقـة والمعابـر فتعترضهـا كسـور مـن الصخـور تصعّـب الحركـة كثـيراً. وبـين مكـة المكرمـة والمدينـة المنـورة، توجـد أربـع طـرق إحداهـا تتلـوى حـول جبـال الحجـاز مـن الـشرق، وأخـرى مـن الغـرب. واختيـار هـذه الطريـق أو تلـك عنـد الانطـلاق مـن مكـة، يجـري عـادة بإشـارة مـن الشريـف الـذي يعـرف العلاقـات بـين مختلـف القبائـل، كـما يعـرف وضـع الأمـور بـين البـدو. وهنـاك طريـق خامسـة هـي السـبيل البحـري، لكنـه يتسـم بالوعـورة الشـديدة، لـذا لا يسـتفاد منـه. وبحكـم العـادة عنـد البـدو، يسـتطيع جميـع المـارة أن يسـتقوا المـاء مـن الآبـار بـلا عائـق ومجانـاً، أمـا مـاء الصهاريـج فـلا يمكـن الحصـول عليـه إلا بشرائـه.

ونظـراً لمخاطـر الطريـق تسـير القوافـل عـادة في النهـار، وتنطلـق في الصبـاح الباكـر، وتتوقـف تبعـاً لطـول الرحلـة. وتصطـف الجمـال وفقـاً لعـرض الطريـق، في ثلاثـة أو أربعـة خطـوط متوازيـة. ويمـضي سائسـو الجـمال دائمـاً سـيراً عـلى الأقـدام مهـما كان الطريـق طويـلاً؛ لأن الرِّحـال التـي تشـغل مكانـاً كبـيراً مـن حيـث العـرض غالبـاً مـا تتصـادم، ثـم لا يسـتطيعون الجلـوس عليهـا؛ لأنهـم قـد يتعرضـون لخطـر الوقـوع.

وفي أوقـات القيـظ مـن السـنة، ينطلـق الركـب بحكـم الـضرورة ليـلاً، في السـاعة الواحـدة أو الثانيـة، ويتوقـف السـاعة السـابعة صباحـاً. ثـم ينهـض في الرابعـة بعـد الظهـر، ويسـير حتـى الثامنـة أو التاسـعة مسـاءً. والمسـافة بـين جـدة ومكـة تقطعهـا القوافـل عـادة في غضـون يومـين، مـع وقفـة للمبيـت ليـلاً. أمـا المسـافرون عـلى ظهـور البغـال، فيتسـنى لهـم قطـع المسـافة في يـوم واحـد.

الأوبئة والأمراض

تنتـشر أوبئـة الكولـيرا أحيانـاً كثـيرة في وقـت توافـد الحجـاج، بمتوسـط مـرة كل ثـلاث سـنوات. فتفتـك بأكـثر مـن نصـف الحجـاج، وتمتـد إلى أماكـن ترحـل البـدو المجـاورة، وإلى أماكـن آهلـة أخـرى في الجزيـرة العربيـة. أشـار دولتشـين في تقريـره إلى أن هـذا الوبـاء يبـدأ أحيانـاً عنـد عرفـات، ولكـن بشـكل ضعيـف؛ لـذا لا يسـترعي الانتبـاه، لكنـه ينتـشر بكـثرة في منـى، ويبلـغ قوتـه القصـوى. وإذا سـارت جميـع الأمـور عـلى مـا يـرام عنـد الانطـلاق إلى عرفـات وحتـى مسـاء اليـوم الأول مـن الإقامـة في منـى، فقـد يكـون هنـاك أمـل في أن الوبـاء لـن ينشـب هـذه السـنة. مـن أشـهر الأوبئـة التـي أصابـت موسـم الحـج، كان سـنة 1831، وجـاء مـن الهنـد إلى الحجـاز، ومـات بسـببه ثلاثـة أربـاع الحجـاج، ونشـب الوبـاء التـالي سـنة 1834 ثـم سـنة 1837 وسـنة 1840. ثـم عاثـت الكولـيرا فسـاداً طـوال خمـس سـنوات عـلى التـوالي مـن سـنة 1846 حتـى 1850، ثـم أطـل الوبـاء برأسـه في سـنة 1865، وكذلـك في سـنة 1883. وفي 1895 حصـل أيضـاً وبـاء يشـبه حمـى التيفوئيـد أو الزحـار (الدوسـنتاريا)، فبـدأ في قافلـة انطلقـت مـن المدينـة المنـورة إلى مكـة، واسـتمر بدرجـة ضعيفـة عنـد عرفـات، ولم ينتـشر فيـما بعـد، وانتهـى في منـى. عـام 1866 بـدأ تطبيـق قاعـدة تفـرض عـلى الحجـاج تقديـم أضاحيهـم في الأمكنـة المعينـة وحدهـا دون غيرهـا، وطمـر جيـف الحيوانـات المذبوحـة، باعتبارهـا مصـدراً لانتشـار الأمـراض والأوبئـة، في حفـر مُعـدّة سـلفاً، ولكـن هـذا التدبـير لم يوضـع تقريبـاً موضـع التنفيـذ.

وفي مكـة المكرمـة والمدينـة المنـورة، يوجـد مـا يسـمى بالمحجـر الصحـي، وتوجـد لـوازم مستشـفى متنقـل يتسـع ثلاثـين سريـراً، يتعـين فتحـه في الخيـام، إذا انتـشر أي وبـاء. والمحجـر الصحـي المكـي ينتقـل مـع الحجـاج إلى عرفـات، ثـم إلى منـى، حيـث يوجـد مبنـى خُـصص مـن أجلـه، وفي هذيـن المكانـين، كـما في مكـة، يغطـي المستشـفى الأدويـة مجانـاً، ويقـدم الإسـعاف الطبـي الجـوال للحجـاج المرضى، وهـذا المستشـفى يكـون عاجـزاً تمامـاً إذا نشـب وبـاء جـدي خطـر بـين هـذا العـدد مـن الحجـاج. قامـت محاولـة لإنشـاء مقصـورة بخاريـة في جـوار مكـة، لتعقيـم ألبسـة وأمتعـة الحجـاج العائديـن مـن منـى. لكـن مبنـى المقصـورة الـذي انتهـى بنـاؤه دمـره البـدو حـين كان الحجـاج عنـد عرفـات. حسـب مـا ذكـر الضابـط الـروسي.

حالة البيوت

وأضـاف دولتشـين في تقريـره عـن حالـة السـكن والشـوارع، أن البيـوت المخصصـة لإقامـة الحجـاج في مكـة والمدينـة، تتصـف ببالـغ النظافـة والترتيـب، ولكـن تفـوح مـن بعضهـا رائحـة كريهـة في الطوابـق السـفلية، خصوصـاً إذا كان عـدد ساكنيهـا كبـيراً. فتنظيـف البالوعـات يجـري غالبـاً مـرة واحـدة في السـنة، وبعـض أصحـاب البيـوت لا يقومـون بهـذه العمليـة إلا مـرة واحـدة كل سـنتين أو ثـلاث. لا تتميـز شـوارع مكـة باسـتقامة التخطيـط ولا بدقتـه، فالبيـوت

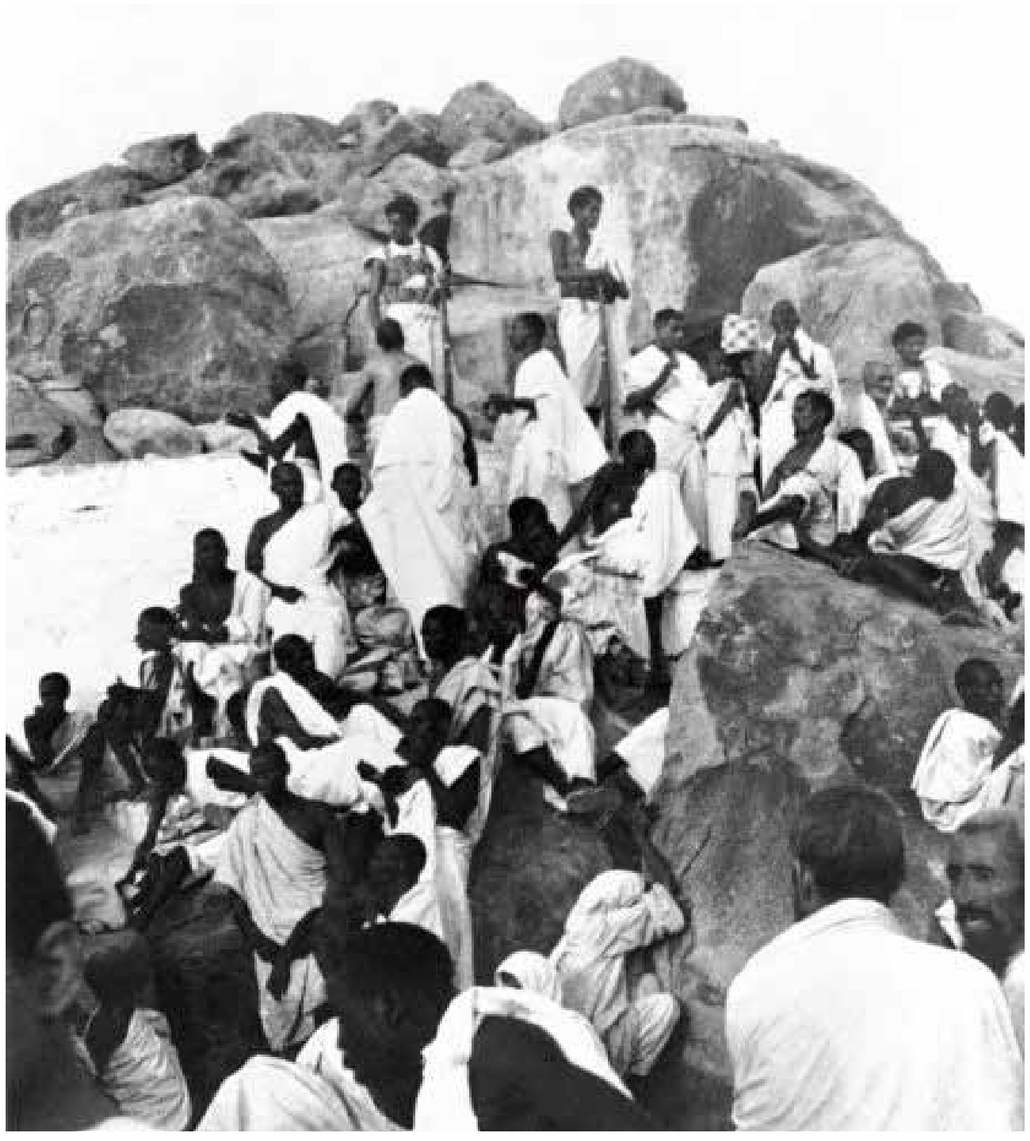

تتقـدم تـارة وتتأخـر تـارة أخـرى عـن الخـط العـام. لذلـك يختلـف عـرض الشـارع الواحـد نفسـه في مختلـف الأماكـن، وتنتصـب في الشـوارع أكشـاك خشـبية ملتصقـة بالمبـاني تتحـول في زمـن الحـج إلى دكاكـين، كـما يصـف التجـار طاولاتهـم، لـذا تبـدو الشـوارع أضيـق. ونظـراً لعـدم وجـود الأحـواش والأفنيـة، فإنهـم يرمـون النفايـات في الشـارع، وللسـبب نفسـه يحفظـون فيهـا كل الدواجـن، ويجلبـون أيضـاً الأبقـار والماعـز. والشـوارع مرتـع لأسراب كبـيرة مـن الكـلاب الشـاردة. ولا وجـود في مكـة للشـوارع المرصوفـة ولا للـرش وللإنـارة، إنمـا يعلـق النـاس مصابيـح الكـاز.

ختامـاً، فـإن هـذه الرحلـة المباركـة ومـا يرافقهـا مـن متغـيرات وتحديـات، إلا أنهـا ماضيـة وتسـير عـلى بركـة اللـه، وكان الآبـاء والأجـداد لا يدخـرون وسـعاً في سـبيل تحقيـق حلـم الحـج، ورغـم مـا يواجههـم مـن تعـب إلا حامـدون شـاكرون، رحـم هـؤلاء الآبـاء والأجـداد الذيـن لم تثنيهـم الفاقـة عـن أداء مناسـك الحـج.

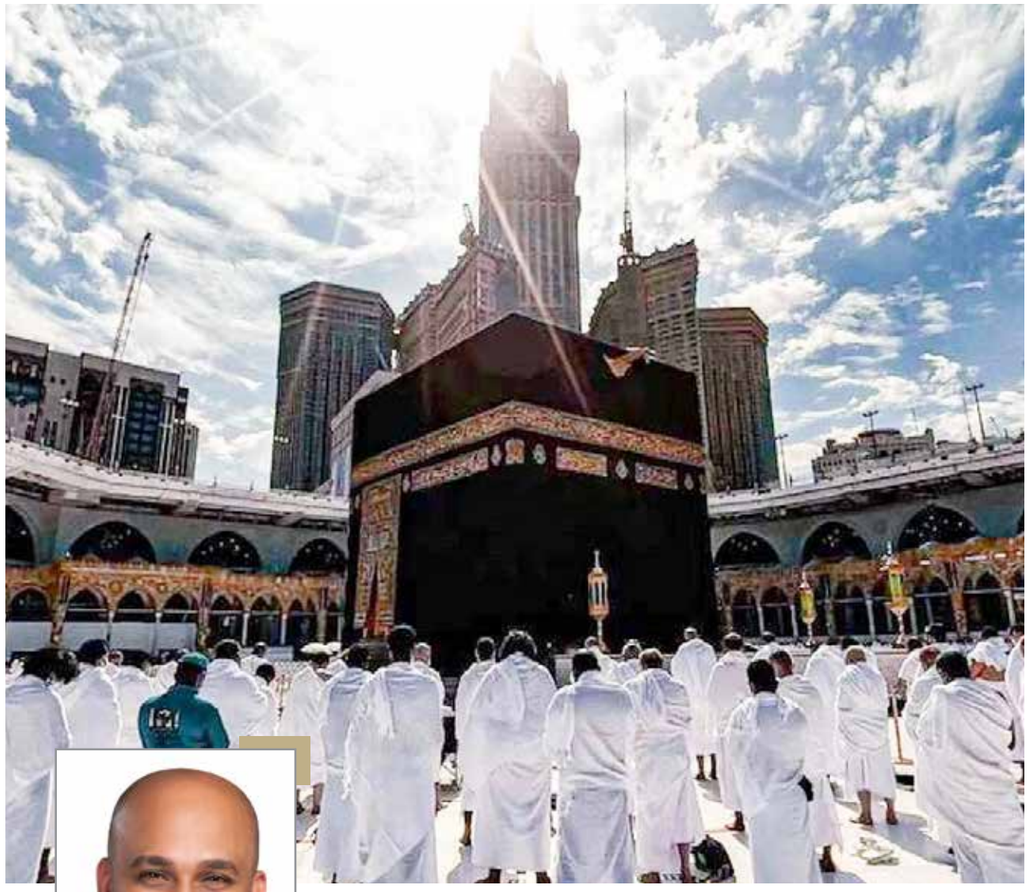

الحج
في التراث الشعبي المصري

إيهاب الملاح
مدير تحرير سلسلة «عالم التراث»
الصادرة عن معهد الشارقة للتراث

- 1 -

شاقني الحنين إلى أيام الصبا، وهاجتني الذكرى والذاكرة وأنا أستعد لكتابة هذا المقال عن فولكلور الحج في التراث الشعبي، لم أكن أتصور ولا أتخيل أن الذاكرة زاخرة بهذه التفاصيل الممتعة الخصبة النادرة عن حدث الحج الأعظم في حياة المصريين.

عدت بالذاكرة إلى سنواتي العشر الأولى، حينما كنت أجلس بجوار جدتي التي كانت متعتها الوحيدة والكبيرة أن تستمع إلى أغاني هذا الفن الشعبي، كانت تجلس بجوار الشباك، وصوت المطرب الشعبي يتصاعد من جهاز التسجيل العتيق، تردد معه أغاني الحج وزيارة بيت الله الحرام، وزيارة النبي والروضة الشريفة، وقلبها يهفو لزيارة الكعبة المشرفة، وقبر الرسول، عليه الصلاة والسلام. تتمايل وجداً وطرباً، تتوه عن الخلق والخلائق، تسرح مع الحبيب، تغني وتقول:

رايحة فين يا حاجة يا أم شال قطيفة
رايحة أزور النبي محمد والكعبة الشريفة

أو هي تمدح الرسول مع المداح، وتقول:

صلوا معانا على النبي ألفين صلاة وسلام
الله أكبر يا نبي ألفين صلاة وسلام
طه الرسول.. طه الرسول
ابن الأصول.. ابن الأصول

- 2 -

مازلت أذكر وأنا في العاشرة من عمري ما أحاط برحلة حج جدتي لأبي، كانت تقطن معنا في المنزل ذاته، وأبي هو ابنها الوحيد لا أشقاء ولا شقيقات، وهو الذي يتولى الإعداد والتحضير لهذه الرحلة المقدسة المنتظرة بشوق ولهفة؛ ما بين يومي السفر والعودة ثمة طقوس واحتفالات واستعدادات غير مسبوقة في منزلنا وشارعنا، بل في حينا كله!

ليلة السفر، يجتمع الأهل والجيران وأحباب جدتي في المنزل حتى يكاد يفيض بهم، لساعات طويلة لا تنقطع تصدح حناجرهم بأجمل وأعذب الألحان والأغنيات الشعبية التي تجسد شوق المحب لحبيبه ولهفته للقائه، أغنيات تصور عشق المصريين للحج ولزيارة بيت الله الحرام، وتعظيم شعائره، وزيارة النبي الكريم (أبوفاطمة الطاهرة الشريفة)، لم أكن في حينها أعي جيداً تغلغل هذا الموروث في الوجدان الجمعي المصري في كل المستويات وكل الطبقات، وإن كان أكثر بروزاً وظهوراً وتواصلاً وتجدداً في الأرياف والصعيد، والأطراف الصحراوية الشرقية والغربية، ومن هاجر منهم إلى أطراف العاصمة والضواحي؛ في ليلة الاحتفال بالسفر إلى المشعر المقدس، أذكر هذه الأغنية لا أنساها:

رايحة فين يا حاجة يا أم شال قطيفة
رايحة أزور النبي محمد والكعبة الشريفة،
وأدعي يا أمة من فوق المنايا
ودعيتك يا بني يا بني تيجي بالسلامة

أما يوم السفر ذاته، فكان يوماً عظيماً مشهوداً، اجتمع الناس من كل حدب وصوب أمام منزلنا لتوديع جدتي التي ارتدت الأبيض، واستعدت للزيارة التي تاقت إليها عمرها كله، كنا جميعاً نرتدي زياً جديداً أبيض، أنا وأبي وأمي وشقيقتاي، البيت كله مزين بطوابقه

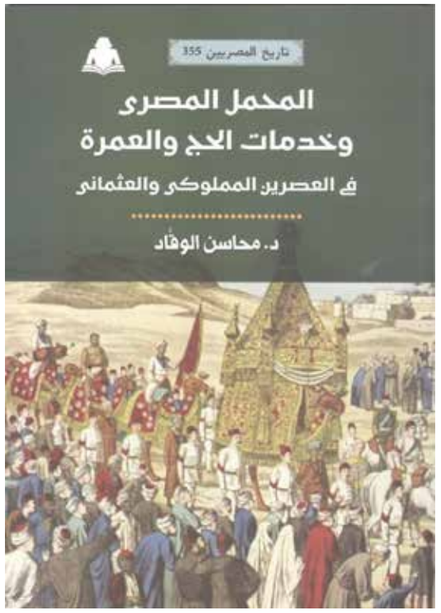

الثلاثة، وواجهته مزينة بالألوان والأيقونات المصورة الشهيرة لرحلة الحج. جاء جميع أقاربنا من كل مكان حتى الذين لم نكن نعرفهم ولا نراهم إلا على فترات متباعدة للغاية، جاء الجميع مبتهجاً محتفلاً ومنفعلاً بالحدث الكبير.

- 3 -

بعد سفر جدتي، أخذ أبي بهمة ونشاط في تحضير المنزل لاستقبال عودة «الحاجة زينب» بعد أن تكون أتمت الفريضة العظمى، اتفق مع نقاش مناسبات الحج الشهير في منطقتنا الشعبية، ليطلي واجهة المنزل بالكامل برسومات الحج الشهيرة وآيات القرآن الكريم وأبيات الشعر والمواويل التي تسجل جمال الرحلة وبهجة العودة وفرحة لقاء الرسول، صلى الله عليه وسلم، وزيارة قبره والروضة الشريفة. كانت هذه الرسومات طقساً فولكلورياً أصيلاً لدى المصريين، وللأسف انحسر هذا الأمر تماماً حتى كاد يختفي، ولو لم تحفظه أرشيفات التراث الثقافي غير المادي وأطالس المأثور الشعبي لفاتنا مأثور عزيز لا يعد ولا يحصى ولا يعوض.

احتفال لم أر في حياتي مثله، لم تكن في ذلك الوقت (1987) قد ظهرت الهواتف المحمولة، ولم تكن كاميرات الفيديو شائعة لدى الأغلبية، لكن لحسن الحظ كان

أبي يهوى التصوير الفوتوغرافي، وكان اقتنى كاميرا فوتوغرافية حديثة، وطلب من صديق له أن يسجل تلك اللحظة بالكاميرا، وقد كانت هذه الصور هي التي أرجع إليها وأتأملها الآن بعد ما يزيد على ربع القرن من هذا الحدث الكبير غير المسبوق في حياة المصريين.

- 4 -

«الحج» فريضة معظمة من فرائض الدين الإسلامي، ومن بين كل الأمم والثقافات الإسلامية يعظم المصريون شعائر الحج، ويحتفلون به احتفالاً عظيماً ومهيباً، أكثر من غيرهم، فلهم «المحمل» الذي لا يساويه محمل آخر، ولديهم «التخترون»؛ وهو عبارة عن نوع من الأعمدة الخشبية مغطى بالقماش، يحمله بعيران، وهو عادة تركبه العروس يوم زفافها، للانتقال من بيتها إلى بيت عريسها، ويركب مع العروس في التخترون بعض صويحباتها، وكان يستعمل قبلاً في السفر إلى الحج، وليس المحمل إلا صورة مصغرة منه. وهم الذين كانوا يعدون كسوة الكعبة كل عام، وكثير من الناس لا يحجون إلا ليلقبوا بالحاج فلان أو الحاجة فلانة، وإذا عاد الحجاج عادوا بهدايا، وخصوصاً ماء زمزم والبلح على شكل سبح، والعنبر والدبل والخواتم الفضة والسبح، وبعض العامة قبل حضور الحاج يبيضون بيوتهم من الخارج، ويرسمون عليها رسماً بدائياً، كشكل رجل راكب جملاً أو نحو ذلك، ثم يستقبلون الحاج بالزفة، ويقيمون الولائم، وينصبون نصبة كنصبة الأفراح، وكثيراً ما يؤثر الحج في الحاج أثراً حسناً، فيقلع عما كان يرتكبه من الجرائم، ويعود صالحاً لاعتقاده أن الله يغفر الذنوب جميعاً بحجه، ووقفته على عرفات، وكثير من الناس يحرص على أن يلقب بالحاج دائماً، فيقال: الحاج محمد، والحاج علي.

وبعض الناس يبالغ في الحج، فيحج سبع مرات أو أكثر، وبعضهم يبالغ أيضاً فيحج على رجليه ماشياً، وبعض المسلمين يحج عنه عدد على قدر ماليته، ورأيت بعضهم يقف وقفاً على عشرة يحجون عنه كل عام، والحج يعلي عادة صاحبه بين أصحابه ومعارفه أكثر من الصلاة والصوم والزكاة. وبعض الفقراء يقتصد من القوت الضروري له ولأولاده ليتمكن من الحج، وكان الحج دائماً على جمال، ثم أصبح يحج الناس في السيارات، وبعضهم يحج بوساطة الطائرات.

- 5 -

من بين كل الشعوب والثقافات الإسلامية وارتباط الوجدان الجمعي برحلة الحج المقدسة، وقد احتلت هذه الرحلة في الوجدان الجمعي للمصريين شأناً عظيماً، عبّر عن نفسه في مأثور غني وخصب ومتجدد، في فنون أدائية وتشكيلية ولونية ونحتية، في إبداع شفاهي يندر أن يوجد في مكان آخر، هذا الفولكلور الخصب اجتذب الراحل الكريم الدكتور محمد رجب النجار، ليخصص له واحداً من أجلّ كتبه وأجملها على صغر حجمه، هو كتاب «فولكلور الحج».

يقول الدكتور رجب النجار في مطلع كتابه «إن الأدب الشعبي يقصد به هذا النص الإبداعي المرتبط موضوعياً وثقافياً وجمالياً وفنياً باحتفالية الحج أساساً، والمحدد بسياقها الاحتفالي وبوظائفها الثقافية والدينية والتعبيرية في المجتمعات التقليدية أو الشعبية أو المحلية، وهذا النص الشعبي غني بأنماطه الفنية وأشكاله التعبيرية التي تتردد شفاهياً أو تنشد غنائياً».

يصف الدكتور النجار احتفالية الحج بأنها تشكل دورة قائمة بذاتها منذ الشروع بالحج، وأثناء هذه الاحتفالية التي تبلغ ذروتها عند سفر الحاج إلى الديار المقدسة، وعند العودة منها والرجوع إلى الوطن، وتشمل:

- شعر المدائح النبوية.
- شعر الإنشاد الديني.
- أناشيد حلقات الذكر.
- نصوص الأغاني الشعبية المعروفة بأغاني الحجيج (تعرف في المجتمع المصري باسم حنون الحاج).
- أغاني الدراويش والمداحين والمنشدين الدينية (باللهجة الدارجة).
- أغاني الحداء الدينية التي كان يترنم بها حداة الإبل في قوافل الحجيج.
- أهازيج الأطفال التي كان يترنم بها أطفال الحجاز - حتى وقت قريب - عند استقبالهم قوافل الحجيج.
- الأدعية والتلابي والابتهالات الدينية التي يرددها الحجيج.
- العبارات المأثورة التي تتردد لتهنئة الحاج والترحيب به، والتبريك له الشفاهية أو الكتابية (على واجهة منزل الحاج عند عودته).
- الأغاني الشعبية المصاحبة لوداع أو استقبال المحامل كالمحمل الشامي أو العراقي أو اليمني أو المصري.. إلخ.
- المرويات القصصية التي كان يرددها وعاظ الحملات وقراؤها والخاصة بمعجزات الرسول، صلى الله عليه وسلم، وخاصة في الحج أو بقصص الأنبياء (بناء الكعبة، وضع الحجر الأسود.. إلخ)، أو تلك الحكايات التعليمية الخاصة ببعض الأماكن أو البقاع المقدسة في مكة والمدينة.
- المرويات الشخصية التي يرويها أو يكتبها الحجيج عن رحلة الحج من مبتداها إلى منتهاها.

- 6 -

ومن الجدير بالذكر أن النصوص الشعرية الخاصة بأدب الحج كانت - في معظمها - تروى باللغة العربية الفصحى، في دلالة واضحة على ارتباط النص الأدبي الشعبي بالنص الديني الفصيح في احتفالية الحج.

(وللحديث بقية إن شاء الله)

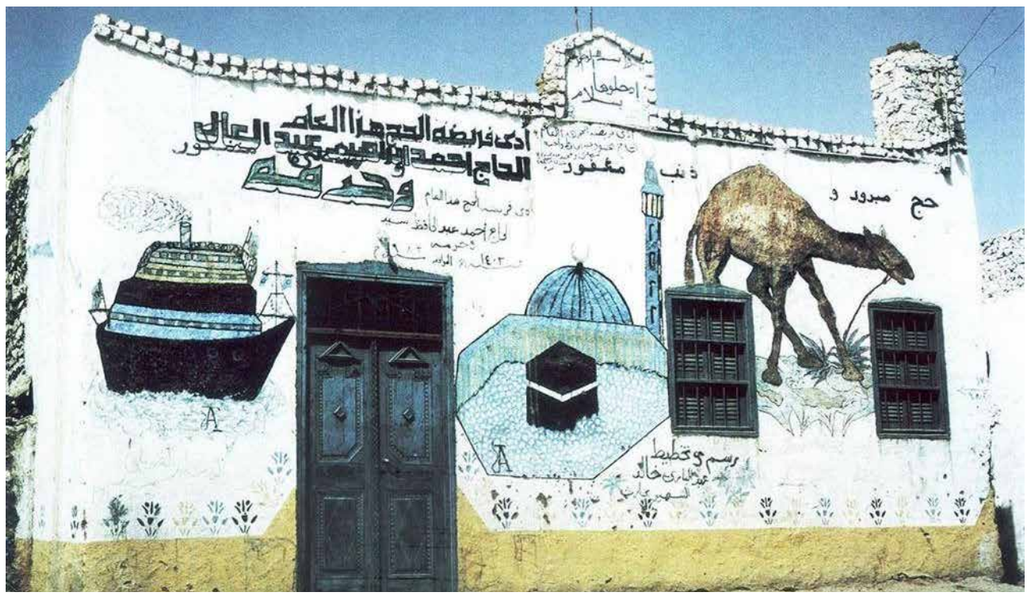

علي العَبْدان
مدير إدارة التراث الفني
معهد الشارقة للتراث

مصادر التراث الموسيقيّ العربيّ

من القرن الثاني حتى الحادي عشر الهجريّ

الجزء الثامن والأخير

في الجزء الثامن والأخير من هذه المقالة نُكمِلُ التعرّفَ إلى بقية مصادر التراث الموسيقيّ العربيّ، التي انتخبتُها من كتاب (مصادر الموسيقا العربية) للمستشرق الموسيقيّ الأسكتلنديّ هنري جورج فارمر، الذي يمُثّلُ ثَبَتاً لتلك المصادر، وذلك حسبَ أهميتها في معرفة تطوّر الموسيقا العربية نظرياً وعمليّاً من وجهةِ نظري، وأضيفُ إلى ذلك كلهِ تعليقاتٍ وملاحظاتٍ يسيرة، ونعرِضُ هنا أهمَّ مصادرِ القرنيْن؛ العاشر والحادي عشر الهجريّيْن

القرن 10 هـ / 16 م:

1. الكِرْوانيّ، علي بن أحمد بن محمد (955 هـ / 1548 م)، له كتاب (كشفُ القِناع عن وجه السَماع)، ويُعلّق فارمر قائلاً: أباحت الطُرُقُ الصوفية الموسيقا لأنها تقودُ للوَجْدِ الذي تتكشّفُ فيه الأسرارُ الدينية.
2. ابن الوَنْشَريسي، عبد الواحد بن أحمد (956 هـ / 1549 م)، له منظومةٌ من بحر الطويل بدون عنوان، في الطبائع، والطُبوع، والأصول.
3. الهَيْتَميّ [في الترجمة العربية من كتاب فارمر: الهَيْتَميّ بالثاء، وهو خطأ]، شهابُ الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر (973 هـ / 1565 م)، له رسالة (كفّ الرّعاع عن محرّمات اللهو والسَماع)، ويقول عنها فارمر: رسالةٌ طويلةٌ تُحرّمُ السَماع، ويفخَرُ المؤلفُ بأنهُ كسرَ الآلات الموسيقية، وعاقبَ الموسيقيين، والرسالةُ رَدٌّ على ابن زَغدون، محمد بن أحمد التونسيّ، الذي دافعَ عن الموسيقا في رسالتهِ (فرَجُ الأسماع بِرُخَص السَماع).
4. الحَصكفيّ الموسيقيّ، علي مظفَّر بن الحسين بن مظفَّر (كان يعيش في القرن العاشر الهجريّ)، له رسالة (الكاشف – أو الكشّاف – في علم الأنغام)، رسالةٌ قصيرة، ولكنها نافعة حسبَ وصفِ فارمر.
5. مؤلف مجهول. له كتابٌ في علم الموسيقا، يصفها فارمر بأنها رسالةٌ طويلة، تحوي فصلاً عن قوالبَ وأشكالٍ غنائيةٍ وموسيقيةٍ مختلفة، مثل النوبة، والنوح، والموشح، والدور، والسلسلة، والدولاب، وبعضُ هذه الأنواع لم تُذكر في المصادر السابقة، كالدولاب، مثلاً، وهو مؤشرٌ مهمٌ في تاريخ ظهور القوالب.

ثم ذكرَ فارمر أرجوزتيْن في علم الأنغام من القرن العاشر الهجريّ حسبَ ما يظهر، أُولاهُما لناصر الدين ابن العَجَميّ، والثانية لمؤلّفٍ مجهول.

القرن 11 هـ / 17 م:

1. الأنطاكيّ، داوود بن عمر الضَرير (1008 هـ / 1599 م)، له كتاب (تذكِرةُ أُولي الألباب والجامعُ للعَجَبِ العُجاب)، وهو كتابٌ في الطِبّ، توجدُ إشاراتٌ عدة للموسيقيين في جزئِهِ الثالث، ولم يذكر فارمر ما إذا كانت الإشارةُ إلى الموسيقيين تأتي في سياق العِلاج بالموسيقا، لكنّ هذا الذي يبدو من السياق.
2. القاري، علي بن سلطان محمد الهَرَويّ (1014 هـ / 1606 م)، وهو العلّامة الشهير مُلّا علي القاري، صاحب التصنيفات المشهورة في الفقه والتفسير، ذكرَ له فارمر رسالتيْن في الموسيقا والغناء، هما (رسالةٌ في السَماع والغِناء)، والثانية (الاعتناء بالغناء)، وعنوانُ الرسالة الثانية مما اشتهرَ به ملا علي القاري من عناوينَ قصيرةٍ جداً مُزيَّنةٍ بالجِناس، يضعها لبعض رسائله، مثل عنوان رسالته الأخرى الفقهية (المسألَة في البَسْمَلَة)، لكنني وقفتُ على الرسالتيْن مطبوعتيْن بتحقيق ماهر أديب حبّوش، بعنوانيْن مختلفيْن شيئاً ما، فكان عنوان الأولى (فتحُ الأسماع في شَرح السَماع)، وعنوان الثانية (الاعتناء بالغِناء في الغِناء)، وجاء على غلاف التحقيق الذي نشرته دارُ اللباب أن الرسالتين "تُطبعان لأول مرةٍ مُقابَلَتَيْن على عدّةِ نُسَخٍ خطيّة".
3. العامِليّ، بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثيّ (1030 هـ / 1621 م)، لهُ كتاب (الكشكول)، وهو مجموعةٌ من المختارات، تحوي فصلاً في علم الموسيقا.
4. المَقّري، أبو العبّاس أحمدُ بن محمد (1041 هـ / 1632 م)، هو صاحب الكتاب الشهير (نفحُ الطِيب من غصن الأندلُسِ الرَطيب)، الذي يسردُ فيه تاريخَ الأندلس ومَشهوريه، ويحوي إشاراتٍ كثيرةً للموسيقا والموسيقيين، خاصةً مُغنّي البلاط المشهور زرياب، ويقتبسُ المَقّري حرفياً من كثيرٍ من الكُتّابِ السابقين، ومنهم الشقنديّ (629 هـ / 1231 م).
5. حاجّي خليفة، مصطفى بن عبد الله (1068 هـ / 1658 م)، هو صاحب الكتاب الشهير (كشفُ الظنون عن أسامي الكتب والفنون)، وهو موسوعةٌ عربيةٌ للفهارس، تشملُ فصليْن في الموسيقا، أحدهما عن علم الموسيقا، والثاني عن الآلات الموسيقية.
6. أبو زيد الفاسيّ، عبد الرحمن بن عبد القادر بن عليّ (1068 هـ / 1658 م)، لهُ كتاب (الجُموع في علم الموسيقا والطُبوع)، وهي رسالةٌ تتناول الإيقاع، واللحن، والكميّات، والأبعاد، والأجناس، والنغم، والطُبوع، والطبائع.
7. مؤلف مجهول. له كتابٌ في معرفةِ الأنغام والضُروب، يُسمّى (الشجراتُ ذاتُ الأكمام)، هكذا أثبتَ فارمر عنوانَ الكتاب، وقد طُبِعَ بتحقيق الأستاذ غطاس عبد الملك خشبة، ونشرته الهيئة العامة للكتاب في القاهرة عامَ 1983 بعنوان (الشجرةُ ذاتُ الأكمام الحاوية لأصولِ الأنغام).

وقد ذكرَ فارمر مصدرَيْن لنصوص الإنشاد الصوفيّ، أحدهما (أغاني الدرويشية) لجامعٍ مجهول، وهي مجموعة من النصوص الغنائية، أغلبُها لشيخ القرن الحادي عشر الهجريّ، وهي من الموشح، والدور، والشغل. وأما المصدرُ الثاني فهو كتاب (العقيدة الدرويشية) لأحمدَ الدرويشِ البرّلُسيّ المالكيّ الأحمديّ، ويحوي نصوصَ أغانٍ من التوشيح، والدوبيت، والزّجَل، والموال.

تواريخ غيرُ يَقينيّة

تحتّ هذا العنوان الأخير في مادة كتابه؛ ذكرَ فارمر مجموعةً من مصادر الموسيقا العربية مما لا يُعرَفُ تاريخُ تأليفِها على وجه الدقة، وقد تكون أُلّفَت قبلَ القرن الحادي عشر الهجريّ، منها رسالةٌ قصيرةٌ من أربع ورقات في علم الموسيقا في المغرب، بلا عنوان ولا اسم مؤلّف، ومنها كتابٌ في مدح النبيّ عليه الصلاة والسلام لمؤلّفٍ مجهول، وهو في مائةِ ورقةٍ تحوي نصوصَ أغانٍ "روحيّة" على حدّ وصف فارمر، وأغلبُها من الموشّحاتِ والأزجال في مدح النبيّ عليه الصلاة والسلام، لكنْ مع بيان الطبْع الذي غُنّيَت به كلُّ واحدةٍ منها، ومن تلك المصادر أيضاً مجموعةٌ من الأغاني لجامعٍ مجهول، وُجِدَت مُلحَقةً بنسخة كتاب (الأدوار) لصفيّ الدين الأرمويّ في مكتبة المتحف البريطانيّ، ولكن لا صِلةَ لها بنسخة الأدوار، وإنْ لم يُشِر إليها الفهرس، وهي متأخرة التأليف حسبَ ملاحظة فارمر، كما أنها تُوضّحُ أسماءَ الطُرُقِ الموجودةِ عند بدايةِ كل أغنية.

فن المناهيل

علي العشر
خبير تراث فني
معهد الشارقة للتراث

قبل أن نتكلم عن فن المناهيل، يجب أن نعرف من هم المناهيل؟

المناهيل هم أفراد إحدى القبائل التي جاءت من نجران، وهي إحدى مناطق المملكة العربية السعودية. ومن ثم هاجرت إلى اليمن، وبالتحديد منطقة حضرموت، ومن هناك انتشرت في دول الخليج، حيث أتت مجموعة منها إلى دولة الإمارات العربية المتحدة، وبالتحديد إلى إمارة أبوظبي، حيث استوطنت فيها، ثم اختلطت مع القبائل البدوية، وأصبح أبناؤها منهم.

ومن هنا بدؤوا يمارسون أحد الفنون المنسوبة إليهم بالاسم؛ أي «فن المناهيل».

فن المناهيل هو فن حركي يؤدى من خلال فن غنائي بإنشاد بعض القصائد بوساطة مجموعتين، تبدأ المجموعة الأولى بإنشاد بيت من قصيدة بلحن معين، يتم الاتفاق عليه من قبل المجموعتين. ومن ثم ترد عليها المجموعة الثانية بتكملة بيت القصيدة وباللحن نفسه، وعليه يتم الرقص من قبل مجموعة ثالثة.

تعريف رقصة المناهيل:

هي إحدى الرقصات المميزة التي يقبل عليها كثير من رجال البادية، وهناك أيضاً من يؤديها بالحركات نفسها في بادية حضرموت في جنوب الجزيرة العربية.. وتعود تسمية الرقصة نسبة إلى قبيلة المناهيل.

ومن مظاهر هذه الرقصة أن يجتمع الرجال والنساء في حلقة واسعة، ويواجه الفريقان بعضهما بعضاً، وتتسع الدائرة أكثر، ويبدأ راقصان من الحضور أو المشاركين، وهما رجل وامرأة، في أداء حركات رشيقة وسريعة، ويبدو من اتجاه الخطوات أن المرأة في حالة هجوم، بينما الرجل يتقهقر، وعيناه في مواجهتها، وفي هذا تكمن الفكرة والطريقة، وهي أن القوة في موقف الضعيف

والضعيف كأنه قوي يهاجم بعنف وشراسة.

فالمرأة هي المهاجم المندفع، والرجل ذو الذراعين الفولاذيتين يلوذ بالفرار...

وتستمر الرقصة بخفة، ويحل محله رجل آخر بسرعة تجعل عملية التبديل تتم في بعض الأحيان دون أن يلحظها المشاهد.

وتسمى هذه الرقصة أيضاً شرح المناهيل، والشرح كلمة مشتقة من الانشراح؛ أي السعادة، وتتميز هذه الرقصة بأنها تعد أطول الرقصات الشعبية في الجزيرة العربية كلها، وذلك لأن بدايتها عادة ما تكون بعد صلاة العشاء، وتستمر بالمشهد والخطوات نفسيهما وبحركات الأيدي والأرجل وبالأشخاص المشاركين نفسهم، إلى ما قبل أذان الفجر، حيث يتوقفون ليؤدي الناس الصلاة، ثم يعيدون حتى ميعاد تناول الغذاء، وقتها يبدأ الناس بالانصراف.

والمناهيل يعرفون الرقص على نوعين:

النوع الأول يطلقون عليه الزامل، والنوع الآخر يسمونه الشرح، حيث ذكر آنفاً.

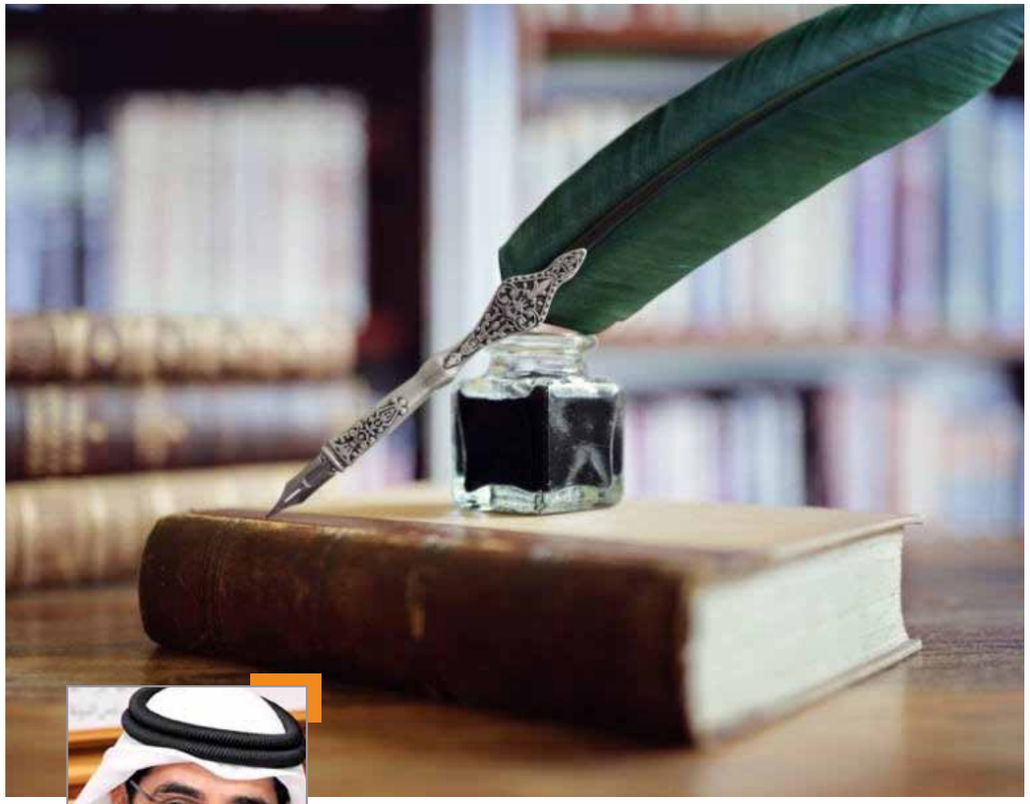

حمد خليفة بوشهاب..
وقصائد تفتح الآفاق

محمد عبدالله نور الدين
كاتب وناقد ـ الإمارات

اشتهر حمد خليفة بوشهاب بإسهاماته في ميدان الشعر الشعبي الإماراتي، من خلال منتوجه المميز في هذا الميدان، ولكن المطَّلع على سيرته سيرى أنه كان يهوى الشعر الفصيح أكثر من أي مجال آخر، واستطاع في زمن قل فيه من يُعلّم العروض والنحو أن يجد له مخرجاً لإجادة الشعر الفصيح، ولكن الأهم أنه كان أيضاً بارعاً في استخدام الشعر سلاحاً له حينما تضيق عليه الطرق، وتغلق أمامه الأبواب، أو لا يجد حيلة في أمره لتفتح أمامه آفاق الحلول.

بدأت حياة حمد خليفة بوشهاب تستقر في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، حيث كان يستقر في بيت ابتناه من ماله في منطقة بورسعيد بدبي، وبدأ بالعمل موظفاً عند محمد وأخيه عبدالصمد راشد الكيتوب، حتى وصل راتبه في فبراير عام 1972 إلى أكثر من ألف ومائتي درهم، حين انتقل إلى مكتب الإعلام بالشارقة موظفاً فيها براتب أقل وهو ألف درهم، وقصة انتقاله إلى العمل الجديد بدأت دون أن يعلم، فقد رشّحه عبيد حميد المزروعي عند راشد عبدالله النعيمي،[1] كونه الرجل المناسب الذي يصلح لهذه الوظيفة التي تحتاج إلى إمكانات تعتبر نادرة في تلك الفترة بين المواطنين، فكانت الوظيفة نقلة نوعية، على الرغم من أن الراتب كان أقل من الذي يحصل عليه، إلا أن من الطريف أن هذا الراتب تأخر كثيراً، ما أجبر حمد خليفة بوشهاب على زيارة أبوظبي، ومحاولة مقابلة الوزير ووكيل الوزارة، لمعرفة سبب تأخر تعيينه وحصوله على الراتب كما بيّن في قصيدته:

أأطلب هكذا من غير علمي
وأبعث دون تخطيطٍ وفهمِ
وأخبر أنني أصبحت رأساً
ومسؤولاً نعم ومدير قسمِ
وإذ بي لا أمثل غير نفسي
وإن حاولت أن أرضى بوهمِ
فلا التعيين تمّ وكم وعدنا
به، وإذا بنا غرضٌ لظلمِ
وها أنا ذا ذاهبٌ لأرى مصيراً
يكاد يضيع بين أذىً وهمِّ
يقول لي الوكيل ألا ترانا
مع الإعلام في تعبٍ وغمِّ؟
تُحل مشاكلا فتجيء أخرى
وأنت تكاد منك الروح تدمي
فدعني أقرأ الأخبار دعني
وإن الأمر محتاجٌ لحزمِ
ولكنّي أقول ألا تعرني
ولو قرضٌ وسجّله على اسمي
فيرسل بعض آهاتٍ طوالٍ
تعبّر منه عن غضبٍ وذمِّ
فأذهب للوزير وكان قصدي
يوضّح ما تحيّر فيه علمي
إذا بالشيخ يدفعني بلطفٍ
ويحلم في قريضي أي حلمِ
يقول لقد تعيَّن عن قريب
إذا أنشدت من شعرٍ ونظمِ
فقلت لدي أشعارٌ حسانٌ
ولكن لن أعود بغير حسمِ
بحسم قضيتي والأمر عندي
مهمٌ بل وأكثر من مهمِ[2]

كأن أبوشهاب يعلم أن الوزير الشاعر معالي/ أحمد بن حامد، والوكيل العالم بأهمية الشعر وهو سعادة/ عبدالله النويس، أغلب الظن يعلمان مدى قدرة الشعر على التأثير، وهو يحاول بذلك أن يستخدم الشعر كوسيلة ضغط عليهم كي يهتموا بإتمام موضوعاته العالقة لديهم، ومن الطرائف أيضاً أنه وعد في أحد الأيام بساعة ثمينة من الوزير، وحينما تأخر الوزير كتب فيه:

ستقوم ساعة ربنا وسنحشرُ
لكن ساعة «أحمدٍ» لا تنشرُ
قد لفها الصندوق في أكفانه
لفّاً بيوم الحشر لا تتأثرُ
ويقوم كل الناس إلا ساعتي
أبداً ستبقى في الخطى تتعثرُ
فإلى متى سأظل أرقب ساعةً
قد طال صبري فوق ما تتصور
إن تهدَ ساعات الوزارة كلها
لضيوفكم ولمن يقول وينشرُ
فأنا أحق بها لأني شاعرٌ

يشدو بتقدير الوزير وينشرُ
أنا إن حظيت بساعة مرموقة
ذهبية فـ«زكيٌّ» ماذا يخسرُ
ما دام «واديكم» يحج ففرصتي
من قبل مقدمه هنا فيؤثرُ
ويقول قانون الوزارة هكذا
يقضي ويمسك في البنود ويفسرُ
يا ساعتي هل أنت آتيةٌ متى
أم أن ميعاد الوفا متأخرُ
إني مللت من الحصول عليك من
تلك الوعود فكلها لاتثمرُ
فإذا استلمت نفحْتكم بقصيدةٍ
عصماء شاد بها الجميل الأحورُ
وإذا تعذرت المسائل كلها
سأكون أو من يذم ويهجرُ[3]

«واديكم» يقصد به محمود الوادي، مدير شؤون الموظفين في الوزارة، الذي سيدقق لاشك في مدى قانونية إهداء الساعة إلى موظف، و«زكي» هو معالي/ زكي أنور نسيبة،[4] ولكن على أي حال حصل بوشهاب على الساعة بعد أن سمع معالي الوزير القصيدة، وفي هذه الوظيفة كان أبوشهاب يرى أنه محل تقدير في هذا المكان، فقدم فيه خدمات مهمة جداً، وأهمها إنشاء المكتبات العامة في الإمارات الشمالية. وفي هذه الوظيفة أي في مكتب وزارة الإعلام في الشارقة الذي قضى فيها حمد من 1972 إلى 1976 اقترب إلى حاكمها صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، فكان يدعوه إلى منزله ويكرمه، ولعل لقاء محمد حسنين هيكل، في منزل سموه، كان مهماً جداً لحمد، فقد كان متأثراً بجمال عبدالناصر، وكان اللقاء بعد هزائم عبدالناصر، وحمد متعطش جداً لفهم ما آلت إليه الأحداث، وبعد أن تم اختيار حمد بن سيف الطنيجي، مديراً للمكتب الإعلامي بالشارقة، تأثر حمد كثيراً بفقدان منصبه، إلا أن ذلك كان فاتحة خير أكبر له، فقد عيّنه معالي/ أحمد خليفة السويدي، بطلب من أخيه الأكبر محمد، في وظيفة سكرتير أول بوزارة الخارجية، واقترب كثيراً من معاليه، وكان سبباً مباشراً في وصوله إلى الشيخ زايد، ناهيك على أنه سهل له الطريق في الاهتمام بالشعر والتأريخ بدلاً من التركيز على المجال الدبلوماسي. وحتى حينما التحق في منتصف عام 1980 بلجنة التراث والتأريخ، بطلب من محمد بن أحمد الخزرجي،[5] وافق معالي/ أحمد خليفة السويدي فوراً على ذلك، وفتح أمام حمد آفاق البحث في الشعر والتأريخ، ومنها أيضاً التكسب من هذا المجال، إذ يقول حمد: «بدأت أؤلف الديوان الواحد تلو الديوان الآخر، وفي التأليف ربح وشهرة، وقد ساعد وكيل وزارة الإعلام على شراء منتوجاتي، ثم اختار لي تقديم برنامج يومي للشعر الشعبي، وفي تلك الحلقات مكسب كبير لي، وأكرر ورب ضارة نافعة»[6].

وكانت لقاءات حمد مع معالي/ أحمد خليفة السويدي لا تتوقف، فقد كان يحرص على زيارته كلما جاء إلى أبوظبي، وفي يوم 2 ديسمبر 1996، طلب من حمد المشاركة بقصيدة في التاسعة صباحاً، حسبما أبلغه أحد رجال الشيخ زايد، فخرج حمد مستعجلاً من دبي إلى أبوظبي مباشرة إلى الموقع، وهو منصة العرض العسكري، فبدأ يوماً شاقاً طويلاً استمر حتى المساء، حيث أمسية كبرى لصاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، وفي نهاية اليوم والساعة تشير إلى منتصف الليل، طلب منه معالي أحمد السويدي أن يبيت في بيته بأبوظبي، إلا أن حمد فضل العودة إلى دبي، وفي تلك الأثناء وقف شاب يحاول أن يستغل وجود حمد ليسمعه قصائده، وآخر يحاول أن يقنع معالي/ أحمد السويدي بالتوسط لنشر قصيدة ابنه، فاتجه معاليه نحو حمد محاولاً دعم موهبة ابن الرجل، ولكن كان حمد مستاء من الوضع، فقال: رد عليه قصيدته، وخلصني من هذا الشعر السخيف. فقال: إن شاء الله، إن شاء الله. ولم يستطع بوشهاب النوم ليلتها هانئاً، كلما تذكر أسلوبه مع السويدي، فاتصل صباحاً يعتذر عن أسلوبه ليمازحه السويدي قائلاً: لقد ظهرت حقيقتك! فعلقت العبارة في ذاكرة بوشهاب، حتى قال قصيدته التالية بعد 5 أيام، وهو يكرر اعتذاره مرة أخرى:

لن تغن عن هفوات النفس آدابُ
مهما سمت فلها سلبٌ وإيجابُ
كل ابن آدم خطّاءٌ وخيرهما
التائبون ورب العرش توّابُ
إن كان ساءك منّا هفوةٌ بدرت
فإن صدرك يا ذا الحلم مرحابُ
فلا تؤاخذ محبّاً ما تعمّد في
لفظٍ يسيء وللزلات أسبابُ
قد بات والهم يطويه وينشره
وما استقرت له بالنوم أهدابُ
لنا حقيقة نفسٍ من خلائقها
صفو الضمير وفيها الشهد والصاب
وإننا فوق هذا كله بشرٌ
ننسى ونخطئ والناجون من تابوا
أبا محمد يا شهماً نكن له
محض الوداد كما النهر ينسابُ
ويا أعز صديقٍ لا نظير له
في ناظري ولا أهلٌ وأحبابُ
ملء القلوب لكم أسمى مودتنا
وما أخالك في ذا الود ترتابُ
فاغفر عليك سلام الله هفوتنا
ففي الضمير لكم روضٌ وأطيابُ.

فأجابه معاليه في 27 ديسمبر 1996:

أبا خليفة، إن الطبع غلّابُ
خليقةٌ في بني الإنسان تنسابُ
وللطبائع علّاتٍ تحركها
وللحوادث حالاتٌ وأسبابُ
فلو جرى ما جرى من هفوةٍ عبرت
فاعلم يقيناً بأن الودّ غلّابُ
أحطتني بسوار الود تكرمةً
فالحب والصدق والإخلاص جذّابُ
يا من تبوّأت في الأخلاق منزلةً
وفي المعالي وللعليا وثّابُ
يا من إن قال الشعر في مناسبة
تلاه في حلقات الدرس طلّابُ
أنت الذي اجتمعت أسمى الصفات به
علمٌ وحلمٌ وأخلاقٌ وآدابُ
يا أنبل الناس صدقاً في معاملةٍ
إليك من نفحات الزهر أطيابُ.[7]

هنا تتجلّى علاقة المحبة والتقدير الكبيرة التي كانت بين الشاعرين، ولم تستطع الحوارات العادية أن تكون بديلة للقصيدة التي كانت ولاتزال وسيلة الشعراء في مختلف الظروف والصعوبات.

1- (السيرة الذاتية/ الشعرية ص104) الأرجح أنه معالي/ راشد عبدالله النعيمي، صاحب أول رواية إماراتية ووزير شؤون الخارجية لاحقاً، وعبيد حميد المزروعي هو رئيس تحرير جريدة الفجر التي أسسها في عام 1975م.
2- السيرة الذاتية/ الشعرية، ص 119.
3- السيرة الذاتية/ الشعرية، ص138.
4- معالي/ زكي أنور نسيبة شخصية غنية عن التعريف، فهو مستشار رئيس الدولة الثقافي ووزير دولة سابق، وكان آنذاك مدير المعلومات والعلاقات العامة في الوزارة، وهو من كبار المثقفين، واشتهر بصفته مترجمًا للغات أجنبية عدة.
5- السيرة الذاتية/ الشعرية، ص145.
6- السيرة الذاتية الشعرية، ص146.
7- السيرة الذاتية/ الشعرية، ص 309.

الكويت

في الأرشيف العثماني (4)

طلال سعد الرميضي
كاتب - الكويت

تناولنا في مقالاتنا السابقة ذكر الكويت في وثائق الأرشيف العثماني، الذي يعدّ من أهم الأرشيفات العالمية، وبيّنا جهود الباحثين والمؤرخين في النهل من هذه الكنوز التي تضم الكثير من الأخبار والأحداث التاريخية عن أهالي الخليج العربي في الزمن الماضي، ومنها كتاب «بيان الكويت سيرة حياة الشيخ مبارك الصباح»، للمؤرخ القدير صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم إمارة الشارقة، حفظه الله ورعاه، إذ يعدّ كتابه من أهم الكتب التاريخية بالمكتبة الخليجية.

ونستكمل الحديث في هذا الجانب باستعراض مؤلف قدير قدم مجموعة من المؤلفات تعدّ من أهم الكتب التي استندت إلى الأرشيف العثماني بعد سنوات طويلة على الاعتماد على وثائق الأرشيف البريطاني ومعلوماته الوثائقية، ويمكننا القول إن أهم شخصية خدمت الجزيرة العربية عبر وثائق الأرشيف العثماني هو الأستاذ الدكتور سهيل صابان، وهو مؤرخ قدير قدم للمكتبة العربية العشرات من المؤلفات القيمة حول الجزيرة العربية وأخبارها، وترجم مئات الألوف من الوثائق العثمانية، ليكشف لنا صفحات جديدة من أخبار الماضي دونت في هذه السجلات القديمة.

ولد المؤرخ د. سهيل صابان عام 1960م، تلقى تعليمه العالي في المملكة العربية السعودية، ونال شهادة الدكتوراه في عام 1994م، من جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، برسالة علمية بعنوان «الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري»، وقد حصل على مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطباعة الرسالة وتبادلها بين الجامعات، وعمل في مكتبة الملك فهد الوطنية سنوات عدة، ثم عمل بسلك التدريس في قسم التاريخ بجامعة الملك سعود بالرياض حتى تقاعد منها قبل عامين، بعد أن خدم فيها بكل تميز وإبداع، وقد صدر له كثير من المؤلفات التاريخية، التي بلغت واحداً وعشرين مؤلفاً مهماً، منها كتاب «مكة المكرمة والمدينة المنورة: بحوث ودراسات من واقع الأرشيف العثماني والمصادر التركية، ومذكرات ضابط عثماني في نجد لحسين حسني، ومراسلات الباب العالي إلى ولاية الحجاز (مكة المكرمة - المدينة المنورة)، ومن وثائق الأحساء في الأرشيف العثماني، والأوسمة العثمانية والحاصلون عليها من الجزيرة العربية في وثائق الأرشيف العثماني، وأراضي الأحساء ومزارعها الميرية في سجل الخزنة الخاصة العثماني، وسجلات الصرة وفحواها، ونقابة الأشراف في الدولة العثمانية، والمعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ومصادر تاريخ الجزيرة العربية

في تركيا.. إلخ»، بالإضافة إلى مئات البحوث والدراسات التي قدمها للمثقف العربي عبر المؤتمرات العلمية أو المجلات المحكمة.

وكان المؤرخ القدير سهيل صابان متمكناً في ترجمة الوثائق العثمانية التي كانت تكتب بالخط العثماني القديم، وبأحرف عربية، إلا أنه تم التوقف من استخدامها عام 1928م، بقرار من الرئيس التركي مصطفى أتاتورك، واستبدالها بالأحرف اللاتينية، وقام الدكتور صابان بترجمة الألوف من الوثائق والسجلات العثمانية التي تناولت البلاد العربية، حرصاً على إبراز العلاقة الطيبة والجوانب المضيئة التي كانت تربط بين العثمانيين والعرب خلال القرون الخمسة المنصرمة، بخلاف ما تم ترويجه من أقلام الاستعمار الأوروبي عبر عقود من الزمن، وقد وفّق كثيراً في كتاباته القيمة كحرص الخلفاء العثمانيين على حماية مكة المكرمة والمدينة المنورة والمسجد الأقصى في القدس الشريف من الاعتداءات الأوروبية، وحماية درب الحجاج عن طريق دراسة الصرة العثمانية التي كانت تصرف للقبائل والشيوخ والمسؤولين خلال مواسم الحج.

والجدير بالذكر تربطني مع صاحب هذه الشخصية المميزة صداقة وثيقة منذ عقدين من الزمان، وقد استفدت منه الكثير من المعلومات المتعلقة بالوثائق العثمانية، وأتذكر لقائي معه في قاعة البحث بالمبنى القديم للأرشيف العثماني صيف عام 2008م، إذ يرتبط بعلاقات طيبة مع كل العاملين في المركز، وكان منغمساً في التنقيب عن أخبار وتواريخ الجزيرة العربية في الوثائق العثمانية، ومعه دفتر يقيد به أرقام الوثائق ومضمونها، ورغم انغماسه بالبحث إلا أنه كان يرد على استفساراتي الكثيرة بكل ود وترحيب واستفاضة، محبة منه لدعم الباحثين العرب في مركز الأرشيف العثماني، وتوجيههم بخبرته الطويلة.

وما يهمنا في هذا الصدد كتاباه: «الجزيرة العربية: بحوث ودراسات من وثائق الأرشيف العثماني والمصادر التركية» و«مداخل بعض أعلام الجزيرة العربية في الأرشيف العثماني»، ففي هذين الكتابين معلومات مهمة عن الكويت ورجالاتها في العهد العثماني، وقد صدر كتابه الأول (الجزيرة العربية) في عام 2005م، عن مكتبة الملك فهد الوطنية، وقد أفرد د. صابان في كتابه فصلاً كاملاً عن ملخصات الوثائق التاريخية وأرقامها في الأرشيف العثماني التي ورد ذكر الكويت في طياتها، وذلك في أربعين صفحة من كتابه القيم، وكشفت هذه البيانات المهمة لنا الكثير من المعلومات والبيانات المغيبة عن القارئ العربي، وعن جوانب متنوعة كأخبار الكويت، وأورد أرقامها ليسهل على الباحثين الوصول

إليها، والاستفادة منها، وتنوعت هذه الوثائق من مراسلات رسمية من المسؤولين العثمانيين إلى الباب العالي بعاصمة الخلافة العثمانية، وكذلك تقارير كتبت عن الجزيرة العربية، تضمنت الكثير من البيانات المهمة عن مدنها وقراها وسكانها وأعمالهم وحوادثهم، أضف إلى الرسائل التي وردت من بعض أهالي الولايات العثمانية من العرب، وتخلل هذه الوثائق الكثير من الأمور المغيبة عن الباحثين بالتاريخ الكويتي بتفاصيلها الدقيقة، وتتنوع تواريخ هذه الوثائق التي ذكرها صابان في كتابه، حيث تبدأ من مطلع القرن التاسع عشر الميلادي حتى أوائل القرن العشرين.

وكذلك كتابه الرائع (مداخل بعض أعلام الجزيرة العربية في الأرشيف العثماني)، الذي صدرت عنه طبعتان؛ الأولى عن مكتبة الملك عبدالعزيز في عام 2004م، وحققت الانتشار والصدى الطيب، لتتبعها طبعة ثانية عن دار جداول في عام 2013م، والكتاب ضم أخبار وبيانات المئات من الشخصيات الخليجية الوارد ذكرها في وثائق مركز الأرشيف العثماني، حيث أورد نبذة شخصية عن حياة العلم نقلاً عن مصادر عربية أو أجنبية، ثم يضع للقارئ المعلومات الواردة في الوثائق العثمانية، مع إرفاق أرقام هذه الوثائق النادرة بطريقة سهلة في الإحالة إليها، ليتمكن من يريد التوسع في المعلومات عنه، ومن الشخصيات الواردة في الكتاب عن بعض شيوخ الكويت والأوسمة العثمانية التي منحت لهم، كالشيخ صباح بن جابر، حاكم الكويت الرابع، المتوفى عام 1866م، وحاكم الكويت الخامس الشيخ عبدالله بن صباح، المتوفى عام 1892م، والشيخ محمد بن صباح، الحاكم السادس المتوفى عام 1896م، والشيخ مبارك الصباح، حاكم الكويت السابع، المتوفى عام 1915م، وبعض أعلام الكويت وتجارها وشيوخ وأعلام القبائل العربية، وكذلك أخبار القضاة من أسرة العداسنة كالشيخ عبدالله العدساني، الذين كانت تصرف لهم الدولة العثمانية رواتب نظير خدماتهم التي يقومون بها.

أعتقد أن مثل هذين الإصدارين يعتبران مهمين لكل باحث يرغب في التعرف إلى تاريخ الجزيرة العربية وحكامها وسكانها وأخبارهم القديمة، لذا يجدر به اقتناءهما في مكتبته الخاصة، وللأمانة فإن كل مؤلفات الباحث الكبير سهيل صابان هي ذات إضافة حقيقية في حقل التاريخ؛ لذا تجد انتشارها الواسع بشكل كبير بين المثقفين بدول الخليج العربي، سائلين الله عز وجل، أن يمد بعمره، وأن يقدم للمكتبة العربية الجديد من المؤلفات المهمة التي تكشف لنا زوايا جديدة من تاريخنا العريق، كانت مغيبة عنا في طيات الوثائق العثمانية القديمة.

نازك الملائكة والتنوير

د. فهد حسين
أكاديمي وناقد - البحرين

منذ فجر التاريخ والحضارات في بلاد ما بين النهرين، أو بلاد الرافدين، أو العراق حالياً، أسهمت في نهضة العراق وتنويرها بما كانت تؤمن به من أفكار وتطلعات ومبادئ، بعيداً عن تلك الصراعات والتوجهات وعبودية الإنسان، إذ إن العراق ربما أكثر منطقة تعاقبت عليها الحضارات الإنسانية، مثل: السومرية – الأكادية – الآشورية – البابلية، وبناء على الموقع الجغرافي حظيت بلاد الرافدين بنسيج من العلاقات التجارية والثقافية والعلمية بين حضاراتها والحضارات الأخرى في الشرق والغرب؛ لهذا فإن نازك الملائكة جاءت من أرحام هذه الحضارات لتكون صوتاً مفارقاً للمعتاد في المشهد الأدبي العربي.

والسؤال: ما علاقة نازك الملائكة بالتنوير؟ لا تبتعد العراق آنذاك عن الحركة الثقافية والنهضوية في العالم العربي، وكما أسهم رجالات الفكر والعلم في بعض البلاد العربية، أسهمت العراق أيضاً، وعلى الرغم من محاصرة المرأة في تلك الفترات التاريخية، فإنها شاركت الرجل في هذا المضمار فكراً ونتاجاً وممارسة في عجلة التنوير، إذ تمثلت مشاركتها النهضوية والتنويرية من خلال تأسيس الصالونات الثقافية والأدبية، والمشاركة في المؤتمرات العالمية، والدعوة المستمرة لتعليم النساء، ونيل حقوقهن الاجتماعية والثقافية ثم السياسية.

كانت النهضة العربية الثقافية موضوعاً خلافياً في كثير من جوانبه، فهل كانت هذه النهضة إحياء للأدب العربي القديم؟ أم هي نهضة تأثرت بالكتابة الغربية الحديثة، وبتحديث العربية لغة وأسلوباً؟ وبسبب هذا التباين في النظرة إلى طبيعة النهضة والتنوير كان للمرأة هنا دور ثقافي وأدبي، حاولت أن تشارك به، وتقدمه للقارئ العربي، لما يحمل بين طياته من ملامح تلك الرؤى المؤمنة بها، وتعمل على تقديمها نصوصاً إبداعية، هذا ما قامت به نازك الملائكة في نهاية النص الأول من القرن العشرين، بل كان دورها التنويري تجاه النص والمرأة والحياة منطلقاً من أبواب الجامعة، حينما كانت معيدة. وربما كانت المرأة العاملة خارج البيت أكثر تحركاً في نهضة المجتمع بسبب مشروعية دورها الاجتماعي والثقافي والتربوي.

هكذا عاشت نازك الملائكة بين أحضان الرواد في النصف الأول من القرن العشرين، لتأتي بدور جعل كل مشتغل بالشعر والأدب يعيد النظر في القصيدة وبنائها، سواء كان بقناعة أو بعامل المعرفة أو بهدف الرد والنقد. وقد ترجمت هذا الدعوة في كتابها المرجعي «قضايا الشعر المعاصر»، وهو كتاب يعتبر آنذاك ثورة تجديدية تنويرية في مجال الكتابة الشعرية، وفي وعي الشاعر بما يكتب، وأثار هذا الكتاب شعراء مرحلتها الذين اتجهوا لهذا النوع من الكتابة من نقد وكتابات وعصبيات، لكن إيمانها وقناعتها الفكرية بأهمية التطوير والتحديث في النص الشعري جعلها تستمر كما استمر شعراء آخرون هم رواد هذا الاتجاه مثل: بدر شاكر السياب، وعبدالوهاب البياتي، وبلند الحيدري في العراق، وعلي أحمد باكثير، وصلاح عبدالصبور، وغير هؤلاء.

ومع هذه الريادة، فهي تشير إلى أنها ليست أول من كتب الشعر الحر، ولا السياب، تلك المعركة

التـي دارت رحاهـا حـول الأسـبقية، إن تبـين أن هنـاك مـن سـبقها في العـالم العـربي، مثـل: لويـس عـوض، وعـلي أحمـد باكثـير، ومحمـود حسـن إسـماعيل وغيرهـم، هـؤلاء الذيـن نـشروا بعـض نصوصهـم في مجـلات عربيـة غـير عراقيـة، وهـذا الاعـتراف دليـل مهـم في طبيعـة الحالـة المجتمعيـة الثقافيـة التـي تؤكـد حالـة التحـول والتطويـر الثقـافي والأدبي في المجتمـع العـربي. ومـع هـذا فـإن ريادتهـا مـع أبنـاء جيلهـا تجـاه الشـعر العـربي، وتطـور بنـاء القصيـدة، يؤكـد أن المـرأة العربيـة ليسـت بعيـدة عـن مجريـات التحـولات الثقافيـة في المجتمـع، وأن الأمـر ليـس مقيـداً بالرجـل، بـل للمـرأة دور بـارز ليـس ثقافيـاً، وإنمـا عـلى مجمـل ميادين الحيـاة والمجتمـع.

إن التوجـه إلى التطويـر والتحديـث في القصيـدة العربيـة نهايـة الأربعينيـات مـن القـرن المـاضي كانـت وفـق أرضيـة ثقافيـة أدبيـة، تجسّـدت في رغبـة تطويـر القصيـدة العربيـة، وبخاصـة أن المنادين بتحديـث القصيـدة يـرون أن التجربـة الرومانسـية التـي كانـت طـوال عهدهـا تدغـدغ المشـاعر، لم تسـتطع تحقيـق شيء عـلى أرض الواقـع، وكأنهـا اسـتنفدت كل مـا لديهـا مـن قـول ولغـة وعاطفـة، لذلـك خرجـت نـازك الملائكـة وبعـض شـعراء جيلهـا عـلى مألـوف النـص الـذي كان منتـشراً آنـذاك، ذي النزعـة الرومانسـية لتدخـل في مرحلـة جديـدة ذات علاقـة بالإنسـان وهمومـه وواقعـه والتحديـات التـي تواجهـه، لهـذا بينـت أنـه لابـد مـن الإيمـان بالشـعر إيمانـاً حماسـياً يجعـل منـه أفـق انتظـار لتحقيـق المعجـزات في سـبيل إنقـاذ هـذه الأمـة التـي تعـبر مرحلـة متأزمـة مـن حياتهـا. وهـا هـي تقـول: أنـا سره القلـق العميـق.. أنـا صمتـه المتمـرد.

إن عجلـة التغيـير والتطويـر لا تقـف عنـد محطـة واحـدة، وإنمـا دائمـة الـدوران؛ لذلـك كان إيمـان نـازك الملائكـة بالتغيـير والتطوير في شـكل القصيدة العربيـة ومضامينها كانـت ضرورة مـن ضرورات الحيـاة عامـة، والحركـة الأدبيـة بخاصـة، والشـعر تحديـداً، وحـين اتجـه العديـد مـن شـاعرات وشـعراء الوطـن العـربي للكتابـة بهـذا النـوع، وفي هـذا الاتجـاه، لمـا كانـوا يـرون أن التجربـة تقـف مـع النزعـة الإنسـانية، وتخـدم المجتمـع، وتبحـث عـن سـبل تطـوره، وهـذا لا يخـرج عـن الدعـوة إلى نهضـة المجتمـع العـربي ثقافيـاً، تنويـر الشـاعر بمـا تتطلبـه المرحلـة الزمنيـة آنـذاك، وهـذا مـا أكدتـه نـازك الملائكـة في الطبعـة الرابعـة مـن كتابهـا «قضايـا الشـعر المعـاصر»، وأن «آداب الأمـم لا تسـتجيب للدعـوات الخارجيـة، وإنمـا تنبـع مـن تأثرهـا غـير الواعـي بالتيـارات المتداخلـة التـي تكمـن وراء الحيـاة اليوميـة، وتنحـدر مـن ظروفهـا التاريخيـة، وملابسـات حياتهـا النفسـية عـبر العصـور».

إن رؤيـة نـازك الملائكـة النقديـة والفكريـة وطمـوح التغيـير، كل هـذا يدخـل في سـياق التنويـر والحداثـة التـي كان ينشـدها رواد الحداثـة فيـما بعـد، بـل اسـتطاعت بكتابهـا ونصهـا الشـعري أن تحـول النظـرة إلى الشـعر مـن النظـرة الفرديـة لهـذا التجديـد، إلى النظـرة الجمعيـة، وهـذا في تصـوري لا يخـرج عـن أهـداف التنويـر ولا الحداثـة الفكريـة ولا الحداثـة الأدبيـة؛ لأن الهـدف الرئيـس مـن التجديـد مـن النـص الشـعري، هـو تقديـم رؤيـة مختلفـة وجديـدة عـما هـو سـائد مـن خـلال الشـعر عـلى مسـتوى الطابـع العـام الـذي يتمحـور حـول النـص التقليـدي أو النـص الرومانـسي، الأمـر الـذي يجعـل الشـاعر دقيقـاً في اختيـار مفرداتـه ولغتـه وتراكيبـه ودلالاتـه. وفي بعـض السـنوات بـات النـص الجديـد منتـشراً في العـالم العـربي، يكتبـه كثـير مـن الشـعراء.

لقـد أثـار الكتـاب ضجـة كـبرى وحـواراً نقديـاً كبـيراً بـين المؤيديـن والمعارضـين لمـا جـاء فيـه مـن رؤيـة للشـعر، لكـن نـازك الملائمـة مؤمنـة بمـا قالـه نيتشـه: مـا قيمتـي إذا لم أسـتطع أن أجعـل مـن نفـسي إنسـاناً بمـا تحملـه الكلمـة مـن معنـى؟ لهـذا كانـت مدركـة تامـاً مـا ينتـج مـن صراع ونقـد وخـلاف، لكـن لابـد مـن احتـواء كل هـذا طالمـا للإنسـان رؤيـة جديـدة، وتطلـع مختلـف بـه أسـباب الحضـور، ولديـه أسـباب النقـض أيضـاً، وهـذا مـا يؤكـد رؤيتهـا التنويريـة والحداثيـة ليـس للشـعر فحسـب، بـل لـلأدب عامـة، وللحيـاة والمجتمـع أيضـاً، وبخاصـة إذا كان هـذا التجديـد يتمثـل روح العـصر ونبـض المجتمـع وأحـلام النـاس.

إن نـازك الملائكـة صرّحـت في أكـثر مـن حـوار بدورهـا في حركـة التجديـد، الـذي هـو أيضـاً مثـل الرسـالة التـي تقدمهـا للمجتمـع تحمـل روح الإنسـانية، وطمـوح الإنسـان، وأحلامـه، وهـذه لا تخـرج عـن مـشروع التنويـر في العـام العـربي، بمعنـى هنـاك مـن قـدم إسـهاماته النهضويـة والتنويريـة والتحديثيـة في سـياقات اجتماعيـة، وأخـرى في سـياقات تعليميـة، وآخـر في سـياقات سياسـية، ولكـن نـازك الملائكـة مؤمنـة بوصفهـا شـاعرة أن تجعـل مـن الشـعر فاعـلاً تنويريـاً، وتدعـو العقـل إلى الاشـتغال الدائـم، وعـدم الركـون لمـا هـو مـوروث مـن دون حواريـة أو مسـاءلة، وهـذا مـا حـدث، فهـي تقـف مـع كل رواد الحداثـة في العـالم العـربي محاولـة غربلـة العقـل الجمعـي الرافـض لـكل جديـد، بغيـة الانفتـاح عـلى الآخـر الثقـافي والأدبي وكل السـياقات الأخـرى، وإذا قدمـت نقـداً فلابـد أن يكـون موضوعيـاً بعيـداً عـن العصبيـة، والنيـل مـن الآخـر، وبخاصـة أن التحديـث سـمة مـن سـمات المجتمـع الثقـافي في أي مـكان.

قـد يتسـاءل أحدنـا، هـل كانـت نـازك الملائكـة مهتمـة بمصطلـح الحداثـة؟ وبخاصـة أنـه لم يذكـر في كتابهـا «قضايـا الشـعر المعـاصر»، وهـذا فعـلاً أمـر مهـم الوقـوف عنـده، لم ومـا الأسـباب، غـير أنـه ربمـا عـدم ذكـره في وقـت كان المصطلـح متـداولاً بـين أوسـاط المثقفـين والكتـاب، لمـا يحملـه هـذا المصطلـح مـن معـانٍ ومفاهيـم متعـددة تخـص ليـس الأدب أو الثقافيـة، بـل كل مناحـي الحيـاة والإنسـان والمجتمـع، وهـي قـد حـددت دورهـا في عمليـة التنويـر والحداثـة والتغيـير في الكتابـة الشـعرية فقـط، إذ لم تتطـرق لأي كتابـة أدبيـة أو إبداعيـة أخـرى بالقصـة أو الروايـة، أو الفـن المسرحـي؛ لذلـك كان عنـوان كتابهـا مقصـوداً.

إن بعـض أبنـاء المجتمـع العـربي يسـتغرب مـن وجـود كاتبـات عربيـات، معتقـداً أن الكتابـة مقيـدة بالرجـل، لذلـك كان بعضهـن يكتبـن بأسـماء مسـتعارة، وهـذا التوجـه الذي لـك يكـن جديـداً في الأدب العـربي، لـه منبعـه الـذي يشـير إلى أن النظـرة الدونيـة تجـاه المـرأة لحـق بكتاباتهـا التـي تـرى هـذه النظـرة أنهـا لا تتقـن سـلامة اللغـة، ولا تعـي مـا تريـد قولـه في الكتابـة، وبسـبب الرقيـب الاجتماعـي شـملت النظـرة بعـض الرجـال، غـير أن إصرار المـرأة عـلى الظهـور وبيـان موقعهـا الأدبي والثقـافي جعلهـا تؤكـد وجودهـا وحضورهـا ودورهـا، بـل إذا كان الـرأي السـائد أن كتابـات المـرأة لا تتجـاوز النـص الإبداعـي شـعراً أو سرداً، فـإن نـازك الملائكـة أجهضـت هـذه الفكـرة وأصـدرت كتابـاً نقديـاً، كان لـه إسـهام كبـير في تاريـخ الشـعر العـربي الحديـث.

ومـع دورهـا في هـذه الثـورة الأدبيـة تجـاه الشـعر، ألا ينبغـي أن نتسـاءل: هـل كان الشـعر العـربي منـذ العصـور الأولى حتـى حـدوث مـا قـام بـه شـعراء الشـعر الحـر كان عـلى شـكل واحـد؟ أو عـلى صيغـة واحـدة؟ أليـس القصيـدة في العـصر الـذي سـبق الإسـلام تختلـف عـن قصيـدة العصـور التـي تلـت؟ أليسـت قصيـدة الشـعر الأندلـسي تمثـل تجديـداً وتطويـراً؟ أليـس الشـعر الرومانـسي هـو ثـورة شـعرية سـبقت شـعر التفعيلـة؟ مـن هنـا نؤكـد مـا كانـت تؤمـن بـه نـازك تجـاه الريمـان بالتغيـير في النـص الشـعري، حيـث مـا عنـده وفيـه قـد اسـتنفد رصيـده الفنـي والإبداعـي وفي الرؤيـة أيضـاً. بـل كانـت تـرى أن حداثـة النـص ودوره في المجتمـع وعنـد القـارئ أن يكـون نصـاً مختلفـاً في الشـكل والرؤيـة.

كانـت نـازك الملائكـة وبعـض شـعراء جيلهـا إشـكاليين عنـد الآخـر الرافـض للتجديـد والتطويـر، كان شـعراء الأجيـال اللاحقـة المؤمنـة بـضرورة التغيـير والتجديـد، وأن مـن مهـام الشـعر العمـل عـلى حداثـة المجتمـع؛ لذلـك كان الشـعر عامـة إشـكالياً في طبيعتـه؛ فكيـف إذا كان هـذا الشـعر ثـورة أدبيـة وإبداعيـة تفـرض عـلى الشـعراء التأمـل فيـما يقـرؤون ويكتبـون، وآليـات العـودة إلى الـتراث التـي تحكمهـا قوانـين وأسـس تجعـل مـن العـصر محـل اهتـمام، ولهـذا لم يكتـف الشـاعر بالكتابـة فحسـب، وإنمـا يتفاعـل مـع كل شيء حولـه ليحولـه إلى نسـيج ثقـافي وأدبي، يدخـل في معـارك المجتمـع الثقافيـة، ويخـوض في مجريـات الحيـاة، ويلامـس الأحـلام، ولكـن بلغـة أدبيـة شـعرية تشـكل منعطفـات تجـاه التفكـير السـائد، والأفـكار المتسـيدة، بلغـة تخـرج مـن ثيـاب العزلـة والأقنعـة السـميكة، لتكشـف هـذه اللغـة دور الشـعر في نهضـة المجتمـع، وهـذا مـا كانـت تمارسـه نـازك الملائكـة مـع رفـاق التجربـة.

الصورة الفكرية عن ذواتنا

حسين الراوي
كاتب - الكويت

لـكل واحـدٍ منـا صـورة في داخـل ذاتـه.. فكيـف هـي صورتـك الشـخصية داخلـك؟ هـل هـي حقيقيـة صحيحـة؟ وهـل أنـت شـخص سـلبي أو إيجـابي؟ حزيـن مُكتئـب أو أنـك مبتهـج متفائِـل؟ لقـد دلّـت التجـارب الحياتيـة، والدراسـات النفسـية - التـي كان محورهـا الإنسـان - أن الفـرد يعيـش حياتـه بمنـط يطابـق تلـك الصـورة الفكريـة التـي تعيـش داخلـه.

فالمشـكلات والاحتياجـات ليسـت هـي المصـدر الأول للهـم والكآبـة، حيـث إن هنـاك أناسـاً أثريـاء يتوافـر لديهـم كل مـا يريـدون مـن أمـور الحيـاة، لكـن وعـلى الرغـم مـن هـذا، تجـد أن بعضهـم يعيـش في قلـق وحـزن وكآبـة! وهنـاك مـن الفقـراء أيضـاً مـن يعيـش بحـزن وهـمّ وكآبـة نتيجـة لسـوء ظروفـه الحياتيـة، ومـن الفقـراء مـن يعيـش في منتهـى السـعادة والرضـا عـلى الرغـم مـن سـوء حالتـه المعيشـية. إذاً مـا السـبب في ذلـك؟ إن السـبب - عزيـزي القـارئ - هـو الصـورة الفكريـة في داخلنـا عـن ذواتنـا المنعكسـة عـلى معيشـتنا وأسـلوب حياتنـا.

يقـول الدكتـور إبراهيـم الفقـي: «احـذر مـن الأفـكار السـلبية التـي يمكـن أن تخطـر عـلى بالـك صباحـاً، حيـث إنهـا مـن الممكـن أن تبرمـج يومـك كلـه بالأحاسـيس السـلبية، وركـز انتباهـك عـلى الأشـياء الإيجابيـة، وابـدأ يومـك بنظـرة سـليمة تجـاه الأشـياء».

وللصـورة الفكريـة عـن ذواتنـا في داخـل كل واحـد منـا.. أثـر كبـير جـداً في الوصـول إلى النجـاح وتطويـر الـذات وتحقيـق الأمنيـات، فالشـخص الـذي لا يـرى أنـه مسـتحق؛ لأن يعيـش عيشـة جميلـة، لـن يُكلّـف نفسـه عنـاء الدراسـة مثـلاً والجـد والاجتهـاد، والحـرص عـلى الوصـول إلى الأهـداف التـي تجعلـه يعيـش بشـكل جميـل.

كان الملاكـم العالمـي الشـهير محمـد عـلي كلاي، يكـرر دائمـاً ويقـول: «أنـا أفضـل ملاكم في العـالم، وأنـا متوقـع تمامـاً أن أفـوز عـلى أي ملاكـم مهـما كانـت قوتـه، ومسـتعد أن أدعـم مـا أقـول بالفعـل». وهـذا يعنـي أن كلاي كان لديـه تقديـر مرتفـع لذاتـه، وأن صورتـه الفكريـة عـن ذاتـه كانـت إيجابيـة، ومـن ثـم فقـد ارتقـت بـه نحـو تحقيـق طموحـه.

ومـن الواضـح أن الصـورة الفكريـة الجميلـة عـن الحيـاة، تنعكـس عـلى سـلوك صاحبهـا، حيـث يعيـش مجتهـداً، وهـو ينعـم بالتفـاؤل والإيجابيـة، ومـما لاشـك فيـه أن المتفائليـن والإيجابيـين هـم كالمغناطيـس في جـذب النـاس مـن حولهـم؛ لأن معظـم النـاس يحبـون الفـرح ويتوقـون للتفـاؤل، ويسـعدون بمـن يبـث في نفوسـهم الإيجابيـة، والنـاس يهربـون بعيـداً عـن أي مصـدر يجلـب لهـم الهمـوم والكآبـة.

في النهايـة عزيـزي القـارئ.. وجـودك وحياتـك هـما انعـكاس لمـا في داخلـك مـن صـورة فكريـة عـن ذاتـك وعـن الحيـاة، ويسـبق كل هـذا التـوكل عـلى اللـه تعـالى، وطلـب العـون منـه.

أحبـب فيغـدو الكـوخ قصـراً نيّـراً
وأبغض فيمسي الكون سجناً مُظلماً

إيليا أبوماضي

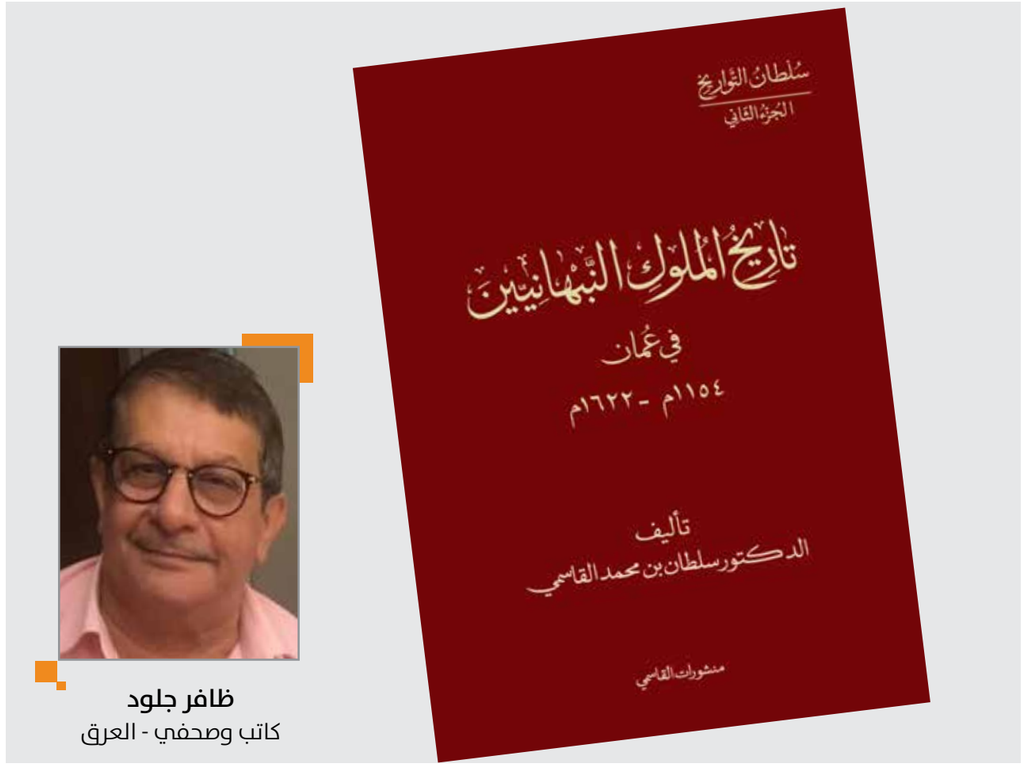

ظافر جلود
كاتب وصحفي - العرق

استكمالاً لموسوعة «سلطان التواريخ»

سلطان القاسمي: يصدر كتاب

«تاريخ ملوك النبهانيين في عُمان (1154-1622م)»

مُراود

استكمالاً لدورها في نشر مؤلفات صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، حفظه الله، صدر عن منشورات القاسمي أحدث الإصدارات التاريخية لصاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، وعنوانه: «تاريخ ملوك النبهانيين 1154-1622م»، وهو الإصدار الثاني والثمانون لسموه.

ينتظم كتاب «تاريخ ملوك النبهانيين» في عقد الموسوعة التي أطلق عليها صاحب السمو عنوان «سلطان التواريخ»، ويأتي الكتاب في الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

في هذا الكتاب يعرض صاحب السمو تاريخ سلطنة عُمان والمنطقة في فترة زمنية تقارب الخمسمئة عام، يسلط الضوء على ما جرى فيها من أحداث، وما دار فيها من وقائع، ويميط اللثام عن أدق التفاصيل، بأسلوب سردي مشوق، وعرض قصصي ممتع.

ويعد كتاب «تاريخ ملوك النبهانيين» سجلاً تاريخياً موثوقاً حافلاً بدقائق الأحداث وتفاصيل الوقائع التي دارت في الفترة (1154-1622م) في منطقة الخليج العربي، حيث اعتمد صاحب السمو في تسطير كتابه على حصيلته العلمية الراسخة في التاريخ والجغرافيا والآثار، واطلاعه الواسع على المخطوطات النفيسة، كما استقى صاحب السمو معلوماته من مقتنياته الشخصية من نفائس المخطوطات، واعتمد على ما لديه من كنوز الخرائط والوثائق.

ويشكل إضافة نوعية للتاريخ في منطقة الخليج العربي، ويقدم خدمة جليلة للباحثين والمختصين بدراسة تاريخ المنطقة، وفي هذا الكتاب تتجلى الحقيقة بأوضح صورها، ويظهر التاريخ كما يجب أن يكون، فقد استطاع سموه بعد التحقق والتوثيق العلمي الدقيق إزالة لبس ظل غير معروف لفترة طويلة من الزمن حول الملوك والسلاطين النبهانيين.

ويمتاز «تاريخ ملوك النبهانيين 1154-1622م» بما حواه من في الملحق الأول، من مشجر ونسب الملوك والسلاطين النبهانيين، ويعرض تفصيلاً دقيقاً محققاً لسَيْر المُلك في النبهانيين، وجاءت في الملحق الثاني العملة الذهبية التي تمّ اكتشافها من قبل هيئة الشارقة للآثار، في تنقيبات سور خورفكان، التي تعود لفترة حكم السلطان الأعظم سيف الدين نصرت، الذي حكم في الفترة بين عامي 1272 و1290م.

سيرة شخصية شعرية

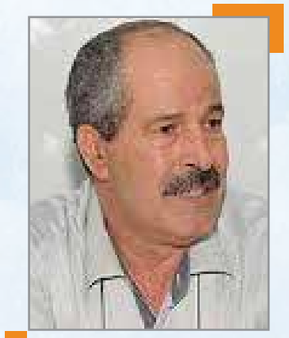

سعيد يقطين
كاتب - المغرب

تنبيه أول: السيرة والخبرة:

كل من يرد العمل في زماننا هذا، أو خوض تجربة حياة خاصة، لضمان عيشه، لابد له من بعث سيرته الشخصية (CV)، يعدد فيها مناقبه وتجاربه وخبراته؛ كي تخبر عمّا في جعبة صاحبها، ومدى توافر الشروط المطلوبة فيه لدى من يهمهم الأمر. قد تجدي السيرة أحياناً، وقد لا يلتفت إليه في أغلب الأحايين.

1. توسُّل التوسُّط:

سمع أبان بن عبدالحميد اللاحقي الشاعر عن كرم البرامكة، فخرج من البصرة طالباً الاتصال بهم، كما يخبرنا بذلك الصولي. كان يقف بباب الفضل بن يحيى البرمكي أربعة آلاف ما بين شاعر وزائر، كلهم يأمل لقاءه، ونيل عطائه. قصد اللاحقي باب الفضل مدة مديدة، ولم يصل إليه. فتوسل إلى بعض بني هاشم ممن له علاقة بالفضل، ليتدخل لديه ليسهل عليه الدخول إليه. فاختبره، وشهد له بالكفاءة والقدرة على الدخول عليه. طال الأمد، فذهب الشاعر إلى صاحبه قائلاً: «إن رأيت تأذن لي فأنصرف إلى أبوي فعلت». فكتب له رقعة، وطلب منه الانتظار حتى يعود إليه. ووقف اللاحقي بباب الفضل ينتظر المناداة عليه.

2. أمدح نفسي:

قال الراوي العتابي: «فبينا نحن كذلك، إذ جاء رجل يستأذن على الفضل، فقام إليه الفتى فقال: توصل رقعتي هذه إلى الأمير؟ قال: وما في رقعتك؟ قال: أمدح نفسي وأحثّ الأمير على قبولي. رفض الرجل إدخاله عليه، مدعياً أن حاجته دون الأمير! فعاد إلى مجلسه. فخرج الحاجب، فقام إليه، فقال له مثل مقالته الأولى. فاستظرفه الحاجب، وقال: إن رجلاً يتّصل بمثل الفضل يمدح نفسه لا يمدح الفضل عجيب! فأخذ منه الرقعة، ثم دخل فلوّحها للفضل. فقرأ منها سطرين وهو مستلق على فراشه. ثم استوى قاعداً، وتناول الرقعة فقرأها. فلما فرغ من الرقعة، قال للحاجب: أين صاحب الرقعة؟ قال: أعز الله الأمير، لا والله لا أعرفه لكثرة من بالباب. فقال الفضل أنا أنبذه لك الساعة، يا غلام! اصعد القصر فناد: أين مادح نفسه؟ فقام الغلام فصاح. فقام الفتى من بيننا بغير رداء ولا حذاء. فلما مثل بين يدي الفضل، قال له: أنت القائل ما فيها؟ قال نعم! قال أنشدني فأنشأ الفتى يقول:

أ. التعريف بالذات:

أنا من بغية الأمير وكنـ ... من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب بليغ ... ناصح زائد على النّصاح
شاعر مفلق أخف من الـ ... ـريشة مما يكون تحت الجناح

ب. ثقافته:

ثم أروي عن ابن هرمة للـ ... ـناس بشعر محبّر الإيضاح
ثم أروي من ابن سيرين للـ ... ـعلم بقول منوّر الإفصاح
ثم أروي من ابن سيرين المشعـ ... ـر وقول النسيب والأمداح
لي في النحو فطنة ونفاذ ... لي فيه قلادة بوشاح

ج. صفاته:

إن رمى بي الأمير أصلحه الله ... رماحاً صدمت حد الرماح
ما أنا واهن ولا مستكين ... لسوى أمر سيّدي ذي السّماح
لست بالضخم يا أمير ولا الفد ... م ولا بالمجدر الدّحداح
لحية سبطة ووجه جميل ... واتّقاد كشعلة المصباح
وظريف الحديث من كل لون ... وبصير بحاليات ملاح

د. خبراته:

كم وكم قد خبأت عندي حديثا ... هو عند الملوك كالتفاح
فبمثلي تخلو الملوك وتلهو ... وتناجي في المشكل الفدّاح
أيمن الناس طائراً يوم صيد ... في غدو خرجت أم في رواح
أبصر الناس بالجوارح والخيـ ... ـل وبالخرّد الحسان الملاح
كل هذا جمعت والحمد لله ... على أنني ظريف المزاح
لست بالنّاسك المشمّر ثو ... بيه ولا الماجن الخليع الوقاح
إن دعاني الأمير عاين مني ... شمّرياً كالجلجل الصياح

فقال له الفضل:

كاتب، حاسب، خطيب، أديب ... ناصح، زائد على النصاح؟

قال: نعم، أصلح الله الأمير.

تنبيه ثانٍ: السيرة بين الحقيقة والادعاء:

كان الحاجب الذي قبل الشخص المختلف نبيهاً وذكياً. وكان الفضل، وهو يقرأ الرقعة لبيباً وحكيماً. فكان القبول، ولابد من الاختبار لتمييز الحقيقة من الادعاء. وفي غياب النباهة والحكمة، يقبل الادعاء، وتستبعد الحقيقة.

3. الاختبار:

نادى الفضل على كتب وردت إليه، من فارس، فأتيِ بها. فقال للفتى: خذها فاقرأها، وأجب عنها. فجلس بين يدي الفضل يكتب. لكن الحاجب النبيه، والحريص على إنجاز الأمور على وجهها اللائق بها، وهي تتطلب تركيزاً، قال له: اعتزل يكن أذهن لك. فقال ههنا: الرأي أجمع بحيث الرغبة والرهبة. كان السؤال ذا لباقة، وكان الجواب وليد ثقة.

فلما فرغ من الكتب عرضها على الفضل. لم يقف الفضل عند حد الاستحسان، بل، كما يقول الراوي: فكأنمّا شق عن قلبه.

تنبيه ثالث: التقدير الكبير:

لا يقدر الكبير إلا من كان كبيراً. أما الحمار كما يقول المثل المغربي: فلا يفرق بين الحنة والزنجبيل. وكان سرور الفضل، عظيماً. وكان الفضل فاضلاً.

4. الجزاء، ومضاعفة المكافأة:

فقال الفضل: يا غلام بدرة، بدرة، بدرة. فقال الفتى للغلام: أعز الله الأمير دنانير أو دراهم؟ قال: دنانير يا غلام. فلما وضعت البدرة بين يديه، قال الفضل: احملها بارك الله لك فيها. قال الفتى: والله يا أيها الأمير ما أنا بحمال، وما للحمل خلقت؛ فإن رأى الأمير أن يأمر بعض غلمانه بحملها، على أن الغلام لي. فأشار الفضل إلى بعض الغلمان. فأشار الفتى إليه مكانك. وقال: إن رأى الأمير أيده الله أن يجعل الخيار إلي في الغلمان، كما فعل بين البدرتين فعل. فقال: اختر. فاختار أجلهم غلاماً. فقال: احمل. فلما صارت البدرة على منكب الغلام. بكى الفتى فاستفظع الفضل ذلك، وقال: ويلك! استقلالاً؟ قال: لا، والله أيدك الله، ولقد أكثرت، ولكن أسفاً أن الأرض تواري مثلك! قال الفضل: هذا أجود من الأول، يا غلام زده كسوة وحملاناً».

تنبيه أخير:

كان الفضل من الفضل بن يحيى، وكانت الجرأة من الشاعر على قدر مستواه. فكانا معاً صاحبي سيرة فاضلة تسير بفضلها الركبان.

أمثال النبات:

إبداعات ومعارف وخبرات

أ.د. مصطفى جاد

عميد المعهد العالي للفنون الشعبية بالقاهرة

احتفل المثل الشعبي العربي بمئات الأمثال التي استعانت بمفردات النبات للتعبير عن مضرب المثل وسياقه، بل حكاياته أيضاً. وسنجد في الأمثال عناصر مرتبطة بشخصية الفلاح، وأنواع الأشجار، وكثير من الأعشاب، وطرق الري، فضلاً عن مئات المفردات حول الفواكه والخضراوات، والحبوب، والبقول، وغيرها.. ما يعطينا مؤشراً صريحاً لارتباط الجماعة الشعبية بالأرض والزراعة ودورة حياة الثمار.. كما نجد ثلاثية: الأرض – الزراعة – الفلاح، حاضرة بقوة في حكمة المثل الشعبي. حيث تمجد الجماعة الشعبية مفهوم الأرض وقداستها بشكل مباشر، من خلال مجموعة من الأمثال التي تربط الأرض بمفهوم الشرف والعمل والبهجة:

اتعب على أرضك تتعب عليك
أزرع غيطي وأصرف على بيتي
اللي غيطه على باب داره يا هنياله

كما وظفت فكرة الزراعة في المثل الشعبي، لجلب الخير والبركة، أو الشر والشوك:

ازرع فدان جمايل وأربعة معروف بكره يكبر الزرع ومن خيره راح تشوف

ازرع ورد يطلع ورد وازرع شوك يطلع شوك
خد من الزرع عاليه وخد من النخل واطيه

كما يضع المثل الشعبي الفلاح المرتبط بالأرض في مكانته التي تليق به وسط البناء الطبقي للمجتمع:

إن كان ليك ريش وبقى لك جناح فقيمتك وشيمتك من عرق الفلاح
لولا الفلاح ما كان أبو بدلة وطربوش مرتاح

ويعكس المثل الشعبي الكثير من المعارف الشعبية لدى الجماعات حول النبات، لنكتشف أن حكمة المثل وحكمة النبات متلازمتان في إبداع متصل، واكتشاف لخبرات شعبية توارثتها الجماعات، فتجعلنا نبحث عن أصول بعض النباتات، كما نبحث عن أسباب المثل الشعبي نفسه:

بالوعد أسقيك يا كمون

ربما نتوقف عند سبب اختيار الكمون في هذا السياق لنكتشف أنه من النباتات الذي لا تحتاج إلى سقي الماء كثيراً، حيث يتركه الفلاحون عند ري محاصيلهم.

شجرة العرعر تطرح مسك وعنبر

والعرعر من النباتات الطبية والمرتبطة باحتفاليات شعبية قديمة في مصر خاصة (عرعر أيوب). وعندما يصف المثل الشعبي الشخص الذي يقع في أزمة كالغريق الذي يتعلق بأي شيء طلباً للنجاة، يأتي المثل الشعبي:

زي الغريق بيتلصم على ديسة

والديسة هي من الأعشاب المائية المعروفة لدى الفلاح، ويصنع من الحُصْر.

ما يعجبه البشنيش ولا اللي زرعه

والبشنيش نبات ينبت في الماء الراكد. وسنجد الكثير من الفواكه والخضراوات المدرجة في الأمثال الشعبية، كالموز والمانجو والقرع والبلح والخوخ والبامية والملوخية والبصل.. وكأن لكل منها شخصية معبرة عن ذاتها:

البلح حلو بس النخل عالي.
زي شجرة الموز العمر يا دوب ساعتين.. وهايشه لفوق شبرين
لو شجر المانجه طرح جريد عمر العدو ما يبقى حبيب
شجرة البامية ما يصح منها أوتاد
اللي ما يرضاش بالخوخ يرضى بشرابه
مسيريك يا ملوخية تيجي تحت المخرطة
يا داخل بين البصلة وقشرتها ما ينوبك إلا صنتها
فولة واتقسمت نصين
زي القرع يمد لبرة

كما نجد مساحات الأرض الزراعية المعروفة تملك أيضاً نصيب من التوظيف داخل المثل الشعبي، لنجدنا نعيد رؤية الفدان والقيراط والسهم في سياقات أخرى لها مدلولاتها الشعبية المرتبطة بالحكمة والموعظة:

إبرة في البيت ولا فدان في الغيط.
أبو قردان زرع فدان نصه ملوخية ونصه بتنجان
إلبسي قيراط دهب تزيدي فدان جمال
قيراط حظ ولا فدان شطارة

وفي إطار العادات والتقاليد، يلخص المثل رؤية الجماعة الشعبية لمكانة البنت في الأسرة، فيختار هذه الصورة الرائعة لتلخيص رؤيته:

بيت بلا بنات زي الأرض بلا نبات

كما سجل المثل الشعبي ارتباط بعض الاحتفالات الشعبية بأنواع معينة من المحاصيل التي تؤكل في أعياد بعينها، كعيد الغطاس لدى أقباط مصر:

الغطاس عيد القلقاس واللي ما ياكلش قلقاس يوم الغطاس يصبح جته من غير راس

وأكل القلقاس ارتبط بصيام الأقباط استعداداً للاحتفال بعيد الغطاس 19 يناير، الموافق 10 طوبة، وفقاً للتقويم القبطي. ويُعد القلقاس من أقدم النباتات الاستوائية المعمرة، والمعروف بأوراقه الخضراء، ويعد الغذاء الرئيس في كثير من الثقافات الإفريقية والآسيوية.

ونختم هنا بالإشارة إلى المأثورات القولية التي وصف بها المصريون شهور العام القبطية، وارتباطها بمواسم الزراعة، لنكتشف أننا أمام عبقرية في الإبداع، وعبقرية في المعرفة التقليدية بمواسم الزراعة والري والحصاد وحالة الطقس، تعالوا نتأمل تلك الإيقاعات:

- توت: إروي ولا تفوت
- بابة: خُش واقفل الدرابة
- هاتور: أبو الدهب منتور (كناية عن زراعة القمح)
- كياك: صباحك مساك، قوم من نومك حضر عشاك
- طوبة: يخلي العجوزة كركوبة
- أمشير: أبو الزعابير الكتير ياخد العجوزة ويطير
- برمهات: روح الغيط وهات"
- برمودة: دُق العامودة" (أي دُق سنابل القمح بعد نضجها)
- بشنس: يكنس الغيط كنس
- بؤونة: نقل وتخزين المؤونة
- بيب: فيه العنب يطيب
- مسرى: تجرى فيه كل ترعة عِسرة.

كتاب: «في التراث والحداثة.. مقاربات متقاطعة»

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

يرتكز الكتاب الذي بين أيدينا على فكرة الحوارات بين المبدعين، حيث خاض مؤلفه الدكتور أنس الفيلالي، تلك الحوارات مع مفكرين من مختلف الثقافات، وجاء ليقدم لنا سبعة عشر حواراً، تدور في فلك التراث، من خلال استنطاق مجموعة من العلوم الاجتماعية والإنسانية، فيثري بذلك المكتبة العربية، بتنوع واختلاف محتواه، وبإصدار حديث في 2023م، عن معهد الشارقة للتراث.

يشير الكاتب إلى أن علوم الأركيولوجيا والأنثربولوجيا والتاريخ من أكثر العلوم ارتباطاً بالتراث، وأن الأخير هو أكثرها تماساً معه، ويقصد هنا تاريخ الفكر والأدب والفنون، وأن مسألة التراث مسألة معقدة ومتشابكة، وتحتاج إلى مساءلة بنيوية لمختلف مظاهره وتعبيراته الفكرية والفنية والأدبية، وإن إبراز مكان للالتقاء بينه والحداثة في مختلف المظاهر يبقى مسألة حيوية.

وبذلك يحاول الكاتب من خلال حواراته المطروحة في كتابه هذا تقريب القارئ من مسألة التراث والحداثة، بطرح أفكار مجموعة من المبدعين والمفكرين والباحثين. وفي أولى مقابلات الكتاب، يتناول الكاتب «خبايا اكتشاف أقدم جمجمة إنسان عاقل على وجه الأرض» مع الأركيولوجي المغربي عبدالواحد بنصر، حيث اكتشاف جمجمة وفك وعظام جديدة في منطقة جبل إيغود،

2007م، التي تتميز بالغنى كمرجع يخص التوثيق، وفي 2009-2011م، تم الحصول على نتائج تاريخية للقى، التي تعود إلى ثلاثمئة ألف سنة مضت، وأهمية هذه اللقى أنها تحيلنا إلى الإنسان الحديث، بعد دراستها جيداً، كان ذلك الإنسان يستخدم الأدوات الحجرية، وهو ما يحيل إلى تجليات ظهور إنسان جديد لفصيل إنسان عاقل.

وفي حوار مع الباحث الأمريكي صفوان خطيب، الذي يتناول تأثير التراث العربي في التراث الهندي، بفضل العلاقات التجارية والدينية منذ القدم، يشير إلى أن التبادل الثقافي بين العرب والهنود لم يبدأ بنقاشات علمية تتعلق بمجالات الفلك والطب والفلسفة، إنما بالتبادل الثقافي بعجائب الحياة المادية؛ أي الرحلات التجارية التي قام بها العرب في الجاهلية وامتداد الإسلام إلى جنوب الهند، خصوصاً إلى كيرالا عن طريق التجارة، ويوضح أن فتح السند في العصر الأموي، وانتشار الإسلام حتى شمال الهند الغربي، لم يكن الوسيلة الأصلية فيما يخص انتشار الثقافة العربية هناك، بل سبقتها، ولعل التقسيم الطبقي الاجتماعي على يد البراهمة رسخ فكرة «الهند الهندوسي»، وأن تأثير التراث العربي في التراث الهندي يتجلى حديثاً، من خلال العديد من المراكز والجامعات المعنية بدراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية في الهند.

وفي حوار الأنثروبولوجي الفنلندي صامولي شيلكه، يقول: يلاحظ أن التراث الإسلامي أعلى من شأن رمزية المقدسات الإسلامية، لكنه لم يستطع الحد من ممارسات بعض المسلمين التي تضرب في عمقه. في حين يشير المؤرخ والمفكر المصري محمود إسماعيل، في حديثه عن التراث وفكر النهضة، أن كثيرين لم يفطنوا إلى الفرق بين الغث والسمين في التراث العربي الإسلامي، والغث منه هو ما أنتجه مفكرو وفقهاء ومؤرخو السلطة، لدعمها بالحق أو الباطل، بينما السمين هو الذي أنجزه فقهاء وعلماء قوى المعارضة الذين عولوا على العقل والتجريب والثورة من أجل تغيير الواقع المهترئ إلى الأفضل.

ويقول المفكر المغربي محمد المصباحي، في حواره، إن التراث يشكل الأساس القوي والأرضية الخفية لكيان الأمة وهويتها وثقافتها، في مقابل تراث وثقافات الأمم الأخرى، وكلما كان التراث منفتحاً على تراثات غيره، كان قوياً وقادراً على الفعل والتجاوز، فالتراث لا يمكنه أن ينمو ويتطور من دون تلقيح وتطعيم من لدن تراث الأمم الأخرى. في حين يلخص المفكر السوري برهان غليون، نظرته للتراث بقوله: «لا أنظر إلى التراث كواقع منفصل عنا، وإنما كعناصر متشربة في وعينا وثقافتنا وفكرنا الجماعي القائم».

ويقول الروائي والأكاديمي الجزائري واسيني الأعرج، إن العالم الحكائي والقصصي في أمريكا اللاتينية متفوق في غناه؛ لأنه حافظ على الميراث الثقافي والحياتي والاجتماعي والحضاري الهندي الأصلي، واعتبروه جزءاً منهم، ولذلك لا نستغرب أن يغير هؤلاء العظماء غابرييل غارسيا ماركيز، يوصا، أستورياس، وجه أمريكا اللاتينية الروائية، وصنعوا منها نموذجاً فرض نفسه حتى في جوائز نوبل.

تراث غني

يقول المفكر اللبناني معن بشور: «لا تستطيع أمة أن تعيش وتتقدم دون الاهتمام بتراثها، بل الاعتزاز به». ويشير الدكتور محمد سعيد المرتجي، أستاذ تاريخ الفن والعمارة الإسلامية وعلم التحافة، قائلاً: «رغم اختلاف الأقطار الإسلامية وابتعادها، فإننا نلاحظ قرابة لا تنقطع بين الشرق والغرب، دون نكران وجود خصوصيات محلية تعطي لهذا التراث الفني غنى وتنوعاً». ويقول الباحث والمترجم الإيراني موسى بيدج: «التراث الإسلامي في البلاد العربية تأثر بالمناخ والسلوك الاجتماعي واللغة، وكل ما له شأن في تلك الجغرافيا. ويرى الروائي والناقد الأدبي المغربي شعيب حليفي، أن العودة إلى التراث الثقافي ليست دائماً هي الحل السحري، ولكنها حجر في بناء متنوع بوعي مركب، ينهل من كل التجارب والثقافات. المؤرخ المغربي عثمان المنصوري: «العودة إلى التراث لها دوافعها ومبرراتها، فالحضارة مبنية على الاستفادة من تجارب الماضي وتطويرها».

تراث غير مادي

ولا يمكن الخوض في التراث دون التلذذ بالتراث غير المادي، الشعري والموسيقي، فتقول السوبرانو المغربية سميرة القادري: «قدمت التراث بتوزيع وطريقة أوركسترالية انتقلت من الاشتغال على التراث إلى التجديد، عبر تطويع نصوص عربية في لباس أوركسترالي». ويشير الباحث الموسيقي المغربي أمين الشعشوع، إلى أن التراث الأندلسي شهادة حية على عظمة الحضارة الإسلامية يوم بلغت أوجها، وفي عروبتها استطاعت أن تستوعب المكونات الثقافية غير العربية، وتجعلها إسلامية.

ويقول الشاعر المغربي عبدالكريم الطبال: «لكي نقرأ الشعر الحديث، علينا أن نقرأ الشعر القديم برؤية وعمق؛ لأنهما معاً روح واحدة». وينوه الفنان العراقي فرات قدوري، إلى تقديمه المقام العراقي بشكله التراثي، وهو ما دمجه في كل مشاريعه وأعماله الموسيقية. وهو حال الفنان والموسيقار الفلسطيني تيسير حداد، الذي يقول: «التراث الموسيقي العربي لا يفارق إنتاجي ومؤلفاتي الموسيقية».

خالد عمر بن ققة
إعلامي - الجزائر

«الدر المنثور في طبقات ربّات الخدور»..

مرجع تراثي للمرأة العربية في نهاية القرن الـ19

تشدّنا كتب التراث إليها، وتقتحمُ حياتنا المعاصرة، فُنسائِلُها وُتَساِئلنا، وأحياناً تشكّل لدينا مرجعيَّة للأفكار والأطروحات والدراسات، وفي كل ذلك تأسيس للمعرفة عبر المطالعة، إذا ما تفادينا الاستغراق في قضاياها، أو اتِّخاذ موقف الخصومة أو العداوة منها، وبحثنا عن سبل استحضار ما جاء فيها، بما تمثله من امتداد زمني وتراكم ثقافي، وتفاعل بشري، من خلال قراءة واعية، تمكننا من توسيع مجالات المعرفة ومتعتها بما تحمله من اتفاق أو اختلاف مع قضايانا المعاصرة، على النحو الذي نقّدمه هنا في قراءة كتاب «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور».

حضور المرأة العربية في التراث لجهة صناعته والمشاركة فيه على مستوى الكتابة يتخطى الاعتراف العابر إلى التفاعل مع قضايا الحياة المختلفة في زمانها وعصرها، ما قد يُسوغ لنا القول بناء على قراءات متراكمة: إن المرأة العربية كانت ـ ولاتزال وستبقى ـ شريكاً فاعلاً في الإنتاج المعرفي، الأمر الذي يقصي وينفي أي حكم جائر يتعلق بالتقليل من مهمتها ورسالتها.

وخارج دوائر الخطاب المكرس لتبيان دور الرجل في التراث، سواء المكتوب منه أو الشفوي، في ظل هيمنة ذكورية غير مبررة، فهم فيها دوره خطأ، فإن الشراكة والتعاون بين المرأة والرجل تارة، والاختلاف بينهما، وحتى الصراع والصدام بينهما، في حالات بعينها تارة أخرى، لم تكن معنية في الماضي بأي منهما أولى بإنتاج التراث أو السيطرة عليه يومَ أن كان منتجاً يومياً مصاحباً لأهل عصره، وربما لهذا السبب، لم يتم الفصل أو التصنيف، لجهة القول: هذا منتج فكري رجالي أو ذكوري، وذاك منتج نسوي أو أنثوي.

لقد كان الحديث عن إسهامات المرأة في التراث ـ قولاً وفعلاً، تفاعلاً وانفعالاً ــ من حيث الندرة، ثم تحوله إلى ظاهرة، مع ما تبعه من زيادة أو نقصان، يتحرك في فضاءات شاملة، لم يتم الحديث فيها عن التصنيف، وفي مراحل التخلف التي عاشتها أمتنا وعانتها، تم إبعاد المرأة، حتى إذا ما بدأ العالم يدخل الحداثة والعصرنة، ويتشكّل من جديد، على خلفية النهضة الغربية خاصة في أوروبا، وأثر في مسار حياتنا، وكشف تخلفنا، وجدنا أنفسنا تحت تأثير الصدمة ساعِين إلى المعرفة عنده من جهة، ومن جهة أخرى إلى تقليده واتّباع خطاه في مختلف المجالات، بما تلك المتعلقة بالعلاقة بين الرجل والمرأة على مستوى المعرفة.

وكان على المرأة العربية في تلك المرحلة من التاريخ البشري، أن تُسْهم على مستوى الكاتبة، بعد اطّلاعها على إسهامات المرأة الغربية، خاصَّة في مجال الحريات والحقوق، في إثراء الحياة الثقافية العربية، كشفت عنها المقالات الصحفية التي عبرت ــ من خلالها المرأة الكاتبة ــ في ذلك الوقت على كثير من قضاياها، وعلى خلفية بعض من تلك المقالات أوَّلاً، وعودة إلى منجز شعري ونثري وفني تراكم لقرون أبدعت فيه المرأة العربية ثانياً، على النحو الذي وجدناه في كتاب «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور».

• بنت سورية ومصر

الكتاب من تأليف الأديبة «زينب بنت يوسف فواز العاملي» (توفيت 1332 هـ/1914م)، وتذكر بعض المراجع أنها «أديبة وشاعرة ومؤرخة لبنانية»، لكنها في حقيقة الأمر عرّفت عن نفسها في كتابها بالآتي: «.. أقول أنا المغتفرة إلى الله وبه أستعين، زينب بنت علي فواز بن حسين بن عبيد الله بن حسن بن إبراهيم بن محمد بن يوسف فواز، السورية مولداً وموطناً، المصرية منشأً وسكناً»(ص 5)، كما بيَّنت جَمْعها بين مولدها وموطنها سورية، ومنشأها وسكنها في مصر في الصفحة الأولى من الكتاب.

ومن خلال مُؤلفها الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ـ الصادر عام 1309هـ/1891م، اعتبرت إحدى رائدات الفكري النسوي في الوطن العربي، وشغلت الحياة الثقافية والأدبية في مصر خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهناك

من يعتبرها سابقة في كتاباتها للأديب المصري محمد حسين هيكل، وعلى صعيد الدعوة لتحرير المرأة منافسة للكاتب قاسم أمين في دعوته لذلك.

من ناحية أخرى، يُعدُّ هذا الكتاب من الدراسات النسوية الرائدة التي تُقارب التاريخ من منظور نسوي عربي دون تشجن أو حمية للأنثى، لكن أيضاً مع انتصار واضح للمرأة، لأجل إثبات دورها وقيمتها ورسالتها، ومنجزها الفكري، وعن ذلك تقول: «.. لم أر في ذلك من تطرّق وأفرد لنصف العالم الإنساني باباً باللغة العربية، جمع فيه من اشتهرت بالفضائل وتنزّهن عن الرذائل، مع أنهن نبغ منهن حملة سيدات لهن من المؤلفات التي حاكين بها أعظم العظماء، وعارضن فحول الشعراء، فلحقتني الحميَّة والغيرة النوعيَّة على تأليف سفر بسفر عن محيا فضائل ذوات ا لفضا ئل من الآنسات والعقائل، وجمع شتات تراجمهن بقدر ما يصل إليه الإمكان، وإيراد أخبارهن من كل زمان ومكان..» (6).

قد ينتهي القارئ المعاصر بعد آخر كلمة في الفقرة السابقة إلى السؤال الآتي: كيف ستتمكن المؤلفة زينب فواز من تحقيق مبتغاها، ومسألة جمع المعلومات في غاية الصعوبة في زمانها؟ لكن حين يطالع ما جاء في كتابها يجدها قد جمعت تراجم النساء المذكورات في الكاتب من أهم المراجع والكتب التاريخية (تجاوز 42 مرجعاً، معظمها يحتوي أجزاء عدة).

• هدية للنساء

وبجانب ذلك، فقد قرأت مقالات بنات عصرها العربيات منهن، والغربيات، وقد قامت بذلك عبر وعي معرفي ومنهجي، وعن ذلك قالت: «.. ولمّا كانت هذه الطريقة ـ تقصد جمع المعلومات حول كتابات بنات جنسها ـ صعبة المسالك، تعْسُر على كل سالك، خصوصاً على من كانت مثلي ذات حجاب ومنتقبة من المنعة بنقاب، فقد استعنت على التأليف بما جاء في التواريخ العمومية والمجلات العلمية، ووضعته على الحروف الهجائية، حتى ظهر غريباً في بابه، فسيحاً في رحابه، وقد سميته الدر المنثور في طبقات ربات الخدور..»(ص 6).

وقد حققت الكاتبة ذلك، حيث بدت ترجمتها لسير عدد كبير من الشخصيات النسوية العربية والأعجمية منذ قرون إلى غاية عصرها، وقد رتبت ترجمتهن ترتيباً ألفبائياً حسب حروف الهجاء، وأسبقت ذلك بمقالات لكاتبات من بنات جيلها، مما أسْهمن في التوعية، كما استعانت بما جمعَتْه من المجلات العلمية والجرائد الدورية، وما التقطته من مقالات لبنات عصرها، اللاتي ـ كما ذكرت ـ «تربين أحسن التربية، وتعلمن العلم في المدارس العالية، وصار لهن شهرة في هذا العالم الإنساني..»(ص 7).

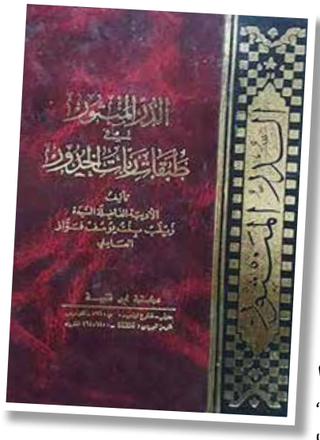

وقد كان هدفها من ذلك، تحقيق أمرين: الأمر الأول: إعلام قرّاء الكتاب أن عصرها نبغت فيه نساء لم يتقدمهن أحد في الأعصر الخالية. والأمر الثاني: خدمة بنات نوعها، وقد ذلك واضحاً في قولها:

كتابي تبدّى جنّة في قصورها
تروّح بروح الفكر حور التراجم
خدمت به جنسي اللطيف وإنه
لأكرم ما يهدى لغرّ الكرائم

ومع أن زينب فواز وضّحت هدفها من كاتبها هذا، إلا أنها من ناحية أخرى، اعتقدت في تحقيقه لمنفعة عامة للنساء العربيات، بل إنها بطرحها لبعض المقالات التي دبجتها بعض الأقلام النسوية ـ على الرغم مما فيها من خصوصية ـ سعَت بوعي إلى تطوير المجتمع من خلال تلك الكتابات، غير أنها لم تهتم به حين تعلق الأمر بترجمات النساء العربية عبر التاريخ، فربات الخدور ظهرن حسب طبقتهن في التراث العربي، حيث التمييز الواضح بين الحرائر والإماء، بل داخل مجالات التعبير المختلفة، خاصة في ليالي السمر والسهر، وحفلات الغناء، وما تبع ذلك كله من وصف على مستوى القول والفعل، وأيضاً ما عبرت عنه الأجسام لغة وجمالاً وشهوة ومتعة.

• وعي مبكّر

وإذا كانت الكتابة عن المرأة أو لأجلها، أو حتى كانت صادرة منها ـ ابتكاراً أو تقليداً، وما يصحبهما من نقل وعقل في الماضي، قد حوتها كتب التاريخ، وأيضاً مراجع التراث، مثلما كشف عنها التراث الشفوي العربي بما احتواه من تنوع واختلاف، وهو ما روته زينب فواز في كتابها هذا، فإنها عند إعدادها هذا الأخير، عملت لأجل أن يكون للمرأة الكاتبة حضور، على النحو الذي تحدثنا عنه سابقاً، وهذا يعني أنها لم يستغرقها الماضي التراثي للمرأة العربية، مع أنه مثل الجزء الأكبر من كتابها.

وفي وعي زينب فواز دور المرأة، وإسهامها في صنع الثَّقافة أوّلاً، والشراكة مع الرجل في تطوير المجتمع ثانياً، يتبدَّى بشكل جلي موقع المرأة العربية في بداية القرن الماضي، في حركة التاريخ ومساراته المختلفة، بمد جسور بين المعاصرة والأصالة، دون أن يخلّ التطور بمنظومة القيم.

كل ذلك، قد يفهم من محتوى الكتاب، خاصة إذا نظرنا إليه ـ في قيمته المعرفة والتاريخية ـ من زاوية الفعل النسوي كتابة، وضمن السياق لبداية عنصر النهضة العربية، وعلاقة العرب مع الغرب ـ الأوروبي تحديداً ـ صدمة ودهشة وتعجباً ثم تقليداً ومحاولة نهوض، كما في بعض الأقطار العربية ـ المشرقية بوجه خاص ـ من جهة، أو رفضها له باعتبارها استعماراً مكرَّساً للتخلف، كما هو في أقطار أخرى، خاصة المغاربيَّة من جهة أخرى.

لقد سجلت لنا الكاتبة زينب فواز العاملي ـ الموصوفة بالأديبة الفاضلة، كما جاء في غلاف مؤلفها ـ خطاب التواصل في الكاتبة لجهة التعريف بالنسبة للمرأة، ذلك أن كل اللاتي اختارت مقالاتها، أرفقت أسماءهن بتعريفات تخص ذلك العصر، من ذلك على سبيل المثال: «حضرة الآنسة الأديبة السيدة سارة نوفل كريمة الفاضل نسيم أفندي نوفل، حضرة الأديبة الفاضلة العقيلة هنا كوراني، حضرة الكاتبة مريم خالد، حضرة الكاتبة الأديبة الآنسة استيرازهري..»

• الوجود والدور.. والإسهام

ومع أنها لم تأتِ على ذكر كاتبات كثيرات، إما لقلتهن في ذلك العصر، أو لأنها اختارت نماذج بعينها خدمة لهدف الكتاب، إلا أننا كشفت لنا، كما هو وارد في مقالات الكاتبات نمط التفكير النسوي الذي كان بعيداً عن إحداث خصومة مع التاريخ أو صراع مع الرجل، وبدا واضحاً أن الكاتبات في ذلك الوقت كنّ جزءاً من حركة مجتمعيَّة، وسعين للتطور والتقدم بعيداً عن الصدام بين السلطة الرجالية، والتحرر النسوي المطلوب.

يمكن لنا أن نستشف ذلك من موضوعات المقالات النسوية المنشورة ــ لم تذكر المصدر ـ والتي أعادت المؤلفة نشرها في كتابها، حيث تركزت على اللغة العربية، والأسرة وتربية الأبناء، وأهمية التوافق بين الأزواج، والحض على الاعتناء بأمور المرأة من تعليم، وتثقيف وتدبير، إضافة إلى الحديث عن أهمية العلاقات الإنسانية، وقد حملت المقالات المختارة العناوين الآتية: «اقتراحات على علماء اللغة العربية، واجب الزوجة نحو الرجل، وجوب تعليم البنات ردّاً على معترض هذا المقصد، الإحسان الكتابي، الروايات، الصحة أفضل من المودة».

لاشك في أن الباحثين والكُتّاب، خاصة المنشغلين بالتراث، على علم ـ كثيراً أو قليلاً ـ بدور المرأة في التاريخ العربي، بما فيه من إبداع ورفض وظلم وقهر وتضحيات، وأيضاً إسهامها في الحضارة والثقافة، لكن قد تكون الغالبية منهن على عدم دراية بدورها في الميراث القريب، وتحديداً منذ بداية القرن العشرين؛ لذلك فإن إبداع زينب فواز في هذا الكتاب، تجسد في ثلاثة أبعاد، الأول: يخص نوع الكاتبة النسوية في عصرها، والثاني: الكاتبات العربية من حيث الوجود والدور، والثالث: ترجمة حياة نساء خارج المحيط العربي، وتاريخه، وأيضاً تعقب إسهامات المرأة عبر قرون.

في كل ذلك تكمن أهمية الكتاب، مثلما يُرينا اجتهاد الكاتبة واعتمادها على أمهات المراجع والكتب، في عصر لم تكن فيه وسائل البحث والاطلاع والاتصال متوافرة، كما هي في عصرنا، لذلك يعتبر مرجعاً مهماً، ليس فقط في جانبه المعرفي والموسوعي، ولكن لجهة اهتمام المؤلفة بدورها الرسالي، حيث السعي للتمدن والمعرفة أقوى من الجهل والتخلف والمعوقات، وحيث الانتماء الحضاري للأمة يوسع ضيق الأنفس والأمكنة.

عبدالله خلفان الهامور
كاتب وباحث تراثي - الإمارات

قصتي مع ولدي حمد عندما كان صغيراً.. والعبرة من هذه القصة:

«يسوّوها الصغار ويطيحوا فيها الكبار»

من المقولات التي أنتجها الفكر الأدبي لآبائنا وأجدادنا، ومن إنتاج العقول الحكيمة التي مازلنا نتعلم منها إلى يومنا هذا، رغم غياب أصحابها، ظلت خالدة في الأذهان، نتذكرها كلما حدثت حادثة نرجع إلى العمل بمقتضاها، فقد يكون الصلاح في العمل بما جاء في فحواها، وهذه المقولة هي في الحقيقة تنبيه وتحذير لنا، تقول: هذه المقولة أو الحكمة (يسوّوها الصغار ويطيحوا فيها الكبار)؛ أي أن معظم المشكلات التي تحدث بين الناس والعوائل سببها الأولاد صغار السن، يحصل بينهم خلاف، فيتطور حتى تكون هناك إصابات بينهم، وقد يكونون غير مدركين فعلهم، وهذا هو الظن الغالب على تصرفاتهم، فيكبر هذا الخلاف بين العائلتين، وكل منهما تسمع لولدها، ولم يُحكّموا العقل، ولم يستوعبوا المشكلة، حتى كبرت وأصبحت في مراكز الشرطة، ومن ثم في المحاكم، وفي المقابل، أو الطرف الآخر، وهم الأولاد، قد رجعوا لبعضهم وتراهم في لهوهم ولعبهم، وكأن شيئاً لم يكن، فهي بالنسبة لهم أحداث يومية تحدث بينهم، ليست بتلك المشكلة التي تتحول لقضية، وتحتاج إلى محكمة، وقد يكون معنى (الصغار) هنا كذلك هم صغار العقول، فقد يكون رجلاً كبيراً في السن، لكنه خفيف العقل، وقليل الفهم، فالصغار هنا لا تأتي لصغير السن فقط، فقد تكون لصغير العقل كذلك، المقولة إذن لها معنى قريب، وهم صغار السن من الأولاد، وكذلك معنى بعيد، وهم صغار العقول من البشر، فالحكمة هنا تدعونا إلى عدم التسرّع في مثل هذه الأمور، بل التريث والصبر عليها؛ لأن من ارتكب هذا الأمر قد لا يدرك أبعاد ما فعل، فلا نكون نحن من يضخم الأمر، فإن هذا التصرف والاستعجال فيه قد يكون من الحماقة بالنسبة لنا، وعندها سوف تنطبق علينا هذه المقولة (يسووها الصغار ويطيحوا فيها الكبار)، وكأن هذا الأمر الذي حصل هو بمثابة مصيدة للكبار، فالحذر كل الحذر من الوقوع في هذا الفخ.

- قصتي مع حمد:

قد مرّ على هذه القصه أكثر من عشرين سنة، وقد تجاوز فيها سن حمد العشر سنوات في ذلك الوقت، وإذا باتصال من أحد الأخوة ومن دون مقدمات بدأ بالشكوى على حمد بأنه تشاجر مع ابنه، وقد أصابه في وجهه ويده، وأن حمد أكبر من سن ولده، وأخذ في الكلام وفي الوقت نفسه يعاتبني على تربية حمد، وأن فيه شقاوة غالبة على تعامله مع أقرانه، وفي المقابل، كنت أنصت لكلامه وعباراته، وأستجمع صبري، وأتمالك نفسي، وحاولت أن أكون أبرد من الثلج أثناء استماعي له، لقد أدركت أن أي كلمة تخرج من فمي مقاطعة لكلامه سوف تكون كطلقة مدفعية تصيبني قبل أن تصيبه، صبرت عليه حتى انتهى من كلامه، وفي أثناء هذا الكلام كنت أبحث عن حل أو تصرف يرضي هذا الأخ، انتهى من طرح المشكلة، وحان دوري في الرد، وفي هذه الأثناء دخل حمد عليّ في البيت، وكنت آنذاك أكلمه وأنا في الساحة الخارجية لبيتي، فقلت لهذا الأخ عبارة واحدة، هي (ما يصير خاطرك إلا طيب، وحمد بيوصلك الحين البيت)، لقد أيقنت أن هذا الأمر لن ينفع فيه الكلام بقدر ما ينفع الفعل، أغلقت الهاتف وحمد واقف أمامي، وكأنه عَلِمَ بأن المتصل هو والد الصبي، فأراد أن يبرر ما حصل، وأن الولد هو الذي بدأ بالشجار، وأنه هو سبب المشكلة، لم أعطِ المسألة أكبر من حجمها؛ لأنه وفي قرارة نفسي أن هذا الأمر ليس بالأمر الذي يستدعي دخول الآباء بهذه القوة التي دخل علينا بها صاحبنا، وأن هذه أمور تحدث بين الأولاد في هذه المرحله العمرية، ونحن كآباء مررنا بها، فقلت لحمد: «خذ هذه الخيزران (عصا)، واذهب إلى والد الصبي، وقل له: الوالد يسلّم عليك ويقول لك: هذه الخيزران، وخذ حقك»، وصل حمد للرجل وأخبره بما قلته له، وأعطاه العصا، فما كان من هذا الأخ إلا الاتصال بيّ، وكان في هذه المره مختلفاً عن المرة السابقة، ومثلما يقال مائة وثمانين درجة، اتصل يعتذر، ويقول: «يا أبو حمد، لا تصل الأمور لهذه الدرجة، وأنا لم أكن أقصد هذا الشي، وأرجو منك المعذرة، فقلت له: هؤلاء الأولاد أولادنا، ولابد أن نتعاون في تربيتهم، وفي الوقت نفسه هؤلاء شباب صغار، بتحصل بينهم الضرابة اليوم، وباكر بيرجعوا يلعبوا مع بعض، ولكن لو تضاربنا أنا وأنت، واختلفنا في هذا العمر، فمتى سوف نرجع لبعض».

انتهت القصة، وكانت نتائجها أفضل مما كنا نتوقع، حيث رجعت المياه إلى مجاريها بين حمد وصاحبه في اليوم الثاني، وعاد اللعب بينهما، وزاد الاحترام والتقدير بيني وبين صاحبنا والد الصبي، وإلى يومنا هذا لم تأتِ أي مشكلة أو موقف يستدعي العتاب بيننا ولله الحمد، لذلك نصيحتي للآباء والأمات ألّا يستعجلوا في اتخاذ أي قرار في مثل هذه الحالات، فإن مثل هذه المشكلات الدائرة بين الأولاد في مثل هذه السن، سرعان ما تنتهي بينهم بأقل الخسائر.

لو لم أتخذ هذا الإجراء لحل هذه المشكلة، فما الذي سوف يحصل عندها؟

الفضل لله من قبل ومن بعد،،،،،،

يسوي: يفعل

حصوات الحوش الصغيرة وقواقع البحر الكبير

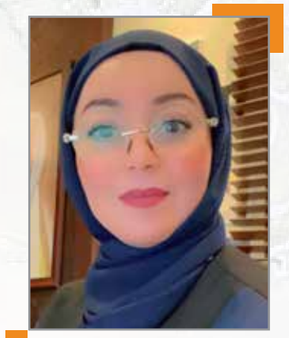

عائشة مصبح العاجل
كاتبة وإعلامية - الإمارات

وقت الفراغ في الماضي كان لهواً واتصالاً بمخيال متسق مع العوالم المحيطة بنا، لم يكن توحد وانعزال كما هو اليوم، بل كنا نجمع قواقع البحر الصغيرة وحصواته المستديرة، نجمعها وكأنها الدر الملقى في الفلوات وقت الظهيرة، ضحكات تعلو الأشداق وعيون تمتلئ مُقلها بالضوء، فتتسع الأحداق بحثاً عن حصوات مستديرة صغيرة للعلب فيها وقت العصر على الفرش في الحوش أو قبالة باب الدار.

«الصقلة» من الألعاب الشعبية التي كانت تتجمع حولها الفتيات في الحوش وقت الفراغ، وتدور حولها الحكايات والقصص، ويتسامرن ويضحكن وهن يرمين الحصوات بخفة بين أصابعهن، ويلتقطن ما سقط منها بخفة، ويشكلن فريقين يتباريان في خفة رميها للأعلى ولقفها، والذي يفوز جائزته أن يبدأ هو باللعب، ولا خاسر فالوقت يمضي بحكايات وضحكات.

كم كان زمناً بسيطاً ذلك الذي لعبنا فيه «الصقلة»، وتمرجحنا بخفة على المراجيح المتدلية من أغصان الشجر وركضنا حافي الأقدام في مفترقات (سكيك) الفريج، نبحث عن فلان ونختبئ من فلانة! كانت الحياة أشبه بقصص ننسجها بمخيلتنا البكر البسيطة، فلا تنمر ولا تذمر ولا ملل، وكل الصغار في الحي هم إخواننا مهما بلغت الشقاوة أقصاها فلان (فلع: قذف) فلان (دز: دفع) فلان، نعود بعد شجار في الحي وكأن شيئاً لم يكن ونعاود الالتقاء من جديد للعب والضحك واستكشاف المكان.

الألعاب التي كنا نصنعها من الأقمشة ونحنو عليها وندسها في كراتين ورقية (مخلفات التعليب للفواكه وغيرها) ونصنع البيوت بداخلها ونضع الحواجز والغرف، ونسكن فيها أرواحنا التي شبعت بالفضول للحكاية، ونعيد سردها لصويحباتنا وأخواتنا، كانت نهاية العام الدراسي بالنسبة لنا فرصة للتواصل مع حيواة نسجناها بحب، وشكلناها بحنو، ولامسنا تفاصيل تكوينها ونسجنا حكاياتنا حولها وآمالنا وتطلعاتنا البسيطة لمستقبلنا المنظور من خلال العرائس والدمى التي كنا نصنعها بالأقمشة.

اليوم ينتهي العام الدراسي ليبدأ التيه العظيم، ويعود الأبناء لعوالمهم الافتراضية يتواصلون مع أصدقاء افتراضيين، ويبنون قصوراً، ويشترون أراضي ويملؤون جيوبهم بنقود افتراضية لشراء ما يلزم من استثمارات وعقارات وبشر! ويتمردغون في محطات التواصل الإجتماعي وما يبث فيها من سموم عبر الإعلانات والدعاية المخلة والموجهة للتخريب والتدمير والتعطيل، كل ذلك دون اتصال روحي أو شغف معرفي أو ارتباط حقيقي، فهم يملكون الأزرار التي تخولهم للدخول والتشكيل، ويسيطرون على المخيلة بمساعدة الآخر الذي لا يعرف عن رغباتهم شيئاً سوى أنه يستميل ويستشف الاستعدادات الأولية لدى الأبناء، من خلال قدراته الافتراضية وخياله الاصطناعي، ويبقون هكذا في انفصال عن واقعهم وارتباط مشتت للذهن مع العالم الآخر المشدوهين نحوه.

تبقى الفرصة الوحيدة هي القطع المتعمد للمحركات كلها، والانفصال عن الواقع الافتراضي والنت، ولو كحيلة من أجل العودة إليهم، ومعرفتهم من جديد لخلق التواصل الحقيقي المفضي لسوية العلاقة بين الأجيال، والدفع بصورة جمال الترابط بين الأهل والأصدقاء والتمكن من ملامسة الإنسان فينا وتنقية الفطرة، ولو لحين.

في حضرة النخيل

د.محمد الجويلي
أكاديمي - تونس

أدب السيرة الذاتيّة لا يعانق الإبداع إلّا بقدر ما يكون في الوقت ذاته سيرة للأنا وللجماعة، على حدّ السواء. في كتابه «صراطي» ينقلنا د. سالم بن عبدالرحمن البلوي، بكتابة أنيقة وبأحاسيس رقيقة عبر الحنين والذكرى إلى حياة البادية لنصف قرن مضى في المنطقة الغربيّة من المملكة العربيّة السعوديّة، حين كان الناس يرحلون إلى نخيل المدينة المنوّرة والعلاء وينبع والعيص وغيرها من الأماكن التي يُوجد فيها القليل من النخل الذي ينمو قرب بعض موارد وعيون الماء البسيطة (ص 62-63). يخلّد البلوي عادة ترحال البدو في هذه الربوع نحو النخيل صيفاً حين كان بعض أهل البادية يشتري ما تيسّر له من النخل، ومن يتعذّر عليه ذلك يستأجر نخلات أو يحلّ ضيفاً لدى أقربائه ممّن يمتلكون نخلاً، فيتكرّمون عليه بنخلة أو نخلتين. فقد كانت تلك الفترة كما يقول الكاتب فترة جوع واحتياج، والبدو كما يقول: «حين يحضرون أو يُصدّرون ليقتاتوا من التمر، يكون استعدادهم لهذا الحدث التراثي كاستعدادهم لاستقبال العيد، ويكون أطفالهم متشوّقين لمجيء تلك العادة، ومن بينهم طفل شقيّ وعنيد!»، هكذا يتحدّث البلوي عن نفسه في نبرة ضاحكة مرحة تمزج بين رهافة الإحساس الأدبي، ودقّة الملاحظة الأنثروبولوجية. يُعبرّ عن عادة الترحال هذه محليّاً بالحضور أو النزول، والغاية من ذلك كما يقول: «أنْ يجدّوا النخيل، ثمّ يأتوا بالتمر فيعجنونه ويضعونه – أو يحشونه - في شنّة أو مجلاد، ثمّ يغادرون بالمجاليد أو القرب التي يضعونها على الإبل، ليعودوا إلى منازلهم، فيما يُعرف بـ(الصَّدرة)». من هذه التمور تعدّ النسوة الحيسة، تلك الحلوى التي يقول فيها الكاتب: «إنّ أمّي، بارك الله فيها، كانت تقوم بإعدادها عندما تأخذ نصيبها من نخيل جدّي، رحمه اللّه، ثمّ تقوم بتقسيمها بين الجيران كعادتها في الكرم»، ثم يضيف مفصّلاً القول في إعدادها: «لقد كان الأهالي ومنهم أمّي – يأخذون التمر، ويستخرجون النوى منه، ثمّ يعجنونه ويضعونه في القدر، فيسخّنونه ثمّ يصبّون عليه السمن، ويخلطونه بالدّخن أو الطحين - وربمّا السمسم - ثمّ يقلّبونه، فيشعر الأطفال بطعم الحيسة من مجرّد اشتمامهم الرائحة التي لا ينساها من هم أمثالي من أطفال ذلك الزمان».

تمثل المرض
عند هنود أمريكا الشمالية

خليل السعداني
جامعة محمد الخامس بالرباط
المغرب

لاحظ المعمرون الأوروبيون، عقب اكتشافهم أمريكا، أن للهنود مفهومهم الخاص عن المرض والصحة، ذلك أن حياة السكان المحليين كانت تنبني على الانسجام والتناغم الحاصل بين الفرد ومحيطه الطبيعي والاجتماعي والروحي. وأشار جان بيرنار بوسي Jean-Bernard Bossu الرحالة الفرنسي، الذي جاب كثيراً من المراكز الفرنسية بأمريكا الشمالية في منتصف القرن الثامن عشر، إلى أن قبائل الإلينوا Illinois والميسوري Missouri كانت تعتقد بوجود رب للحياة تطلق عليه مانيتو Manitou، وكانت تخشى مكونات الطبيعة، وتحترم الحيوانات، وتعتقد أنها كالإنسان تمتلك روحاً.

وكان على كل فرد أن يرسم مسار حياته حسب ما يراه في أحلامه بعد سلسلة من المجاهدات عن طريق اعتزال الناس والصيام. وكانت الأعياد التي تتخللها الرقصات والمناظرات الخطابية التي تذكر ببطولات الأجداد وإنجازاتهم تقوي الشعور بوحدة الانتماء للقبيلة، مما يعني أن المعتقدات الدينية كانت تؤطر الحياة الاجتماعية بامتياز. ولا تعترف بعض قبائل أمريكا الشمالية بالألوهية إلا للقواع الأكبر Grand Lièvre والشمس والشياطين. وهم يتوجهون في صلواتهم للقواع الأكبر، ويبجلونه ويقدسونه، لأنهم يعتبرونه خالق الأرض والشمس ومصدر النور. وإذا كانوا قد أدخلوا الشياطين ضمن معبوداتهم، فلخوفهم منها. كما كانوا يعتقدون بوجود آلهة أخرى في الجو وفوق الأرض وتحتها. وتتمثل تلك التي توجد في الجو في البرق والرعد والقمر والخسوف والأعاصير. أما تلك التي توجد فوق الأرض فتضم كل الحيوانات الضارة كالأفاعي والنمور والعنقاء، فيما تُعتبر الدببة وكل الحيوانات التي تعيش تحت الأرض آلهة تحت أرضية. ويعتقد الهنود أنهم إذا أخلوا بواجباتهم نحو الآلهة أصبحوا عرضة للحوادث والأمراض.

كانت قبائل الهورونHurons ، التي كان يمتد مجالها عبر مساحات شاسعة بالولايات المتحدة وكندا الحالية، قد طورت نظرياتها الطبية الخاصة بها قبل وصول الأوروبيين بفترة طويلة. وهي تحدد أسباباً ثلاثة للأمراض: طبيعية، ومرتبطة بالرغبات اللاوعية وغير المشبعة للروح، ثم أخيراً السحر. ويمكن معالجة الأمراض الطبيعية عن طريق الحمية والحز incision وحمامات الرشح والأعشاب. وإذا لم تعط هذه الوصفات نتائج، وجب الاستنتاج أن المرض ناتج عن رغبات غير مشبعة لروح المريض أو نتيجة سحر. ويمكن علاج رغبات الروح بمعرفة طبيعة الرغبة وتلبيتها، إما عن طريق وهب هدية للمريض، أو عن طريق إحياء الطقوس الملائمة. وقد ذكر والاس A. F. Wallace الذي قام بتحليل دقيق لهذا النوع من العلاج أنه يمثل نسخة

متطورة للطب النفساني. وكان الأوروبيون أنفسهم يردون أسباب المرض إلى الذنوب والمعاصي والسحر، ويرون أن سبل الشفاء تتمثل في الدعاء والصلوات والحج إلى الأماكن المقدسة.

أما قبائل النافاغو Navajo التي مازالت تقطن حالياً بالولايات المتحدة الأمريكية، فترى أن نمط حياتها الروحي ينبني على الانسجام بين الفرد ومحيطه الطبيعي والاجتماعي والروحي، فلم يكونوا يقيمون فرقاً بين الروح والجسد في تعريفهم للصحة والتوازن، ويعتبرون انعدام التوازن السبب الرئيس لكل الأمراض. ويحدث المرض حسب تقاليد النافاغو نتيجة أسباب متعددة، منها فقدان شخص ما لروحه، أو بسبب دخول كائن غريب إلى جسمه، أو نتيجة إصابته بمس، أو انتهاك محرم، أو تعرضه لسحر. فالروح أو النفس تسكن جسم الصبي مدة قليلة عقب ولادته، وهي التي تحدد شخصيته. وتؤكد الابتسامة التي يطلقها أن روحه أصبحت ملتصقة بقوة بجسده، وأنه أصبح كائناً بشرياً، ولم يعد معرضا لخطر الموت. أما عند الشيخوخة فيضعف ارتباط الروح بالجسد، وتُعتبر الوفاة آنذاك طبيعية. ويدل حدوث ضعف عام وصعوبة في التنفس أن الروح مستعدة لمغادرة الجسد؛ ولا يمكن اعتبار أرواح الأطفال والشيوخ سبباً في حدوث الأمراض الصعبة، بينما تُعتبر أرواح الذين يموتون وهم في مقتبل العمر سبباً في المرض. ويشير كلايد كلوكن Clyde Kluckhohn إلى علة أخرى للمرض نتيجة دخول كائن غريب إلى الجسد عن طريق السحر. ويرى الباحث أن هذا الاعتقاد انتقل إلى النافاغو عن طريق قبائل لبويبلو Pueblos في القرن التاسع عشر. ويدل فقدان الإنسان الوزن، وإحساسه بآلام

حادة في الجزء المصاب، أن سبب المرض هو السحر. أما المس فيعني أن روح ونفس الشخص مسكونة من طرف روح فوق - طبيعية معادية، وهناك من يعتبرها السبب الرئيس للمرض عند قبائل النافاغو. أما انتهاك محرم الذي يؤدي إلى ظهور مرض، فيؤكد أن الشخص المصاب كان على اتصال بكائنات خطرة، أو أنه ارتكب محظوراً كزنى المحارم. فالعلاقات الجنسية بين الأخ والأخت تؤدي إلى الإصابة بداء الصرع، حسب تفسيرات الطب الحديث. وتطلق قبائل النافاغو على هذا المرض داء فراشة الليل؛ لأنها تعتقد أن هذه الحشرة هي المسببة للعلة. لكن قد لا يكون المريض هو من ارتكب جرم زنى المحارم. ويمكن للمعالج أن يعلم أن العلة انتقلت من الأم إلى الابن. كما يُعتبر السحر سبباً مهماً للمرض. وتحكي الأساطير أنه كانت للسحرة علاقات جنسية مع بناتهم، ومنهم من تحول نتيجة ذلك إلى ذئب، أو كلب، أو قيوط، أو ثعلب أو غراب، أو بوم. وطريقة السحر الأكثر فعالية تحدث عندما يكون هناك اتصال بين رماد جثة والضحية. ويُعتبر السحر هو الوجه المظلم للبعد الروحاني عند قبائل النافاغو. وعادة ما يلتقي السحرة للاحتفال وفق طقوسهم الخاصة، ويعتمدون في ذلك على الغناء والأقنعة والرسوم التي تغطي أجسادهم. وينبغي للساحر أن يحصل على خصلة من شعر الشخص المقصود، أو أظافره، أو ملابسه لإيذائه. فهذه الأشياء تُعتبر امتداداً لصاحبها، وكل ما يوجه إليها من أذى يصل إلى صاحبها بالضرورة. ويمكن للساحر أن يصيب المرأة الضحية بهلوسة، أو غيبوبة إن أُعجب بها، فتفقد السيطرة على نفسها، وتجري هائمة على نفسها، وتقوم بتمزيق ملابسها؛ والغاية من ذلك هي إصابتها بالحمق، وإبعادها عن المناطق الآهلة بالسكان، حتى يتمكن الساحر من إغوائها وإسقاطها في حباله. وفي حالة المراهنة والقمار، يفقد اللاعب كل ممتلكاته لمصلحة الساحر.

وقد استخلص الباحثان واينانـد Wynand وكلوكن Kluckhohn أن قبيلة النافاغو تحدد أربعة أسباب للمرض، هي الحيوانات، والظواهر الطبيعية، وطقوس الإشفاء، والأرواح الشريرة. ويأتي على رأس الحيوانات والحشرات الدب والقيوط والأفعى وفراش الليل والنمل والجراد. وظل الدب يمثل منذ أزمنة سحيقة حيواناً خطراً في أمريكا الشمالية وسيبيريا. أما القيوط فهو بالنسبة لمعظم القبائل التي تقطن غرب أمريكا الشمالية حيوان محتال ومخادع، ويتم ربطه بكل المظاهر السيئة لثقافة النافاغو، كالموت والسحر وزنى المحارم. وتتمثل الظواهر الطبيعية، وهي المسؤولة الأولى عن الأمراض، في الرعد والبرق والعواصف، وهي مألوفة ومدمرة في أمريكا الشمالية، كما أنها حاضرة بقوة في الأساطير والأحاديث اليومية. وقد تُستعمل من قبل القديسين كأدوات أو أسلحة أو وسائل للنقل. وتعتبر الرياح عطوفة ومدمرة في ذات الوقت. كما يمكن للطقوس والشعائر التي يرجى منها معالجة مريض أن تتسبب في إصابة شخص معافى. فالقيام بمحظور أثناء إنشاد الأغاني قد يؤذي حتى الجنين في بطن أمه. ولتفادي خطر الأرواح الشريرة، يجب تجنب أرواح الموتى ومهابتها. وتعتقد قبائل النافاغو أن الاتصال بجثة ما، أو السكن بمكان سبق وتوفي به شخص آخر، أو كان قطنه سكان قدامى، أو توجد به أدوات قديمة، يمكن أن يتسبب في أمراض عقلية. أما التسمية المعطاة للأمراض، فتدل على الاهتمام بسبب المرض وليس بأماراته، فنتحدث عن مرض الدب مثلاً. ويرى الأنثروبولوجي الكبير كلود ليفي ستروس أن بعض القبائل ترى أن الظاهرة المرضية تنتج عن الصراع القائم بين الإنسان والحيوان والنبات. وكل نوع يمكن أن يكون سبباً في المرض وفي المعافاة في الوقت ذاته، باستثناء النباتات التي تمنح دائماً الدواء للإنسان. وترى قبائل الشيكاشاس Chicachas ، وكانت تقطن بحوض الميسيسيبي، أن آلام البطن والفخذ تسببها الأفاعي، والرعاف يسببه السنجاب، وآلام العين تسببها البوم، وآلام المعدة يسببها الدب، والتشنجات يسببها النسر. ويشير كل من واينانـد وكلوكن أن هناك علاقة بين أسباب المرض والمرض من جهة، وبين الأسباب والأمارات. فسبب واحد قد يتطلب أمارات عدة، كما أن أمارة واحدة قد تكون ثمرة مسببات عدة.

فما التدابير المتخذة من قبل الهنود من أجل مختلف العلل؟ هذا ما سنراه في المقالة التي ستصدر في العدد القادم.

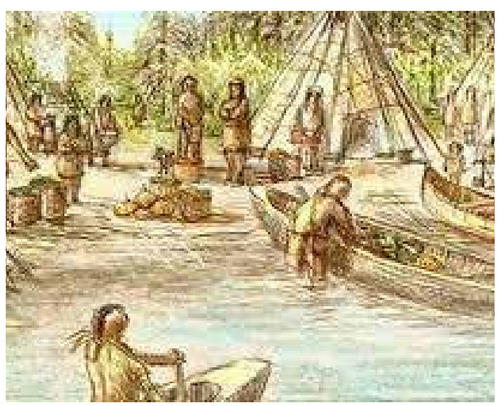

جهود الشيخ سلطان بن محمد القاسمي في النهوض باللغة العربية وخدمة القرآن الكريم

د. خالد بن محمد مبارك القاسمي
كاتب – الإمارات

على مدار 51 عاماً لم تتوقف مجهودات صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، في المجال الثقافي، حيث أسس البنى التحتية والصروح الثقافية لاحتضان العمل الثقافي، وتنفيذ مشروع الشارقة الثقافي على النحو الذي رسمه سموه.

وإذا كانت البدايات صعبة ومضنية، فإن النتائج كانت مبهرة، فقد أصبحت للكتاب هيئة، وللآداب والفنون مجمع، وللتراث معهد مستقل، وللغة مجمع، فضلاً عن العديد من المشروعات الثقافية الأخرى[1].

ويوجِّه صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، دائماً باستلهام روح التراث بنوعيه: المادي، وغير المادي، فبذل سموه الجهود من أجل الحفاظ على سلامة اللغة العربية ورفع قيمتها، والنهوض بها لتكون دائماً ضمن اللغات الأساسية على مستوى العالم. كما حظي القرآن الكريم بأكبر عناية واهتمام من جانب سموه. وذلك لأن اللغة العربية والقرآن الكريم من أهم أعمدة الهوية الوطنية الإماراتية.

وفي هذا السياق، قال صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي في افتتاح حملة «متحدون مع التراث» 2017:

«أقول لأبنائي من الأجيال المقبلة، التراثُ هويتكم ورمز وحدتكم، فكونوا على قدر مسؤوليته لتمنحكم حضارة الأولين خيرها، وتفشي السلام بينكم، وتهيئ لأمنكم ونهوضكم، وإني أدعو أيضاً المؤسسات القائمة على رعاية التراث، أن تعي دورها وأهميته في مواجهة الظلام والخراب، بجعل التراث حيّاً متفاعلاً في الحاضر والمستقبل»[2].

مجمع اللغة العربية

حظيت اللغة العربية بالنصيب الأوفى من تلك الجهود التي شملت مفاصل الحياة الثقافية والعلمية والأدبية والفنية، حتى أصبحت الشارقة مقصد العلماء والمثقفين والأدباء والفنانين، يأتونها من مختلف أقطار العالم. وما حرص سموه على تعلم اللغة العربية إلا لعلمه بأن تعلم اللغة العربية واجب شرعي وقومي[3].

وعن اللغة العربية وأهميتها، يقول صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي: «إن لهذه الأمة العريقة أهمية، وضرورة وعيها بذلك، وكذلك أهمية اللغة في المطلق، واللغة العربية خصوصاً، فاللغة هي الحب والأخوة والصداقة، وهي العمل والإنتاج والإتقان، وهي التسامح والانفتاح والحرية والمسؤولية والاعتدال ضد التطرف والإرهاب والتشرذم والطائفية»[4].

وتعظيماً للغة العربية، والنهوض بها، وبمكرمة من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، تم إنشاء مجمع اللغة العربية في إمارة الشارقة، وذلك بموجب المرسوم الأميري رقم (96) لسنة 2016، الصادر بتاريخ 18 كانون ثاني/ ديسمبر 2016[5].

وطبقاً لأحكام المرسوم يسعى المجمع إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1. الحفاظ على سلامة اللغة العربية وجعلها مواكبة لمتطلبات العلوم والآداب والفنون، وملائمة لمدركات الحياة الإنسانية المتجددة.
2. إحياء التراث العربي والإسلامي، والعمل على توثيقه.
3. تشجيع التأليف والتعريب والترجمة والنشر.
4. توثيق الصلات بالمجامع اللغوية والعلمية عربياً وإسلامياً.
5. القيام بالدراسات العلمية للهجات العربية قديمها وحديثها.
6. النهوض باللغة العربية، والعمل على تعزيزها لتكون دائماً ضمن اللغات الأساسية على مستوى العالم.

وقد جاءت فكرة تأسيس مجمع اللغة العربية بالشارقة استجابة لكثير من الأهداف والمشاريع التي كان سموه يُفكّر فيها، ويسعى إلى إيجاد حلول عملية لها، لاسيما أن سموّه عايش حركة المجامع اللغوية والعلمية أكثر من ستة عقود، ابتداء من ستينيات القرن الماضي، في مرحلته الجامعية التي قضاها في القاهرة، وكان شاهداً على الأحداث الكبرى والنشاطات والإنجازات التي يقوم بها مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وتماشياً مع خطه

صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي يقوم بالتوقيع على المجلّدات الأولى لموسوعة التفسير البلاغي للقرآن الكريم.

الثقافي التربوي، أنشأ سموه مجمع اللغة العربية بالشارقة، لخدمة المجامع اللغوية، ودفع حركة التأليف والترجمة والتعريب والصناعة المعجمية فيها، في حين أن المجمع، كما صرّح سموّه في مناسبات عدة، همزة وصل لدراسة المشاريع اللغوية الكبرى في العالم العربي، وتيسير الطريق أمامها، لتجد مكاناً لها في التطبيق والتنفيذ[6].

وتحتوي مكتبة المجمع على ما يربو على ثلاثة آلاف عنوان، موزعة على خمسة وثلاثين فرعاً من فروع المعرفة، وزودت المكتبة التي تم تأسيسها بمكرمة من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، وبناء على توجيهات سموه، بأصول وأمهات كتب اللغة العربية بجميع فروعها: نحواً وصرفاً وبلاغة، وفقه لغة ولسانيات وغيرها؛ علاوة على الجانب المعجمي فيها.

كما تضم المكتبة أمهات الكتب والمراجع في علوم القرآن عامة، والتفسير خاصة، والحديث والفقه وأصوله، والتاريخ والتراجم والسير، والقصص، والأدب والشعر وكثيراً من الكتب المتنوعة في الفروع المعرفية الأخرى، وهي مفتوحة أمام القارئين والباحثين الجادين[7].

المعجم التاريخي للغة العربية

في حفل افتتاح الدورة الأربعين من معرض الشارقة الدولي للكتاب، أعلن صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، صدور الأجزاء الـ17 الأولى من المعجم التاريخي للغة العربية، الذي يؤرخ للمرة الأولى لمفردات لغة الضاد وتحولات استخدامها عبر الـ17 قرناً الماضية[8]. مع إطلاق سموه الموقع الرسمي للمعجم، ليكون متاحاً أمام الجمهور، والذي يمكن من خلاله للباحثين والمهتمين تصفُّح المجلدات المنجزة، والبحث عن الجذور والمداخل، بالإضافة إلى إمكانية تصفُّح المدونة الرقمية للمعجم، وما تحويه من كتب وعناوين تم الاعتماد عليها لإعداد الأجزاء الأولى من المعجم، وأسماء المحررين والخبراء ورؤساء المجامع اللغوية العربية المشاركين في المشروع[9].

وقال سموه في كلمته: «هنيئاً للعرب، وهنيئاً للناطقين بالضاد في كل مكان، إنجاز هذا المعجم التاريخي الذي يؤرخ للعربية الضاربة في أعماق التاريخ. بعد جهود مضنية بذلها المخلصون من أبناء اللغة العربية من العلماء والباحثين والأكاديميين من المجامع اللغوية العربية كافة، ها نحن نشهد ميلاد المعجم العملاق الذي سيفتح أبواباً للباحثين وطلاب العلم».

وأكد سموه أن «هذا العمل الضخم ليس جهداً فردياً يُحسب لدولة أو مجمع لغوي دون آخر، وإنما هو نتاج جهود مؤسساتٍ ومجامع ومراكز لغوية في كل أقطار الوطن العربي، اشتركت جميعها في هذا العمل الكبير تحت مظلة اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية بالقاهرة، وكان لمجمع اللغة العربية بالشارقة دور التنسيق الإداري والمالي لهذه الجهود العلمية الحثيثة»[10].

وفي حفل افتتاح الدورة الـ41 من معرض الشارقة الدولي للكتاب، في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 2022، أعلن سموه إطلاق 19 مجلداً جديداً من المعجم، مباركاً سموه هذا الإنجاز العلمي الكبير قائلاً سموه: «ونحن إذ نجتمع في هذه المناسبة العظيمة أتوجه بالتهنئة إلى كل أبناء العربية على هذا الإنجاز الذي كنا ننتظره منذ أمد بعيد، وسعادتنا وسعادتكم اليوم كبيرة بهذه الأجزاء الـ36 التي تؤرخ لـ9 أحرف من حروف العربية، ونحن اليوم في منتصف الطريق، والمستقبل القريب حافل بالخيرات بإذن الله»[11].

وقد وضعت اللجنة العملية للمعجم العام 2026 موعداً لإطلاق المشروع بصورته النهائية فيما يقرب من 70 مجلداً[12].

وفي شهر أيار/ مايو 2022، ترأس صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة الرئيس الأعلى لمجمع اللغة العربية بالشارقة، الاجتماع الدوري للمجمع، وذلك في مقره بالمدينة الجامعية في الشارقة.

وتناول الاجتماع عدداً من الموضوعات المعنية بأنشطة وجهود المجمع في تنفيذ اختصاصاته الرئيسة للحفاظ على اللغة العربية، ودعم مجالاتها وأركانها كافة.

وتضمن الاجتماع مناقشة سبل دعم مجامع اللغة العربية في سبيل تحقيق التكامل بين المجامع اللغوية للنهوض بلغة الضاد، والعمل على تعزيز انتشارها العالمي، وللخروج بأفضل المنجزات على مستوى إصدارات المعاجم والدراسات والبحوث. وبحث الاجتماع دعم جهود اللغة العربية في القارتين الإفريقية والأوروبية، بالتزامن مع الانتشار الكبير للغة في كثير من الدول، والإقبال عليها من قبل مختلف الأفراد والمهتمين[13].

1- مني يونعامة: مؤرخ العصر.. مقارنة في مرتكزات الكتابة التاريخية عند سلطان القاسمي، معهد الشارقة للتراث، ط 1، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، د.ت. ص 179.

2- علامات فارقة في مسيرة «سلطان الشارقة»: موقع جريدة البيان، بتاريخ 24 يناير 2022. على الرابط الآتي: https://www.albayan.ae/uae/2022-01-24-1.4353193

3- بهجت عبد الغفور الحديثي: الشارقة مركز إشعاع ثقافي عربي إسلامي عالمي، منشورات القاسمي، ط1، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 1437هـ/ 2016. ص 22.

4- المرجع السابق نفسه، ص 91.

5- نصوص المرسوم موجودة على موقع الجريدة الرسمية لحكومة الشارقة، على الرابط الآتي: https://og.shj.ae/TashView.aspx?I=1752594

6- مجمع اللغة العربية.. أكاديمية لغوية: جريدة الخليج، العدد (15226) بتاريخ 25 يناير 2021م.

7- المصدر السابق.

8- حاكم الشارقة يطلق 17 جزءاً من «المعجم التاريخي للغة العربية»، العين الإخبارية، بتاريخ 3 نوفمبر 2021، على الرابط الآتي: https://al-ain.com/article/ruler-sharjah-dictionary-arabic

9- موقع مجمع اللغة العربي بالشارقة، على الرابط الآتي: https://cutt.us/mtdD3

10- المعجم التاريخي للغة العربية يرى النور بأجزائه الخمسة: صحيفة الشرق الأوسط، العدد (15685)، بتاريخ 7 نوفمبر 2021.

11- موقع صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، على الرابط الآتي: https://cutt.us/VazB1

12- استعراض لمسيرة وآليات إنجاز «المعجم التاريخي للغة العربية» بالشارقة: موقع الغد، بتاريخ 5 نوفمبر 2021، على الرابط الآتي: https://cutt.us/JszAi

13- موقع مجمع اللغة العربي بالشارقة، على الرابط الآتي: https://cutt.us/mtdD3

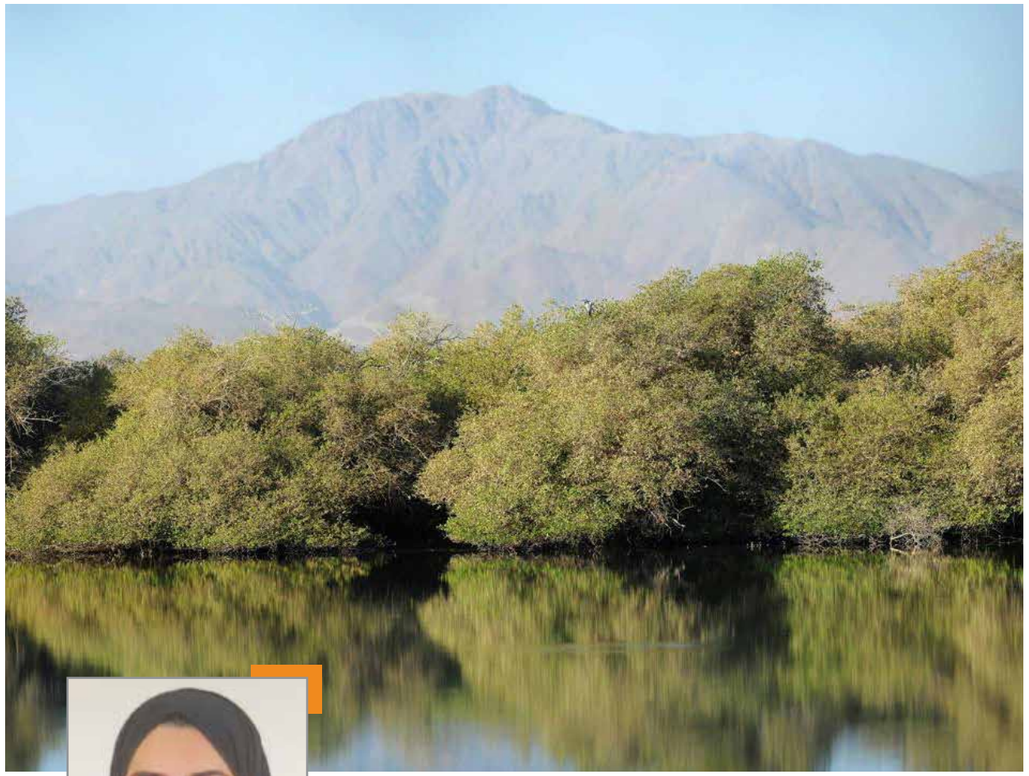

أنماط الملكية والحيازات الزراعية التقليدية

في منطقة كلباء

نورة خلفان الكندي
باحثة - معهد الشارقة للتراث
فرع كلباء

تعدّ كلباء إحدى المناطق الزراعية المهمة في إمارة الشارقة، بسبب موقعها الطبيعي ووفرة المياه وخصوبة التربة، ومثلت الزراعة مصدراً معيشياً رئيساً لحياة السكان، ووفرت الزراعة في كلباء المصدر الأول للغذاء للسكان، وتنوعت المحاصيل الزراعية فيها، وكانت تشتهر بزراعة النخيل والحمضيات والفاكهة والفندال والحبوب بأنواعها والليمون والهمباء، كما يعد الغليون أحد المحاصيل النقدية التي تشتهر بها مزارع كلباء.

تعتبر جميع الأراضي في القرى والوديان والجبال تاريخياً ملكاً حصرياً للأحلاف القبلية وإماراتها، والتي كانت تتشكل منها إمارات الساحل الشرقي، وعليه فإن لكل جماعة أو عائلة أو قبيلة تنتمي إلى أي حلف أو إمارة من الإمارات الحق في ملكية وحيازة الأرض في المنطقة أو الجهة الجغرافية المقيمة فيها، وعليه فإنها تستطيع الاحتفاظ أو الانتفاع بتلك الأراضي طالما هي منضوية في الحلف القبلي الذي تتشكل منه هذه الإمارة أو تلك. وبالتالي تعتبر جميع الأراضي في منطقة كلباء وامتداداتها الجبلية أملاكاً، وحيازات مشتركة للجماعات القبلية في المنطقة، كما أن الأرض بشكل عام هي ملك عام للإمارة، وهي التي تمنح الأرض وتملكها للأهالي القاطنين بالمنطقة.

إن إي جماعة قبلية صغيرة في أي قرية التي تعرف محلياً بـ«عيال فلان» أو «قوم فلان»، تستطيع مواصلة الحيازة أو الملكية المشتركة لأرضها، مادام أعضاؤها الورثة من ناحية الأب متحدين، ولكن إذا تم حل هذه الوحدة أو انتفت الوحدة بينهم، فإن الحيازة أو الملكية المشتركة سوف يتم تقسيمها بين المكونات الرئيسة لهذه الوحدة القرابية، وذلك عبر الأعضاء الذكور الذين تربطهم ببعض العلاقات القرابية المباشرة بالأب أو الجد المؤسس للجماعة. ووفقاً لذلك فقد كانت جميع الأراضي في القرى أما حيازات أو ملكيات خاصة لورثة أملاك أو حيازات سابقة، أو لعائلات صغيرة أو لعائلات كبيرة ومترابطة. ونظراً لكون الأراضي القابلة للزراعة أو ملكية للإمارة أو لبعض الجماعات القرابية المعروفة، فيمكن لبقية الأهالي استخدام الأراضي المتاحة من خلال النظام التقليدي لحيازة الأراضي الذي يعرف محلياً بـ«البيدرة»؛ أي نظام المحاصصة الزراعية، وقد أتاح نظام البيدرة لجماعات قبلية صغيرة كانت أو كبيرة الهجرة والتنقل من القرى النائية إلى كلباء للعمل بالزراعة، نظراً لاتساع الرقعة الزراعية في المنطقة، الأمر الذي يطلب مزيداً من البيادر للعمل بالزراعة.[1]

أساليب حيازة الأرض وتخطيطها في كلباء قديماً:

تصدر كلباء الاهتمام الكبير بالزراعة قديماً حتى يومنا هذا، ومما تجدر ملاحظته أن هذه المدينة تختزل في طياتها العديد من الأشخاص المهتمين بالزراعة بكل أنواعها، ممن عاصروا وعايشوا تلك الحقبات الزمنية التي أظهرت أهمية الزراعة، وهؤلاء الذين كانوا على إدراك فطري للمعارف والمهن والحرف التي توالت في أزمنتهم، وأخذها الآباء عن الأجداد الذين كانوا هائمين بماضي أسلافهم العريق، حتى تلمسها في الوقت الراهن أجيال حديثة، سوف تستكمل ما كان يقوم به سلفنا.

واستكمالاً لجهودنا في دراسة الزراعة في منطقة كلباء نطمح إلى التوقف أمام جانب مهم من جوانب الزراعة، باعتبارها العمود الرئيس للثقافة المحلية، ألا وهو أساليب حيازة الأرض في كلباء.

أشار الراوي عثمان باروت[2] إلى الأهمية الكبرى التي كانت تمثلها حرفة الزراعة في منطقة كلباء، فيقول: «كانت قوتنا بالله ثم بالزراعة»، ويعني بها الراوي أن توكلهم وإيمانهم بالله، ثم اعتمادهم على الزراعة من أجل المعيشة، وكانت الزراعة سابقاً غير الأرض اليوم، وحتى قوانين الأرض كانت مختلفة، فالأراضي الزراعية قديماً في مدينة كلباء كانت تؤخذ عن طريق الوالي،[3] والوالي هو المسؤول عن البلد، حيث يتم أخذ الأراضي الزراعية بذهاب الشخص إلى الوالي، وطلب أرض زراعية منه، فيذهب الوالي مع الشخص، ومن ثم يحدد المنطقة التي يريدها، ويتم قياس الأرض الزراعية بطريقة العصا، كما يشير الراوي قائلاً: «يعمل الوالي (المسؤول على البلد) بفرد العصا على الأرض، ويقيس المساحة التي يريدها على حسب طول العصا التي يستخدمها، ويسأل الوالي المزارع كم تريد؟ 20 ذراعاً 10 أذرع.. (طريقة حساب الأهالي قديماً) وهكذا.. حتى تكتمل المساحة المطلوبة، ويتسلم المزارع الأرض التي قام والي المنطقة بتخصيصها له.[4]

ويتحدث الراوي عثمان باروت عن كيفية إحاطة الأرض الزراعية، فيقول: بعد إعطاء الوالي الشخص الأرض الزراعية، يتم تحويطها بغصون شجرة (السَّمُر)[5]، وكذلك تتم تحويطها أيضاً بأعواد شجرة (السدر)[6]. وبأن صاحب المزرعة يتعمد بشكل عام وضع جميع هذه الأشجار الآنفة الذكر لحماية أرضه، ولم يفكر بهذه الأصناف عبثاً، بل لأنها تتسم بالأشواك وتحظر الآتي من الخارج بأن يدخل المزرعة الخاصة به، وتسمى هذه الحوطة بـ«إحضار».

وما يمكن الإشارة إليه في هذا الخصوص، أن الرجل هو من يطلب ملكية المزرعة؛ لكي تكون خاصة له وحده، فيرجع إلى الوالي (المسؤول عن البلد)، فيطلب ملكية للأرض، مما يدفع الوالي بسؤاله عن المبلغ الذي يستطيع أن يدفعه، وبالتالي تمنح الأرض حسب الثمن الذي يدفعه طالب الأرض.

لاشك في أن هناك ثقافة محلية أو أعرافاً عامة يعتمد عليها السكان لتمليك الأرض أو حيازتها، وبشكل عام يعتمد السكان المحليون إلى أساليب متعارف عليه لتنظيم مسألة حيازة الأرض الزراعية. وتنقسم ملكيات وحيازات الأرض إلى عدد من الأنماط، ويمكن الحديث عنها على النحو الآتي:

الملكية العامة (ملكية الإمارة): وهي الأرض التي تقع ملكيتها ضمن حدود الإمارة في كلباء وملحقاتها، وهي تلك الأراضي التي تدخل ضمن حرم الإمارة، ويدخل في إطارها الأراضي التي تم تحويلها للإمارة، بسبب عدم وجود أي وريث شرعي. كما يتم ضم الأراضي والأملاك إلى أملاك الإمارة في حالة فشل الورثة في حل وسط لتسوية النزاع بينهم، ولكن يترك للورثة حق الانتفاع بها، وذلك منعاً لاستفحال النزاع والخصومة بينهم.

الملكية الأسرية الخاصة: تمثل الأرض المملوكة للأفراد أو الأسر، وهي تشكل معظم الأراضي الزراعية في منطقة كلباء، وهي تلك الأراضي والحيازات المملوكة إلى الشيوخ أو الأسر الرئيسة التي يتشكل منها مجتمع كلباء، والأرض المملوكة هي بالعادة أرض آلت إليهم بالتوريث، وقد تكون أراضي ممنوحة من الشيوخ، أو أراض مصدرها الشراء من الشيوخ أو ملاك سابقين. يتمتع الفرد الحائز أراضي من نوع الملك بالحق الكامل في التصرف في ممتلكاته، ومن ثم يمكنه أن يورث أو يبيع أرضه بحرية، ومع ذلك تراعي في عملية البيع والشراء الجوانب الشرعية، وكذلك الأعراف والتقاليد المرعية.

الأرض الموقوفة: (الوقف) تعرف الأرض الموقوفة بـ(مال المسجد)، وهي أراض أو أشجار تم وقفها لأغراض خدمة المساجد الموجودة بالمنطقة، وفي أغلب الأحيان تكون عبارة عن عدد من أشجار النخيل يكرس ريعها لرعاية شؤون المسجد أو يتدبر أمرها إمام المسجد أو الشخص الذي يقوم بخدمة المسجد. ويمكن أن تكون الأرض الموقوفة عبارة عن بساتين تم وقفها على رعاية شؤون المساجد.

أرض السبيل: وهي تلك الأراضي المنتشرة في الوديان والشعاب القريبة من البلدات والقرى التي تنمو بداخلها على الأغلب أشجار النخيل، وتكون غير معروفة، إنما يصطلح عليها في العرف المحلي بأراضي السبيل، ويستطيع الجميع الاستفادة منها، ومن إنتاجها في موسم الرطب، أو يكون بعضها قد تمت حيازته من قبل البعض، وقام بغرس عدد من أشجار النخيل بهدف تخصيصها لعابري السبيل، أو المحتاجين من أهل القرية.

الأراضي الممنوحة: وهي تلك الأراضي التي يمنحها الحاكم أو الشيخ لرعاياه بهدف مساعدتهم على تدبير حياتهم، وتوفير مصدر دخل لهم، كما تمنح لبعض الأفراد لأسباب أخرى. كما إن حكام الإمارات ومنذ بدايات الاتحاد قاموا بمنح مواطنيهم ملكيات وحيازات بغرض السكن أو الاستصلاح الزراعي، كما قامت الهيئات الاتحادية والمحلية بتقديم مساعدات عينية ومادية، بهدف تشجيع الزراعة وتربية الثروة الحيوانية في مناطقهم.

ختاماً، لعبت الملكيات والأراضي الزراعية دوراً كبيراً في تحسين أحوال المعيشية للسكان، ومكنت كثيراً منهم في ظل الطلب على الأراضي لأغراض سكنية وتجارية إلى الاستفادة من مردودها التجاري.

1- انظر www.abdallahyateem.com.

2- يعتبر عثمان باروت من حملة الذاكرة الشعبية، ومن أهم مصادر التراث، وعنصر أساسي وركيزة يرتكز عليه التراث بالمعلومات والمعارف التي يمتلكها، وهو أيضاً ممن اختبروا الحياة، وسبروها وصقلوها وأضافوا عليها، كما كانت له معايشة ومعاصرة لتراث إمارته الباسمة إمارة الشارقة، خصوصاً وغيرها من المدن والقرى التابعة للإمارة، هذا بالإضافة إلى معارفه المعروفة عن دولة الإمارات العربية المتحدة.

3-الوالي: هو الشخص الذي يتم تعيينه من قبل حاكم الإمارة لإدارة المنطقة أو البلدة التي يتم اختياره لها، وينوب عنه في كل الأمور.

4- عثمان باروت: مقابلة أجرتها الباحثتان مع الرّاوي، يوم الثلاثاء، 2016/11/15.

5- هي من الفصيلة القرنية يراوح ارتفاعها بين 4 و8 أمتار، وهي تمتاز بتفرعها من أسفل، وفروعها الصغيرة الضاربة إلى الحمرة، وبقمتها المسطحة التي تشبه المظلة، وهي واسعة الانتشار في إفريقيا المدارية شمال الغابات الاستوائية، وجنوبها وفي جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وفي الإمارات العربية المتحدة، ينتشر السَمُر في جميع المناطق تقريباً خاصة في السهول والوديان، حيث تتجمع الترسبات الطينية والرملية.

6- ذكرها ابن القيم الجوزية - رحمه الله - أن السدر شجرة مباركة، تدبغ المعدة، وتسكن الصفراء، وتشهي الطعام.

قصر المويجعي..
رحلة تاريخية ممتدة

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

يعدّ قصر المويجعي في مدينة العين واحداً من أبرز شواهد المدينة التاريخية، واليوم هو مركز يلتقي فيه الزوار والسياح لإلقاء نظرة شاملة على تاريخ المدينة والحكم فيها، الذي امتد إلى أبوظبي العاصمة، حيث يسلط القصر الضوء على مراحل تاريخية مهمة من حياة مجتمع الإمارات.

يقع قصر المويجعي في الجهة الغربية لمدينة العين، وللأهمية التاريخية تم إدراج قصر المويجعي وواحة المويجعي على قائمة أهم مواقع العين الثقافية التي تندرج ضمن قائمة مواقع التراث العالمي لليونسكو في منطقة العين، والتي تتضمن عدداً من المواقع الأثرية والمباني التاريخية والحصون وأبراج المراقبة التي تنتشر بكثرة حول الواحات والقرى وعلى أطراف المنطقة.

وتعد واحة المويجعي من أصغر واحات العين، وتحتوي على نحو 21 ألف نخلة تمر، وتشتهر بنظام الري بالأفلاج الذي يعتمد على المياه الجوفية وتحت مستوى سطح الأرض التي تأتي من الجبال المجاورة، وعلى مر السنين، تم استصلاح أراضي القلعة لزراعة أشجار نخيل التمر.

تاريخ حكم

شهد القصر إقامة المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، الوالد المؤسس لدولة الإمارات العربية المتحدة، بعد توليه منصب ممثل الحاكم عام 1946 في منطقة العين، فانتقل للإقامة في قصر المويجعي ليصبح بيتاً لعائلته ومقراً لحكمه، وبعد عامين، شهد القصر ولادة ابنه الأكبر المغفور له، الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، حيث أمضى الشيخ خليفة أكثر أيام الصّبَا في هذا القصر ينهل من فكر والده ورؤيته الثاقبة، ويتعلم منه الحكمة والقيادة السليمة.

شُيد القصر في عهد الشيخ زايد بن خليفة آل نهيان (زايد الأول) (1855-1909) وابنه الشيخ خليفة بن زايد بن خليفة آل نهيان، وخلال حكمه وفي عام 1928م كان قصر المويجعي مقراً لتوزيع المساعدات خلال فترة الكساد الاقتصادي.

وعندما تولى المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، حكم إمارة أبوظبي في 1966، انتقل مع ابنه المغفور له، الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، إلى أبوظبي.

زايد في المويجعي

وقد عرف عن المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، خلال فترة حكمه في العين 1946-1966م أنه كان يستقبل أهالي المدينة للنظر في شؤونهم والتناقش معهم وحل خلافاتهم وقضاياهم في قصر المويجعي، وقام بالعديد من مشاريع التنمية في العين انطلاقاً من مقر حكمه، والتي لاقت ترحيباً بالغاً من أفراد المجتمع، من بينها بناء قلعة المربعة، وافتتاح سوق العين الذي استطاع تحقيق رواج اقتصادي للمدينة، حيث بلغ عدد المحال 25 دكاناً، وترميم سوق القطارة، والاهتمام بشق المزيد من الأفلاج والعيون والآبار حتى زادت أشجار وثمار المانجو والفواكه الأخرى.

ويصف ويلفرد ثيسجر، الملقب (مبارك بن لندن) في كتابه «الرمال العربية»، المويجعي قائلاً: «حين اقتربنا من المويجعي، وهي واحدة من ثماني قرى في واحة البريمي، وكان الشيخ زايد يعيش في هذه القرية، شاهدت حصنه وهو فناء واسع محاط بسور، يبلغ ارتفاع جدرانه الطينية عشر أقدام، وإلى يمين الحصن وخلف جدار نصفه مطمور بالانجرافات الرملية مزرعة من أشجار النخيل، وينتصب وراءها جبل حفيت، وكنت أستطيع أن أرى من فوق الحصن معالم زرقاء باهتة لجبال عمان البعيدة»، ويستطرد في سرد رحلة وصوله لقصر المويجعي، ولقائه الشيخ زايد قائلاً: «كان الشيخ زايد يتمتع بشهرة واسعة بين البدو الذين أحبوه بسبب بساطته ومودته وقوة شخصيته وفطنته وقوته الجسدية»، ويضيف: «بعد أن دخلنا الحصن، وعبرنا الباب الصغير في البوابة إلى ممر مسقوف،

حيث كان به رجال مسلحون جالسين على مقاعد منخفضة، وكان وراء الممر فناء رملي فيه غزال أليف وجمل، وأدخلنا الشيخ زايد على غرفة واسعة خالية على يسار الممر تنيرها نافذتان صغيرتان على مستوى الأرض تطلان على الفناء، أحضروا أمتعتنا وفرشوا السجاد على الأرض وجلبوا لنا وجبة كبيرة من الأرز واللحم وأطباق التمر واللبن، وتناول الشيخ زايد معنا الطعام، وفي كل صباح بعد الفطور كنا نخرج ننضم للشيخ زايد الذي كان يجلس أحياناً على المقعد في الممر وأكثر الأحيان تحت شجرة خارج الحصن، والزوار يتوافدون إليه يستشيرونه ويطلبون حلاً لمشكلاتهم».

عمارة وبناء

في مطلع سبعينيات القرن العشرين، خضع هذا الصرح لمراحل ترميم مختلفة، تُوجت بمشروع تجديد ضخم أسهم في عودة قصر المويجعي إلى سابق عهده كمقصد عام للزوار في العين، حيث يعد بناء القصر نموذجاً لفن العمارة التي كانت تعتمد على البناء بالطوب اللبن مطلع القرن العشرين، رغم بساطتها، وتم استخدام القصر بصفته ديواناً ومقراً للحكم ومتلقى لأفراد المجتمع، ويتكون من فناء داخلي متسع المساحة يحيطه سور المبنى مربع الشكل، مع أبراج بارزة في أركانه، وبوابة ضخمة، ويشار إلى أن قياس السور (65 × 65 متراً) تزيّنه أبراج مربعة بارزة في الزاويتين الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية، وبوابة تقع تقريباً في وسط جدار السياج الجنوبي المواجه لواحة المويجعي.

وضم البرج الشمالي الغربي للقصر في السنوات الأولى من بنائه على غرف المعيشة، وفي عهد المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، أصبح يمثل المقر الرئيس لسكن العائلة، حيث تعد مساحته أكبر مقارنةً بالبرج الشمالي الشرقي، ومن الخصائص المعمارية التقليدية لهذا البرج، الحفاظ على البرودة داخل الغرف، ما يضفي الكثير من الراحة في أرجائها، ويتميز الطابق العلوي بنوافذه الواسعة التي تلتقط النسيم العليل، أما الحواجز الزخرفية المشيدة فكانت تصد الغبار، وتسمح بالتهوية في آن واحد.

ويشار إلى أن المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، أمر بإنشاء الإضافات إلى القلعة، كإنشاء مبانٍ جديدة للديوان، ومطابخ جديدة، وتوسيع غرف الضيوف حتى تستوعب الأعداد المتزايدة من الزوّار. وشهد القصر توسعة المسجد مع ازدياد أهمية قصر المويجعي كمركز تتمحور حوله أنشطة المجتمع، حيث تزايد عدد الناس الذين يفدون إليه للاجتماع والصلاة والاحتفال.

رحلة تاريخية

تم ترميم قصر المويجعي ليظل شاهداً على مراحل تاريخية مهمة في تاريخ الدولة، وليلبي احتياجات الزوار للمعلومات التاريخية والثقافية، فأصبح متحفاً يوثق ويعرض التراث الثقافي لإمارة أبوظبي، ووجهة سياحية تروي عطش الزوار.

يأخذ القصر زواره منذ لحظة الدخول إليه، في رحلة تاريخية بطراز يدمج بين المعاصرة والتراث في تصميمها الزجاجي المطل على البناء التاريخي دون عزل، حيث يبرز بناؤه المميز، ويأخذهم على المعرض الدائم الذي يقدم تاريخ القصر وساكنيه عبر السنين بشكل عام، ويسرد من خلال العديد من الصور عالية الجودة، والتي تم اتقان تكبيرها التسلسل الزمني لمراحل الحكم في القصر، مع شروحات لأهم الأحداث التاريخية التي تماشت وتلك الفترة، كما يستعرض العديد من مقتنيات المغفور له الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان.

ويبرز من خلال العرض أهمية قصر المويجعي المكانية وثقله التاريخي وكونه وجهة لأفراد المجتمع فترة الحكم، والاكتشافات الأثرية التي تم العثور عليها هناك، ففي 1897م كانت الأدلة الأولى عن تاريخ قصر المويجعي من واقع عملة معدنية تم اكتشافها في الموقع، ودوره في استضافة الرحالة والزوار وأهمية المياه لبقائه وازدهاره.

ولا تنتهي الرحلة بانتهاء المعرض الدائم، حيث إن الرحلة بين جنبات القصر قائمة، فللزوار فرصة التمعن في فناء القصر ومسجده وأبراجه التاريخية، فعملية الترميم التي طالت القصر منحت الزوار القدرة على استكشاف الماضي وجعله مكاناً مميزاً للتعلم وإدراك تلك الفترة التاريخية.

الفنادق التاريخية بالمغرب

في مطلع القرن العشرين

(الجزء الأول)

إكرام عبدي
كاتبة- المغرب

إن تاريخ الفنادق قديم ضارب في عمق الزمن؛ عراقة الضيافة والسفر، هو تاريخ صرح معماري يختزن بين جدرانه ما لا يمكن الإحاطة به في مجلد، كانت تسمى «الخانات» عند العرب، تم إنشاؤها على طول الطرق التجارية بين المدن الإسلامية، فمن بواكير الخانات العربية الإسلامية التي وصل إلينا ذكرها، ما ذكره سعدان بن يزيد - وهو من علماء القرن الثالث الهجري - أنه التجأ إلى أحد الخانات في ليلة مطيرة فيها رعد وبرق، وذلك في عام (262هـ)، فوجد الخان قد شُغلت جميع غرفه وأسِرَّته؛ نتيجة البرد الشديد، وقد انتشرت الخانات على طول الطرق التجارية بين المدن الإسلامية.

وكان أكثر رُوَّاد الخانات من التجار وطلبة العلم، كما يقدم الطعام والشراب مجاناً للفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ومن ثَمَّ أُطلق عليها دار الضيافة، ذلك أن الضيافة العربية مضرب المثل في كل الأرجاء، وضُرب المثل بكثير منهم في هذا المجال في الجاهلية كحاتم الطائي وهرم بن سنان وكعب بن أمامة، فكان علية القوم عند العرب يوقدون النيران ليلاً فوق قمم الجبال العالية، ليهتدي إليها من ضلّ سبيله في الصحراء، وهذا الكرم الحاتمي هو السبب في تأخر ظهور الفنادق في تاريخ بلدان الشرق القديم، وتأخرها عند الإغريق القدامى لاتصالهم الوثيق بأهل الشرق القديم، لتتطور صناعة الفندقة بشكل قانوني وتنظيمي وشكلي عند الرومان، ذلك أن القانون الروماني هو القانون القديم الوحيد الذي نظم صناعة الفنادق.

فالفنادق صناعة رائجة في بلاد العرب من أقصى شرقها إلى أقصى غربها؛ وقد تم ذكر لفظة الفندق في لسان العرب لابن منظور بلفظة الفنتق، قال الفراء: سمعت أعرابياً من قضاعة يقول فنتق للفندق، وهو الخان فندق: الفندق: الخان فارسي، حكاه سيبويه. وقد أكدت المستشرقة الألمانية ريغزيد هونكه، أن كلمة فندق عربية، وأن الفنادق كانت تؤدي مهام اقتصادية، ذلك أن هذه العمائر لا يمكن الوقوف عندها دون استحضار الأبعاد الاقتصادية والدينية والثقافية والقانونية والاجتماعي والتكافلية التي ميزت تاريخ الفنادق في الحضارة العربية الإسلامية.

في العصر الوسيط بالمغرب الأقصى؛ ومع تنامي التجارة الدولية عبر مسافات بعيدة في المتوسط ودخول التجار المسيحيين الغربيين بوفرة مجال المدن الإسلامية، انتعشت الفنادق في الدول الإدريسية والمرابطية والموحدية والمرينية التي تعاقبت على حكم المغرب، كما أولى المرابطون في الفترة ما بين 1056–1147م عناية كبيرة للمرافق التجارية في المدن والأسواق كالفنادق وغير ذلك، إذا كان للفندق دور كبير في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب، ذلك أن قدوم التجار من مختلف البلاد، وبقاءهم لفترات طويلة يستدعي وجود عدد من الفنادق في مختلف مدن المغرب الأقصى من أجل إيوائهم.

في هذه الفترة ستتشكل اللبنة الأولى لنشوء الفنادق؛ وانتقالها من مجرد خان أو نزل بدائي بسيط للضيافة يتكون من دور أو دورين، مربع أو مستطيل الشكل، يضم غرفاً تطل على فناء داخلي مكشوف يتوسطه حوض ماء للشرب والغسل والوضوء، إلى إقامة أكثر راحة متكاملة جمعت بين أماكن لإقامة النزلاء ونومهم، وأماكن لإقامة وراحة خيولهم، حيث أسهمت هذه الفنادق في تحقيق التبادل الحضاري بين هذه الجاليات الأوروبية الوافدة، وبين المجالات الحضرية المغربية، وطيلة العصر الوسيط شكلت بعض المدن المغربية الساحلية مقراً للتبادل التجاري يتعاظم من دون توقف مع التجار المسيحيين، خاصة الجنويين الإيطاليين، الذين حافظوا على احتكار التجارة بالمغرب، لما يقارب أربعة قرون، وصارت الفنادق بجانب وظيفتها الأساسية في إيواء الغرباء التجار الوافدين على البلاد، مخزناً ومكاناً لبيع السلع والمواد التجارية المختلفة، حيث توفر خدمة للتجار الذين ينتقلون من بلد إلى آخر للبيع

والـشراء، وتوفـر لـه في هـذه الأماكـن قـدراً مـن الراحـة والحيـاة الطيبـة، فضـلاً عـن الأمـن والسـلامة؛ لـذا نجـد هـذه المؤسسـات مكتملـة المرافـق مـن حيـث الأماكـن المخصصـة لتخزيـن البضائـع وإيـداع الأمـوال وأماكـن أخـرى للراحـة والنـوم، كـما أسـهمت الفنـادق في إيـواء عابـري السـبيل، ووفـرت لهـم أماكـن لممارسـة شـعائرهم الدينيـة، كـما خصصـت لهـم تجهيـزات للطبـخ والاسـتحمام، وأسـواقاً للبيـع والـشراء، وخاصـة اللاتينيـين المسـيحيين. وحسـبما هـو مسـجل في مرويـات المصـادر التاريخيـة، فقـد ذكـر ابـن جبـير أسـماء الفنـادق التـي نـزل فيهـا في رحلتـه في البـلاد الإسـلامية، كـما أشـاد الحمـيري بمدينـة مراكـش التـي بناهـا يوسـف بـن تاشـفين 470هـ/ 1077م في القـرن الحـادي عـشر، ووصفهـا في كتابـه «الـروض المعطـار في خـبر الأقطـار» بأنهـا أكـبر «مـدن المغـرب الأقـصى، وعظمـت تجارتهـا وتنافـس النـاس في البنـاء فيهـا، وبنيـت فيهـا الفنـادق والحمامـات، وفيهـا قيسـارية عظيمـة البنيـان، وهـي أكـثر بـلاد المغـرب جنـات وبسـاتين وفواكـه، وأكـثر شـجرها الزيتـون»، ذلـك أن مراكـش ظلـت لفـترة طويلـة هـي العاصمـة الأولى للدولتـين المرابطيـة والموحديـة بالمغـرب. وذكـر ابـن حوقـل في كتابـه «صـورة الأرض» الصـادر سـنة 988م، أن «فـاس مدينـة جليلـة، شـقها نهـر وهـي جانبـان، ووصـف أحوالهـا بكـثرة الفواكـه والغـلات والمطاعـم والمرافـق والخانـات»، وذكـر الحمـيري مدينـة سـلا الواقعـة عـلى سـاحل البحـر بـبلاد المغـرب، وهـي مدينـة أزليـة متصلـة بالعـمارة، أحدثهـا يوسـف بـن عبدالمومـن أحـد ملـوك بـن عبدالمومـن، كـما ذكـر ابـن أبـي زرع الأنـدلسي مـا قـام بـه أمـير المسـلمين يوسـف بـن تاشـفين بمدينـة فـاس سـنة 462هـ/ 1070م في كتابـه «روض القرطـاس»: «وبنـى الحمامـات والفنـادق والأرجـاء، وأصلـح أسـواقها وهـذب بناءهـا»...، كـما اهتـم بعـض السـلاطين بعـمارة الكثـير مـن الفنـادق، ووَقَفَهَـا للفقـراء والمسـاكين وأبنـاء السـبيل.

كـما شـيد المرينيـون بعـد سـيطرتهم عـلى الحكـم بالمغـرب خـلال القـرن 13م، مجموعـة مـن الفنـادق الخاصـة بمدينـة فـاس، وكانـت هـذه الفنـادق تخصـص لإيـواء التجـار الأجانـب خاصـة الميورقيـين والكطلانيـين، وأولـت السـلطة الحاكمـة عنايـة خاصـة بهـا، فأغلبهـا كانـت تتبـع ملكيـة الدولـة مـن بـاب الهيمنـة عـلى النشـاط التجـاري، أو تخضـع لملكيـة الخـواص مثـل فنـادق بنـي فـدة، وأبـي خنوسـة، الرضـاع، السـلجوم، واشـتهر مـن بـين هـذا الصنـف، فنـدق «ابـن حيـون» وموقعـه في الجهـة الشرقيـة مـن جامـع

القرويـين بفـاس، وكانـت فنـادق فـاس تطلـع بمجموعـة مـن الوظائـف مـن أهمهـا إيـواء الغربـاء، وإبـرام الصفقـات، وتخزيـن البضائـع قبـل توزيعهـا عـلى الأسـواق، ونتيجـة لذلـك، فقـد حملـت بعـض الفنـادق اسـم البضائـع التـي كانـت تختزنهـا كفنـدق الشـماعين، وفنـدق الزيـت، كـما وافـق سـلطان المرينيـين في المغـرب أبـو يعقـوب يوسـف المرينـي (ت 706هـ) عـلى إعـادة ترميـم فنـدق الشـماعين بمدينـة فـاس بعدمـا خـرب، وجعلـه حبسـاً لـرُوَّاد جامـع المدينّـة، كـما ذكـر المقـري في نفـح الطيـب.

وبعـد تفجـر الـشرارة الأولى للثـورة الصناعيـة في بريطانيـا، باكتشـاف الآلـة البخاريـة في القرنـين الثامـن عـشر والتاسـع عـشر؛ سـتنشط حركـة السـفر بشـكل كبـير، خاصـة عـبر الأطلـسي، وبـات الأثريـاء بحاجـة إلى أماكـن للإقامـة تليـق بهـم، فشـهدت هـذه الفـترة نقلـة نوعيـة هائلـة في تطـور الفنـادق، فصرنـا نتحـدث بالمغـرب عـن الفَنْـدَق (بفتـح الفـاء)، أحـد المكونـات المعماريـة لنسـيج المدينـة بالفضـاء المغـربي، يرتسـم مـن خلالـه تاريخهـا بتفاعلاتـه الاجتماعيـة والاقتصاديـة والثقافيـة، وتأثيرهـا في نسـيجها الحـضري، حيـث سـيتحول الفَنْـدَق إلى مؤسسـة تجاريـة معقـدة التنظيـم، لا تنحـصر في بعدهـا الوظيفـي المعهـود، بـل تتجـاوز حـدوده إلى مهـام مـن قبيـل إيـواء الغربـاء، وابـن السـبيل، والمتعبـد، والتاجـر، كـما تـم تأطـير هـذه المؤسسـات مـن ذوي السـلطة والنفـوذ عـلى اختـلاف مواقعهـم، لتصـير أكـثر تنظيـماً، وعـاش بهـا القناصلـة، ومـن جهـة أخـرى، اسـتقر بهـا أهـل اللهـو، والمجـون، والبغـاء، وسـجِن بهـا مـن كان خارجـاً عـلى الطاعـة في بعـض الأحيـان، ناهيـك عـن توافرهـا عـلى فضـاءات مخصصـة لإيـواء البهائـم، تمامـاً كـما هـي عليـه الحـال في العديـد مـن السـقايات التـي كانـت توفـر جهـة لسـقي البهائـم بالمـوازاة مـع السـقاية الرئيسـة التـي يـشرب منهـا النـاس ويرتـوون.

في مطلـع القـرن الـ20 تأزمـت الأوضـاع الداخليـة في المغـرب، وتزايـدت الضغـوط الاسـتعمارية، ففرضـت الحمايـة الأجنبيـة عـلى المغـرب سـنة 1912، وواجـه المغـرب المعتـز بكيانـه وهويتـه، الظاهـرة الكولونياليـة وصدمـة الحداثـة، ومـا تعنيـه مـن ضرورة انخـراط فـي تبعـية سياسـية واقتـصادية وثقافـية عميقـة وطـويلة المـدى، وصـدام بيـن نمطيـن حضاريـين مختلفيـن جـذرياً، وسيشـهد الإرث الحـضري المغـربي العريـق والأصيـل تحـولات هائلـة، وتغـيرات عميقـة، إثـر خضـوع المناطـق الشـمالية للمغـرب للاسـتعمار الإسـباني طيلـة الفـترة مـا بـين 1912 و1956، عـلى غـرار المنطقـة الجنوبيـة التـي خضعـت للاسـتعمار الفرنسي، وذلـك انسـجاماً مـع بنـود معاهـدة الحمايـة التـي وقعـت يـوم 30 مـارس 1912 بفـاس، والاتفـاق الفرنـسي الإسـباني ليـوم 27 نوفمـبر 1912 الـذي وقـع بمدريـد، هـذا الأخـير سـيأتي محمـلاً بنمـوذج حـضري جديـد، مهمشـاً النمـوذج القديـم، ومحـاصراً لـه، وسـتطغى العـمارة الكولونياليـة بتفاصيلهـا الموريسـكية عـلى معـمار المدينـة، وذلـك مـرده إلى الخطـة المعماريـة التـي انتهجتهـا الـدول الاسـتعمارية بالمغـرب، الراميـة إلى نقـل ملامـح أوطانهـا الأم وبناياتهـا إلى بقيـة المـدن المغربيـة الكـبرى، واسـتقطاب عـشرات المهندسـين المعماريـين الأوروبيـين مـن فرنسـيين وغـير فرنسـيين، وجـدوا في المغـرب المـكان الـذي يتيـح لهـم العمـل بحريـة كبـيرة بعيـداً مـن القيـود التـي كانـت مفروضـة عليهـم في أوطانهـم الأصليـة، فعملـوا عـلى تنفيـذ مشـاريع عمرانيـة رائـدة تُـدرس اليـوم في الجامعـات ومعاهـد الهندسـة المعماريـة، وتطبيـق العديـد مـن النظريـات الجديـدة التـي كانـوا قـد تعلّمـوها في المعاهـد الفنيـة والجامعـات، منهـا «معهـد الفنـون الجميلـة» في باريـس، مـن هـذه التجـارب الرائـدة ولـدت مـدن حديثـة تلاقـت فيهـا الثقافـات، تمـزج بـين المؤثـرات الشرقيـة والغربيـة والإفريقيـة في بوتقـة واحـدة، وشـكّلت إلى اليـوم نسـيجاً معماريّـاً مميّـزاً منحهـا طابعهـا الخـاص.

سأسـلط الضـوء عـلى بعـض هـذه الفنـادق التاريخيـة التـي ظلـت صامـدة إلى اليـوم، التـي انبجسـت بعـد الحمايـة الفرنسـية للمغـرب في المـدن المغربيـة كطنجـة والـدار البيضـاء والربـاط وفـاس ومراكـش، التـي ظلـت تقـاوم عـوادي الزمـن، وتعانـد شـامخة كتحـف معماريـة حقيقيـة تـؤرخ لصدمـة الحداثـة، ولدخـول المدينـة عهـد العصرنـة، كـما شـكلت نموذجـاً للعـمارة الكولونياليـة بتفاصيلهـا الموريسـكية، وشـاهدة عـلى اختيـارات جماليـة حداثيـة أوروبيـة، وتحـوّلات المجتمـع المغـربي.

«السنع»

موروث ثقافي ومدرسة للأخلاق

د. نبيل سالم
كاتب ـ فلسطين

تعدّ العادات والتقاليد ذات أهمية كبيرة بالنسبة لأي مجتمع؛ لأنها تتشكل على مدى زمن طويل، وتتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل، لدرجة أنها تشكل مع مرور الوقت ملامح وهوية هذا المجتمع أو ذاك، وتميزه عن غيره من المجتمعات، ما يعني أنها تحدد هويته الوطنية، كما تلعب العادات والتقاليد دوراً محورياً في بلورة الثقافة الشعبية، التي ترسم وتحدد طرق التعامل بين أفراد المجتمع، وتعامله أيضاً مع المجتمعات والشعوب الأخرى.

ويجب الانتباه إلى أن العادات والتقاليد من المفاهيم التي يصعب تحديدها بشكلٍ عام، وذلك لاتصالها بمفهوم الثقافة، وهي مصطلح أكثر شمولية، حيث يمكننا القول إن العادات والتقاليد تمثل جزءاً من الثقافة المجتمعية، التي غالباً ما تكون مرتبطة بحالات زمنية قديمة، وخارجة عن مجال التدوين المكتوب.

ولذلك يصعب دراسة العادات والتقاليد بمعزل عن الإطار التاريخي، والتطور الذي يطرأ على المجتمعات لأجيال متلاحقة، وعلى مدى عشرات وربما مئات السنين، حيث تبقى هذه العادات والتقاليد في الذاكرة الجمعية، وتغدو عوامل مهمة لتقوية الروابط الأسرية، والإلفة والمحبة والانتماء، ويظهر ذلك جلياً في كثير من المناسبات الدينية والأعياد، وحتى عبر العادات اليومية للبشر، في إطار منظومة من القيم والقواعد الأخلاقية التي تنظم علاقات الناس ببعضهم بعضاً.

فكما هو معلوم، «تعرف القيم بأنها: مجموعة المفاهيم والمواقف والضوابط والأحكام، التي تحدد ما هو مرغوب فيه في مجتمع معين، وثقافة معينة، حيث يعمل أفراد هذا المجتمع من خلالها على صياغة الأهداف والمثل المقررة لسلوكهم، والمنظمة لعلاقاتهم الاجتماعية».[1]

وبالتوقف عند السنع، وهو موضوع هذه العجالة، نلاحظ أن المجتمع الإماراتي كغيره من المجتمعات العربية، حافظ على عاداتٍ وتقاليد أصيلة، شكلت مع الزمن هويته التي يُعرف بها الآن، إذ يتوارث الإماراتيون العادات هذه جيلاً تلو الآخر؛ حرصاً منهم في الحفاظ على تراثهم الحضاري، فبات للسنع آداب وقوانين، وكأنها الدستور في الأخلاق والصفات الحميدة التي تحكم تصرفات الفرد في تعاملاته وعلاقاته مع الآخرين.

ويعرف السنع في الإمارات بأنه مجموعة الصفات التي يجب التحلي بها، في مختلف مناشط الحياة، مثل الضيافة واللباقة في التصرّف، وحسن اختيار الكلمات، وطريقة تبادل الحوارات مع الآخرين، والتسامح وتقبل الآخر، والتي بمجموعها تقود إلى إنسان يتمتع باللباقة والأخلاق الحسنة.

والحقيقة أن هذه الصفات التي يتسم بها الشعب الإماراتي ليست آتية من الفراغ، وإنما هي امتداد لتراث قديم وعريق، وعادات اتصف بها أهل الصحارى من البدو، حيث الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف، واحترام الضيف، والصدق والصبر على المصاعب، وهي صفات تناولها كثير من الباحثين الذين خالطوا البدو، ووصفوا أحوالهم وصفاتهم، وأخلاقهم ومزاياهم، كما جاء على لسان عباس العزاوي، في كتاب «ذاكرة الصحراء» لعمار السنجري، حيث يقول: «إن ضيق المعيشة – التي

عاشها البدو – وقلة الموارد، قد تجعل المرء في لبس من تصديق أن البدوي (لا يكذب)، وأنه صريح القول، ينفذ ما عزم على فعله، وما قطع في أمره، وهو في هذه الحالة لا يشهد كذباً ولا يحابي، وفيه من الشمم والإباء والعفة بمعناها الصحيح وإكرام الضيف وحمى الجار والنزيل لا يوصف».[2]

ومن خالط البدو من الرحالة الأجانب، ومنهم الرحالة ويلفر ثيسجر،[3] وقبله برترام توماس،[4] اللذان شعرا بالأمان بين البدو، وبتلك العلاقة الحميمية معهم، ويصف ثيسجر تلك العلاقة بقوله: «إن سير المرء وحيداً عبر هذه الوحشة المروعة هو إنجاز هائل، وها نحن نسير فيها الآن، ونحمل معنا عالمنا، عالماً صغيراً مؤلفاً من خمسة أشخاص، عالماً قدم لكل منا روح الزمالة مع ما يرافقها من الضحك والحديث والثقة بأن الآخرين مستعدون لمواجهة الصعاب والأخطار، وكنت أدرك أنني لو سافرت هنا وحيداً لكانت وطأة هذا المكان الموحش حطمتني كلياً».[5]

وعن شعوره بالأمان بين البدو يقول ثيسجر: «لأنني كنت مسافراً مع هؤلاء البدو فقد كنت تحت رحمتهم، وكان بإمكانهم قتلي في أي وقت، ومع ذلك كانت ثقتي بهم مطلقة، بحيث لم يخطر ببالي أبداً أنهم قد يغدرون بي». والحقيقة أنه يمكن تعريف السنع، بأنه فن الإتيكيت، أو فن التعامل مع الآخرين استناداً إلى القيم والعادات الإماراتية العربية والإسلامية الأصيلة المتوارثة عن الأجداد، حيث يشمل السنع مختلف القواعد التي تنظم سلوك الأفراد، خلال تعاملاتهم اليومية، مثل: احترام الأكبر سناً، والشجاعة والنخوة والشهامة والإخلاص للآخرين وكرم الأخلاق والأمانة والتطوع والضيافة وآداب المجلس، بالإضافة إلى آداب الطعام والترابط والتكاتف، وآداب التحية والسلام واحترام المهنة والعمل اليدوي وحب الغير والإيثار».[6]

ومن أهم المثل البدوية المعروفة المروءة والكرم والشرف والشجاعة، وحماية الجوار والدفاع عن العرض، واحترام الكبير، وتكريم الضيف، حيث تعد هذه المثل بمثابة قوانين غير مكتوبة، يجمع عليها كل أفراد المجتمع الإماراتي».[7]

ونرى السنع في كثير من تفاصيل الحياة اليومية في الإمارات، فنلمسه بكل وضوح في تلك اللباقة في التصرف، واختيار الكلمات، وطريقة الحوار، وحتى في تقديم الطعام وصب القهوة، وفي السفر والترحال.

ويولي الإماراتيون، على اختلاف توجهاتهم، أهميةً كبيرة لضرورة تناقل آداب السنع في الإمارات، والتزامها، والتي تتمحور في آداب التخاطب، والكرم وحسن الضيافة، والشهامة واحترام الكبير، واحترام المرأة، والترابط

الأسري، والفزعة ومساعدة الآخرين، وهي صفات تلعب دوراً كبيراً في تأصيل الروابط بين أفراد المجتمع، وبث الشعور بالسرور والطمأنينة في نفوسهم.

كما تعمل العادات والتقاليد، ومنها السنع، على سد الفجوة بين الأجيال، ذلك من خلال توارث واستمرار تناقل التقاليد من جيل إلى جيل آخر، من خلال الحديث عن الذكريات والقصص المختلفة المحببة، زد على ذلك أنه عندما يقوم الشخص باتباع تقاليد عائلته وشعبه، فإن ذلك من شأنه أن يثبت نفسه، ويعتز بهويته، ويكتشفها من دون الشعور بالضياع أو عدم الانتماء، وهو ما يعني تعزيز الانتماء الوطني والهوية الوطنية.

ويندرج تحت يافطة السنع في الإمارات كثير من العادات المحببة، التي باتت تشكل مع مرور الوقت الشخصية الإماراتية بامتياز، لذلك قررت الحكومة تدريس هذه الآداب في المدارس، كما نظمت وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع في يونيو من العام 2010 الجلسة الحوارية الأولى من مبادرة السنع، تحت عنوان «أعتز بأصالتي»، وذلك في المركز الثقافي بإمارة الفجيرة، ضمن استراتيجية الوزارة الهادفة إلى الحفاظ على التراث، والتمسك بالتقاليد والأعراف الأصيلة، وترسيخ قيم الثقافة المجتمعية، والتواصل مع الإنسان الإماراتي، بما في ذلك توثيق السنع ونقلها إلى الأجيال الحالية والاهتمام بالسلوك والآداب التي اعتاد مجتمع الإمارات ممارستها.[8]

وفي هذه الجلسة تمت الدعوة إلى تعبئة الطاقات الوطنية الشابة والمحافظة على التواصل بين الأجيال، والارتقاء بالسلوك الحسن وتعزيزه لدى الناشئة.

وفي عام 2019 أقامت وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع ورشة تهتم بتعريف الطلاب مجموعة من المفاهيم والعادات والتقاليد التي اعتادها أفراد المجتمع في الإمارات والقيم المجتمعية والسلوكية التي تعد جزءاً من الهوية الإماراتية.[9]

أخيراً يمكننا القول إن السنع هو التمسك بأدق التفاصيل الواجب مراعاتها في العلاقات الاجتماعية، بدءاً من السلام على الآخرين إلى أساليب الضيافة، وتقديم القهوة، وآداب المجالس، كطريقة السلام على الحاضرين، والوقوف لاستقبال الضيف، وترديد عبارات الترحيب به، واحترام كبار السن، وعدم وضع رجل فوق الأخرى، وقواعد الجلوس وغيرها، كسنع تبادل الزيارات، مثل أهمية اختيار أوقات الزيارات، واحترام المواعيد بالإضافة إلى تقاليد الاحتفالات وتناول الطعام، واختيار الموضوعات المناسبة للحديث عنها على المائدة، وعدم الضحك أثناء الأكل، وعدم انتقاد الطعام على المائدة.

وباختصار نقول إن السنع تعد مدرسة حقيقية، تعلم الآداب والسلوكات الأخلاقية الحسنة، التي لابد منها لبناء مجتمع حضاري ومستقبل مزهر.

1. العادات الاجتماعية والثقافية في الإمارات – دراسة أ. د. العاني – عبد اللطيف محمد، مجلة كلية الآداب – جامعة بغداد، العدد (57).
2. كتاب ذاكرة الصحراء – السنجري عمار – دار البارودي ص 88.
3. رحالة بريطاني، ولد في أديس أبابا عام 1910، وتوفي عام2003. سافر إلى الجزيرة العربية، وله كتب عدة، أشهرها كتاب «الرمال العربية».
4. برترام (1893-1950)، رحالة وعالم إنجليزي متخصص في الأنثروبومترية، وهو أول مستشرق يعبر صحراء الربع الخالي.
5. كتاب ذاكرة الصحراء – السنجري عمار – دار البارودي ص89.
6. جريدة الإمارات اليوم 9 أكتوبر 2016.
7. العادات الاجتماعية والثقافية في الإمارات – دراسة أ. د. العاني – عبد اللطيف محمد، مجلة كلية الآداب – جامعة بغداد العدد (57).
8. صحيفة البيان الإماراتية 30 يونيو 2010.
9. الموقع الإلكتروني لوزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع.

الصناعات النسيجية التراثية في دمشق

م. رانا زكريا زيدان
مهندسة معمارية- سوريا

تعدّ صناعة المنسوجات الحريرية من المهن اليدوية العريقة، وامتازت دمشق بنسج الحرير الطبيعي مع خيوط الذهب والفضة منذ القدم، وكانت تقدّم للعالم أجود أنواع الأقمشة الموشّاة بدقة وإتقان، وتفتخر دمشق بأنها ألبست أقمشتها لملوك وأمراء العالم، بعد أن ذاع صيتها في أنحاء المعمورة، وتعدّ أقمشة «البروكار» و«الدامسكو» من أشهر صناعاتها النسيجية، فهي تشكّل الذاكرة الجميلة لصناعة النسيج السورية، وتعبّر عن تراث سوريا وعراقة صناعة النسيج فيها عبر التاريخ الموغل في القدم.

البروكار الدمشقي الذي ارتدته الملكة إليزابيث الثانية في زفافها

حيث أنشأ الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان معملاً لنسج الحرير بالقرب من قصره في دمشق عام 665 ميلادي، وعرفت منسوجاته بالطراز، وتأثّرتْ منسوجات العصر الإسلامي الأول بأسلوب الفن الساساني والبيزنطي، ثمّ ظهرت التأثيرات الإسلامية التي اتسمت بتدرّج التحديدات للأشكال والرسوم، وقد نقل العرب نسيج الدامسكو إلى الأندلس عند دخولهم إسبانيا، فنقلوا معهم فنونهم وصناعاتهم، وبعدها ظهرت التأثيرات السلجوقية في براعة استخدام أشجار النخيل في الزخرفة، وتميز إنتاج الحرير الدمشقي في أواخر العهد الأيوبي وخلال العهد المملوكي حتى وصل إلى أكثر من أربعين صنفاً، ويذكر أنّ تجارة الحرير شهدت تراجعاً في القرن الثامن عشر، بعدما فرضت الحكومة العثمانية ضرائب كبيرة عليها، ما أدى إلى كسادها لمنافسة الأقمشة الأوروبية المستوردة، واقتصرت مشتريات التجار الفرنجة على الأنسجة الحريرية الدمشقية، ثم عادت وازدهرت صناعة الحرير في القرن التاسع عشر.

وقد خصّ كتاب «قاموس الجغرافيا القديمة والحديثة» المطبوع في باريس عام 1854م دمشق بهذه العبارات «هي المدينة الأكثر أهمية والتي تأتي في المرتبة الأولى في الصناعة في الشرق كلّه»، وكان قد سبقهم الإدريسي وتحدث عن المنسوجات الدمشقية خلال زيارته عام 1116م، فقال «مدينة دمشق جامعة لصنوفٍ من المحاسن، وضروبٍ من الصناعات، وأنواعٍ من ثياب الحرير، كالخز والديباج الثمين ليحمل منها إلى كلّ بلد»، كما نوّه أبو البقاء البدري في القرن التاسع للهجرة بقوله «ومن محاسن دمشق ما يصنع فيها من القماش على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه، ومنها عمل القماش الأطلس بكلّ أجناسه وأنواعه،

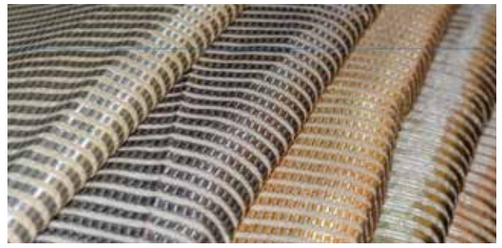

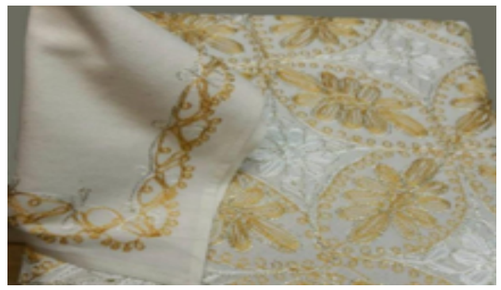

والقماش الهرمزي على اختلاف أشكاله، والقماش السابوري اللمّاع بجميع ألوانه، ومنها صناعة الحرير بالفتل والدواليب والسرير».

وقد أعطتْ دمشق اسمها للمنسوجات الحريرية التي تسمّى الدامسكو، وعثر على أول ذكر للدامسكو في تل العمارنة الأثري في مصر.

ومن أشهرالمنسوجات التي تميزت بها دمشق:

1- التبّة والآلاجة: وهو نسيج من حرير وقطن، تركّز نسجه بشكل خاص في دمشق، وينسج بأشكال وأنواع مختلفة، وكانت منسوجات الآلاجة المعروفة بالصاية بمنزلة الزي الشعبي لمعظم السوريين حتى أواسط القرن العشرين، وتعد الصاية صناعة دمشقية منذ مئات السنين، وكانت الزي المفضل لشيوخ ووجهاء العشائر، إضافة إلى رجال الدين. وتصنع هذه المنسوجات على أنوال يدوية، وتكون نقشتها على شكل خطوط ملونة طويلة، وتستخدم لصناعة العباءات العربية ولصناعة (القنباز – الميتان - الجاكيت من دون أكمام)، وكان يصدّر إلى الأناضول ومصر والحجاز والعراق.

2- الديما: هي أثواب من القطن، وهي تقليد لنسيج الآلاجة، وأول من اخترع قماش «الديما» هو رجل دمشقي اسمه عبدالمجيد الأصفر، ثمّ انضمّ إليه حسن الخانجي، ولاتزال هذه الصناعة تنسج على الأنوال اليدوية في أحياء دمشق القديمة.

3- الأغباني: هو نسيج قطني بمواصفات خاصّة توشّيه وتطرّزه زخارف بخيوط من حرير أو قصب، وهو من مفاخر المنسوجات الدمشقية، وهو رمز للأصالة والتراث العريق، وقد وجد أيضاً في حلب وكان ينسج على الأنوال اليدوية التقليدية، ويوفّر رقة اللحمة والسّدى، ويستعمل في الوقت الحاضر كأغطية للموائد ويوجد على القماش رسوم مطرّزة لكلّ رسم اسم خاص به، مثل (جوكلان - زهر الغريب - الوردة السباعية).

4- البُروكار: هو نوع من أشْهر وأفخر الأقمشة الدمشقية باهظة الثمن، والمنسوجة يدوياً من خيوط الذهب والفضّة والحرير الطبيعي منْذ قرون، ويحاك على نول خشبي، وقد تفرّد الدمشقيون بدقة صناعته وتمكنوا من رسم الزخارف بخيوط زاهية وملوّنة، واقترن البروكار عالمياً باسم دمشق.

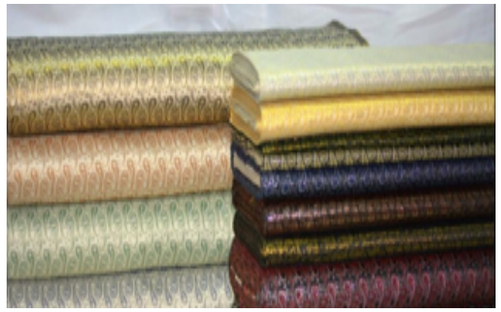

5- الدامسكو: هو نوع من الأقمشة الحريرية يشبه البروكار، ويسمّى (الوشي)؛ أي القماش الموشّى بالرسوم، وتأتي النقوش المصنوعة على أنوال يدوية، وتتألف من أنواع عدّة (الأطلس – الشابوري -الهرمزي)، ونقل العرب نسيج الدامسكو إلى الأندلس فنسب إلى دمشق.

تتميز أقمشة الدامسكو عن البروكار بنقشاتها الهندسية أو النباتية الجامدة، وهي ذات حجم كبير، ولا تحوي شخصيات، على عكس البروكار الذي يمكن أن تكون رسومه صغيرة ذات تكرار قليل.

رافق النهضة الصناعية في خمسينيات القرن التاسع عشر ازدهار تجاري واقتصادي كبير، ما أدّى إلى تصدير الأقمشة الحريرية إلى القدس ومصر وإيران وتركيا حتى أوروبا، وتوافرت مادة الحرير الخام بأسعار زهيدة، بسبب قربها من مراكز الإنتاج، ما انعكس على رخص الإنتاج الدمشقي وجودته، مما أكسبه شهرة عالمية، وأدى لزيادة الطلب عليه، والجدير بالذكر أنّه مع بداية القرن العشرين، تراجعت صناعة المنسوجات الحريرية في سورية، بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية، ولسيطرة فرنسا على المادة الخام، فعززت دمشق صناعة البروكار لمنافسة المنتجات الأوروبية، وقد تراجع إنتاج الحرير بعد الحرب العالمية الأولى، ما أدّى لارتفاع أسعار منتوجاته، وقد عمدتْ سورية لتصدير خيط الحرير السوري الجيد على شكل شرانق إلى مدينة ليون الفرنسية، فكانت فرنسا تستورد كامل الكمية الفائضة من إنتاج ورشات الحرير المحلية في دمشق، ويذكر أنّه في مرحلة الحرب العالمية الثانية عاد الانتعاش لصناعة الحرير، بسبب استخدامه في صناعة مظلات الطيارين.

لقد مرّتْ صناعة الحرير بتطور مواكبةً للزمن، فتدرّجت من النول اليدوي الخشبي إلى نول آلي، ثمّ النول الإلكتروني، ليكون الإنتاج سريعاً وذا دقّة عالية، ويعتبر النول الموجود في مدرسة عبدالله باشا العظم، بالقرب من متحف التقاليد الشعبية في دمشق القديمة، الشاهد الوحيد على ماضٍ مجيد، مع العلم أنّه من القرن التاسع عشر كانت أكثر البيوت الدمشقية، وخاصّةً في الصالحية، تمتلك نولاً خاصاً تنسج به ما تشاء، ولايزال خان الحرير الذي يقع في سوق الحرير جنوبي الجامع الأموي، شاهداً على ما وصلتْ إليه الصناعة النسيجية السورية من روعة وإتقان.

كنيسة ودير صير بني ياس

تكشف عن حقبة مهمة من تاريخ الإمارات

عبير يونس
كاتبة - سوريا

قد تخفي الرمال عالماً مختلفاً كان موجوداً في إحدى الحقب التاريخية، ولكن يمكن للحفريات الأثرية أن تكشف ما خبأته الأرض لمئات السنين، لترفع ذلك التاريخ، وكل ما يحتويه من معالم ومعلومات إلى السطح، وتكشف بالتالي عن قصص تاريخية مهمة، وهو ما يحدث في الإمارات بين فترة وأخرى، مثل كنيسة ودير صير بني ياس، التي تعدّ أول موقع أثري مسيحي يتم اكتشافه في دولة الإمارات العربية المتحدة، وهو ما يقدم للعالم دلالات ثقافية غنية على النمط المتنوع لحياة المجتمعات التي سكنت في المنطقة عبر العصور المتعاقبة، إذ يعود تاريخ بناء الكنيسة والدير إلى القرن السابع والثامن الميلادي.

وقد هذه المعلومات وغيرها أصبحت متاحة للجمهور، وذلك بعد أن تم ترميم الموقع وتجهيزه وفتح أبوابه أمام الجميع في العام 2019 لأجل أن يتعرفوا إلى فصل مهم من فصول تاريخ دولة الإمارات.

قيمة تراثية:

منذ اكتشاف الموقع الأثري لكنيسة وادي صير بني ياس، لاقى الموقع اهتماماً كبيراً من المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة، نظراً لقيمته التراثية والثقافية العميقة، وكونه دليلاً تاريخياً مهماً، وجزءاً من التراث الحضاري للدولة، فوجه حينها، رحمه الله، بالحفاظ على الموقع وترميمه والعمل على تحسينه.

أما قصة اكتشافات الدير، فقد جاءت على مراحل بدءاً من عام 1992، حين تم اكتشاف مباني الموقع، تبع ذلك العديد من أعمال التنقيب لاستكشاف المهاجع الشرقية والشمالية بالدير والكنيسة والسور المحيط والمنازل ذات الفناء.

وفي عام 1994 ثبت أن المخطط المعماري للموقع يعود لكنيسة، إذ عثر على أول الصلبان المصنوعة من مادة الجص. ولكن رغم ذلك لم يتم تعريفها ككنيسة لعدم العثور على شكل الصلبان المميزة للكنيسة ضمن قطع الجص القليلة التي وجدت في الموقع، والتي زُينت بزخارف دقيقة. ومن بعد ذلك عُثر على مئات من البقايا الأثرية في الكنيسة والدير والمنازل القريبة منهما، والتي أظهرت اعتماد السكان على البحر في الحصول على الغذاء، بالإضافة إلى رعي الماشية والأغنام والماعز. بينما يشير الزجاج والسيراميك في الموقع إلى تجارة السكان الواسعة في تلك الفترة عبر الخليج العربي.

وأثناء العمل كانت تظهر في الموقع معلومات مهمة

عن كنيسة وديـر صـير بنـي يـاس، الـذي يتمتـع بأهميـة اسـتثنائية، وكانـت التدخـلات المقـررة تتـم بعنايـة كبـيرة للحفـاظ عـلى الموقـع منـذ الانتهـاء مـن أعـمال التنقيـب الأثريـة الأولى، حيـث تـم بنـاء منصـة للـزوار فـوق الكنيسـة عـام 2010، وفي الوقـت ذاتـه تمـت إعـادة دفـن معظـم الديـر.

وفي الفـترة مـا بـين عامـي 2015 و2016 اسـتكملت إدارة البيئـة التاريخيـة في دائـرة الثقافـة والسـياحة – أبوظبـي، وضـع خطـة للحفـاظ عـلى موقـع الكنيسـة كجـزء مـن خطـة أوسـع لإدارة الجزيـرة بأكملهـا. وكانـت هـذه الخطـة بمثابـة الفرصـة لجمـع كثـير مـن المعلومـات الدقيقـة عـن الموقـع وتقييـم حالتـه، بالإضافـة إلى وضـع سياسـات لأعـمال الحفـر والأبحـاث المسـتقبلية، وأعـمال الترميـم والإدارة والحفـاظ عـلى مظهـر الموقـع.

وفي عـام 2018، شرعـت الدائـرة بتصميـم وتنفيـذ حلـول جديـدة لحمايـة الموقـع التـي مـن شـأنها ضـمان الحفـاظ عـلى البقايـا الأثريـة مـن المخاطـر البيئيـة الحاليـة، والتقليـل مـن التأثـير البـصري والمـادي فيهـا، وكذلـك تعزيـز تجربـة الـزوار.

وجهـزت منصـة الـزوار الجديـدة في موقـع كنيسـة وديـر صـير بنـي يـاس بأحـدث الإجـراءات الوقائيـة التـي تعكـس خـبرة الدائـرة في مجـال الحفـاظ عـلى الـتراث والتزامهـا تحقيـق حمايـة مسـتدامة وطويلـة المـدى للمواقـع الأثريـة، كونهـا تتميـز بتصميـم متخصـص للغايـة يتسـم بالمرونـة والقابليـة، بهـدف توفـير حمايـة فعّالـة وشـاملة ضـد المطـر والحـرارة والرمـال والريـاح وتعشـيش الطيـور. وتتضمـن نظـام تصريـف للميـاه مـع مسـار مرتفـع للمشـاة تتخللـه نقـاط شرح تدعـم فهـم الزائـر وتقديـره لتفاصيـل الموقـع.

كـما تـم تصنيـع وحـدات التظليـل الخاصـة بالمنصـة بسـقف مصنـوع مـن مـادة «التفلـون»، وهـي مـادة شـديدة التحمـل توفـر الإضـاءة الطبيعيـة ودخـول الهـواء، وتـم تصميمهـا بحيـث تسـهل الرؤيـة عـلى الـزوار، مـع الأخـذ بعـين الاعتبـار إمكانيـة توسـيعها في المسـتقبل إذا تـم العثـور عـلى اكتشـافات جديـدة حـول الموقـع، وتـم أيضـاً تزويـد المنصـة بإضـاءة صناعيـة لاسـتقبال الجـولات المسـائية.

جولة تاريخية:

خـلال الجولـة في الموقـع يمكـن التعـرف إلى أجـزاء الكنيسـة والديـر، التـي تعـود إلى القرنـين السـابع والثامـن الميلاديـين، وهـي المهجـع الشرقـي الـذي تـم اكتشـاف غـرف عـدة فيـه، ويرجـح أنها تشـكل أحـد المهاجـع المتصلة

بالكنيسـة، حيـث كان يعيـش الرهبـان في الغـرف الصغـيرة منهـا والتـي تحتـوي عـلى جـدران وأرضيـات مغطـاة بالجـص، وتـم العثـور عـلى عـدد قليل مـن المكتشـفات في هـذه الغـرف، كـما تـم العثـور عـلى عـدد كبـير مـن عظـام الأسـماك وبقايـا أنـواع عـدة مـن المخلوقـات البحريـة في المطبـخ، بمـا يـدل عـلى نوعيـة النظـام الغـذائي لسـكان الجزيـرة.

ومـن خـلال قطـع الآثـار الأخـرى المكتشـفة، يمكـن التعـرف إلى قصـة سـكان الديـر الذيـن اعتمـدوا بشـكل أسـاسي عـلى البحـر في غذائهـم، وكانـوا يصطـادون الأسـماك وغيرهـا مـن المخلوقـات البحريـة، بجانـب تربيـة الأغنـام والماعـز. كـما تـدل آثـار أخـرى عـلى تفاعـل الجماعـات المسـيحية مـع العـالم المحيـط رغـم بسـاطة عيشـها وانعزالهـا، حيـث تـدل الأواني الفخاريـة والزجاجيـة، وخاصـة الثمـين والمسـتورد منهـا، على التجـارة عبر الخليـج العربي وصـولاً إلى الهنـد وكانـت هـذه التجـارة مهمـة اقتصاديـاً. وسـمحت بالاتصـال بالمجتمـع المسـيحي الأوسـع لجماعـة الجزيـرة، بينـما يبـين الختـم المزيـن بنقـش شـجرة النخيـل والعقـرب مثـالاً عـلى الحـلي المكتشـفة في الموقـع.

وهكـذا أدى هـذا الاكتشـاف إلى أن يسـطع اسـم موقـع ديـر وكنيسـة صـير بنـي يـاس للعـالم، مـن جديـد بعـد مـرات ذكـر فيهـا اسـم الجزيـرة التـي تحتـوي الموقـع في عصـور تاريخيـة متنوعـة، حيـث أشـار تاجـر المجوهـرات الرحـال كاسـبارو بالبـي، مـن مدينـة البندقيـة، إلى الجزيـرة في عـام 1590 باسـم «صـير بنـي ياسـت» ووصفهـا بأنهـا جزيـرة يصيـد فيهـا الغواصـون اللؤلـؤ، كـما ورد وصفهـا في الفـترة بـين عشرينيـات وخمسـينيات القـرن التاسـع عـشر، في سـجلات ضبـاط البحريـة البريطانيـة بالتفصيـل أثنـاء مسـحهم ميـاه الخليـج العـربي.

الخنجر العماني

حسين الهاشمي
كاتب - عمان

الخنجر العماني من أشهر الرموز في سلطنة عمان، يمكن رؤيته على العلم العماني، وعلى الأوراق النقدية العمانية، وفي كل الوثائق الرسمية، وكتب المدارس، يلبس الرجال هذا الخنجر في التجمعات والمناسبات الرسمية وغير الرسمية، لكن مؤخراً، انخفض عدد الرجال الذين يحملونه، دعونا نتعرف إلى هذا الخنجر التقليدي وتاريخه وما يرمز إليه.

قامت السلطنة، ممثلة في وزارة التراث والثقافة، بجهود كبيرة في المحافظة على التراث الثقافي غير المادي للسلطنة، من خلال العمل على توثيقه وصونه على الصعيد الوطني والدولي، وفي هذا الإطار قامت خلال السنوات الماضية على إعداد ملفات ترشيح للعديد من العناصر الثقافية التي من بينها ملف الخنجر العماني.

حيث قامت الوزارة بإعداد ملف الخنجر، كونه عنصراً من عناصر الهوية والأصالة العمانية المتمثلة في مهارة صناعته واتخاذه كهوية وطنية للباس العماني في مختلف المناسبات؛ لذلك قامت الوزارة بصياغة ملف للترشيح وفقاً للمعايير الفنية الدولية المعمول بها مثل هذه الترشيحات، حيث اشتمل الملف على العديد من الجوانب المتعلقة بالنطاقات الجغرافية لصناعته واستخداماته اليومية في اللباس، بالإضافة إلى اعتباره شعاراً وطنياً للسلطنة.

الملف تضمن كذلك الجوانب الأخرى التي منها كيفية انتقال العنصر عبر الأجيال، من خلال نقل المهارات والمعارف والالتزامات المترتبة بالتنمية المستدامة في خطط الصون التي تحرص «اليونسكو» على الأخذ بها في مختلف الجوانب التي يتم العمل عليها في الأعمال المرتبطة بالعناصر الثقافية، والحمد لله انضم الخنجر العُماني إلى قائمة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) للتراث العالمي والفنون الثقافية غير المادية، وذلك خلال الاجتماع الـ17 للجنة المعنية بالمنظمة بالعاصمة المغربية الرباط.

تاريخ الخنجر العماني:

يشتهر العرب في شبه الجزيرة العربية بأنواع من الأسلحة التقليدية، مثل الخناجر والسيوف والرماح، لكن الخنجر العماني يتميز بأنه مختلف في شكله وزخارفه عن أنواع الخناجر الأخرى التي يصنعها العرب.

لا أحد يعرف متى ظهر الخنجر العماني، لكن تم إيجاد رسوم لهذا النوع من الخناجر في قمة أحد الجبال شمال سلطنة عمان.

يرتدي الرجال في عمان الخنجر على خصرهم، استمر تقليد حمل الخنجر منذ القدم حتى عصرنا هذا، لكن اليوم، يعتبر هذا الخنجر رمزاً وطنياً وثقافياً لسلطنة عمان، وجزءاً أساسياً من تراثهم الثقافي، ويعتبر انعكاساً للرجولة ودليلاً على المكانة الاجتماعية.

ما الخنجر العماني؟

هو خنجر تقليدي نشأ في سلطنة عمان، حيث ارتداه الرجال في المناسبات الاحتفالية، إنه سيف منحنٍ قصير الشكل يشبه الحرف «J» على شكل خطاف. يمكن تصنيعه من مجموعة متنوعة من المواد المختلفة، اعتماداً على جودته الحرفية، إنه تذكار شعبي بين السياح، ويباع في الأسواق في جميع أنحاء السلطنة.

أجزاء الخنجر العماني:

نصل الخنجر: هو الجزء المعدني الذي يكون حاداً، يصنع من الذهب أو الفضة أو النحاس. تكون الخناجر التي تصنع من الذهب والفضة مخصصة للملوك والأثرياء.

مقبض الخنجر: يشكل الجزء العلوي من الخنجر، تقليداً، يصنع هذا المقبض من العاج الذي يكون من أنياب الفيل أو قرون وحيد القرن، لكن مؤخراً، وبسبب منع الاتجار في العاج في العالم، يستخدم مصنعو الخناجر في عمان مواد أخرى، مثل الخشب أو البلاستيك أو عظم الجمال، هذه المواد جعلت الخناجر العمانية متوافرة، وتباع بأسعار رخيصة.

غمد الخنجر: وهو غمد معدني يدخل فيه النصل، يكون هذا الغمد مصنوعاً من مواد مختلفة، وعليه زخارف متنوعة، وتختلف أسعار الخنجر أيضاً بحسب المواد المستخدمة في صناعة الغمد والزخارف التي يتم نقشها عليه.

استخدام الخنجر اليوم:

يعتبر الخنجر العماني الرمز الوطني الرسمي لسلطنة عمان، وهو مرسوم باللون الأبيض على الزاوية العلوية اليسرى من علم الدولة، كما أن رمز الخنجر موجود على كل الوثائق الرسمية كأوراق السلطان والوزارات والمحاكم، وفي كتب المدارس والجامعات العمانية، حتى السيارات التي تتبع للشرطة ووزارة الدفاع والآليات العسكرية عليها رمز الخنجر، وعلى كل العملات النقدية المعدنية والأوراق النقدية أيضاً.

بالنسبة للسكان، يعتبر هذا الخنجر جزءاً من اللباس التقليدي في السلطنة، حيث يرتديه الرجال فقط، على خصرهم فوق الدشداشة البيضاء التقليدية ذات الأكمام الطويلة. لا يرتديه الرجال عادةً في كل الأوقات، بل في المناسبات الاجتماعية الرسمية وغير الرسمية، مثل حفلات الزفاف والأعياد والجنازات أو الاجتماعات مع الوجهاء والمسؤولين، حتى إن البعض يرتديه عند التقدم لإجراء مقابلة عمل في الشركات.

أنواع الخنجر العماني:

توجد خمسة أنواع من الخناجر العمانية، التي تختلف عن بعضها في التصميم ونوع المواد المستخدمة والحجم، هذه الأنواع هي:

* الخنجر السعيدي:

يعود تاريخه إلى القرن التاسع عشر، ويعود أصل التسمية إلى قبيلة البوسعيدي في عمان، والتي يشتهر رجالها بارتدائه، لكن يمكن أيضاً ارتداؤه من قبل الرجال الذين ينتمون لقبائل أخرى. تقول القصة إن السلطان سعيد بن سلطان، كانت له زوجة فارسية ملت من خنجر زوجها القديم، فصممت له خنجراً جديداً، يعتبر الخنجر السعيدي من أنواع الخناجر النادرة ويتميز بوجود زخارف نباتية عليه.

* الخنجر الظاهري:

يعود إلى القرن الثامن عشر، يتميز بأن المقبض مصنوع من العاج المأخوذ من قرن وحيد القرن أو ناب الفيل، ويكون الغمد مصنوعاً من الجلد ومرصعاً بالفضة.

* الخنجر الظفاري:

يعود إلى منطقة ظفار في جنوب سلطنة عمان، يشبه إلى حدٍّ كبير الخنجر اليمني التقليدي.

* الخنجر الشرقي (يسمى الخنجر الصوري):

له طوق مصنوع من الذهب المزخرف، أما الغمد فهو مرصع بالذهب والفضة. وتكون الزخارف عليه معقدة للغاية.

* الخنجر الباطني:

له مقبض مصنوع من العاج ومرصع بالفضة، الغمد يكون مرتبطاً بحزام مصنوع من نسيج خاص فريد من نوعه.

الأسلحة التقليدية مثل الخناجر لم تعد تستخدم كثيراً بعد اختراع الأسلحة النارية، هذا جعل دور الخنجر في عمان يتغير، فبعد أن كان في الماضي سلاحاً يستخدم للحماية والدفاع عن النفس، أصبح اليوم تقليداً يعتز به العمانيون، ودليلاً على الرجولة والرفعة والمكانة الاجتماعية، وليس من المستغرب أن يقوم العمانيون بإهداء هذا الخنجر لمن يزور بلدهم. قد تبدو هذه الهدية غريبة بالنسبة للسياح، لكن في عمان، من الشائع أن تهدي المرأة خنجراً باهظ الثمن لزوجها أو أخيها أو ابنها البالغ أو الشاب الذي تحبه، فالعرب يعتبرون الأسلحة أعظم ما لديهم.

مقالات «التراث والإبداع.. مقاربات ورؤى»

تنوعت واختلفت واجتمعت على التراث

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

يتطرق كتاب «التراث والإبداع.. مقاربات ورؤى»، الذي نشر عن معهد الشارقة للتراث 2023م، مجموعة من المقالات التي يستعرض كتابها من الخبراء والأكاديميين والباحثين، مقاربات تناقش علاقة التراث الإبداع، والتي استلهمت من الدورةُ العشرين الأخيرة من «أيام الشارقة التراثية» تحت شعار «التراثُ والإبداعُ»، لتقدم تلك المقالات ما من شأنه الغوص في مفردات ومعانٍ تبرز مواطن التقابل والارتباط بينهما.

18 مقالاً تستهل بما عنوانه «التراث والإبداع»، لكاتبه الدكتور عبد العزيز المسلَّم، تناقش في طياته التراث في كل مناحي الحياة، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، في الشعر والرواية والفن، في الحرف التقليدية والخط، المكان والزمان، المادي والمعنوي، وأبعد من ذلك، فيكاد الكتاب الذي بين أيدينا أن يكون مكتبة تراثية ينهل منها الكاتب رحيقاً في كل مجالات التراث مقترناً بالإبداع، فرغم اختلاف الخلفية الثقافية إلا أن ذلك هو ما خدم تنوع تناول مجالات التراث وربطها بالإبداع.

تنوعت المقالات واختلفت، واجتمعت على التراث، افتتحت بكلمة للدكتور عبد العزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث رئيس اللجنة العليا المنظمة لأيام الشارقة التراثية، يؤكد فيها أن الدورة العشرين من أيام الشارقة التراثية، تحت شعار «التراث والإبداع»، أثبتت أن التراث يعد منهلاً إبداعياً، وتناول فيها الروائيين والقاصين والتشكيليين والمسرحيين وغيرهم.. الرموز والدلالات والمعاني على نحو مباشر وغير مباشر في حقله الإبداعي، فالتراث والإبداع صنوان؛ وتتضح في كل المقالات مقاربات ورؤى تدور في فلك التراث.

«التراث الثقافي غير المادي.. الواقع واستشراف المستقبل»، للدكتور أحمد بهي الدين العساسي، أستاذ مشارك في كلية الآداب، جامعة حلوان في مصر، يوضح في مقاله تعريف وتوضيح التراث الثقافي والتحديات التي تواجهه، وإشكالية إيجاد الحدود بينه وبين التراث المادي والطبيعي، موضحاً أبرز دلالته في التقاليد وأشكال التعبير الشفاهي، والفنون والعروض الأدائية، والطقوس والاحتفالات والممارسات الاجتماعية، والمهارات المرتبطة بالحرف التقليدية، موضحاً بذلك المجال الدلالي للمصطلح، ومفرداته المفاهيمية، منوهاً بأهمية الحفاظ على التراث الثقافي غير المادي وقضية استدامته، وتوفير المناخ الملائم لممارسيه وحملته لنقله وإبداعه.

وفي مقال الدكتور أسعد عبدالرحمن عوض الله، الأمين العام للمجلس القومي للتراث الثقافي وترقية اللغات في السودان، وهو «الإبداع في مهارات الفنون الحرفية التقليدية لمواكبة متطلبات الحياة المعاصر»، ينوه الكاتب إلى حرفة نسيج الضهاير التي استطاعت مواكبة متطلبات الحياة المعاصرة، بفضل المهارات الإبداعية والتقنية والفنية للحرفة التقليدية في منطقة مروي، وذلك بفضل إبداع حرفيين مهرة استطاعوا التكيف مع المتغيرات، وإنتاج نسيج من المادة نفسها لصناعة ليف المبردات الهوائية، وهنا يبرز توظيف المهارات لمواكبة متطلبات الحياة المعاصرة.

وفي مقال إيهاب الملاح، التراث منجم الذاكرة، ونبع الإبداع والخصوصية، يسرد الكاتب تتبعه مراحل تلقيه التراث، حتى توصل إلى فكرة «توظيف التراث واستلهامه» في كل مجالات الفنون الأدبية، وأن طريق البحث عن الخصوصية والابتكار والإسهام في المشهد العالمي يبدأ من نبع «التراث»؛ أي تراث الأصالة والبقاء والاستمرارية، وتراث الخصوصية والحافز على الانطلاق والابتكار، وإن النهضة التي نرجوها منذ قرنين من الزمان يقف على نظرتنا النقدية لهذا التراث.

وفي مقال «الإبداع والتراث ودور الروائي والمؤرخ»، للكاتب الدكتور خالد بن فقه، يتناول فيه «روايات تاريخ الإسلام» لجورجي زيدان كإنموذج، ويرى أنه قد يكون من المستحيل تناول علاقة التراث بالإبداع في المنجز الأدبي الفكري العربي، ومن الصعب الإلمام بالعلاقة المشتركة بين التراث والإبداع لأسباب عدة، أولها تعدد مدارسه، كما أن العلاقة الملتبسة بين أزمنة التراث المتعاقبة تصعب من مهمة البحث والكتابة.

وفي مقال الدكتور سالم الطنيجي، أستاذ الدراسات العربية والإماراتية في كلية التقنية العليا، التراث والإبداع.. ملامح الإبداع في التراث الإماراتي، يطرح الطنيجي فكرة أن الابتكار في التراث من الطرق الفعالة للحفاظ على التراث الثقافي وتطويره، ويعد فرصة للأجيال الجديدة لاكتشاف جوانب جديدة منه، مشيراً إلى أن استخدام التقنيات الحديثة في عرض الفنون التشكيلية التقليدية أو تجديد تصميم الملابس التقليدية بأساليب مبتكرة، وتعليم الحرف التقليدية بأساليب تفاعلية يعد من الإبداع، كما تتنوع أشكال الإبداع في التراث، فمنها ما يتعلق بالأدب والشعر والموسيقى والحرف والألعاب الشعبية وغيرها.

ويشير الدكتور سعيد يقطين، أستاذ جامعي من المغرب، في مقاله التراث الشعبي وأثره في السرد العربي الحديث، إلى أن التراث الشعبي لأمة من الأمم هو أصل ثقافها الوطنية وأنه نتاج صيرورة طويلة من التاريخ، يتم تناوله جيلاً بعد جيل، ورغم هيمنة الوسائط المتفاعلة اليوم، إلا أن لا يزال التراث يقاوم الزمن، وتزداد صلابته وجماله، ويشير إلى أن النقاشات تظل حاضرة بين التراث والحداثة، ولكن آن الأوان لتجاوز

هـذه الثنائيـة، فـلا حداثـة دون تـراث ولا تـراث دون حداثـة. وعـن «توظيـف الـتراث في السرديـات العربيـة» يؤكـد الدكتـور شعيب حليفي، مـن جامعـة الحسن الثاني بالـدار البيضاء، علـى توظيـف الـتراث في مجـالات أدبيـة عـدة، مـن بينهـا الروايـة العربيـة واسـتثمارها المـوروث الثقـافي العـربي، إلا أن هنالـك مسـاحات أخـرى لم يطأهـا الروائيـون في مجـال الـتراث، فالاقتصـار عـلى التاريـخ والتصـوف وبعـض الأعـلام والحكايـة الشعبية ليـس كافيـاً، وأن الطـرق مفتوحـة عـلى البحـث عـن أسـاليب وأشـكال متجـددة.

«التذهيـب والتزويـق والتنميـق في المخطـوط العـربي»، هـو مـا ذهـب إليـه الدكتـور صالـح اللهيبـي، أسـتاذ مشـارك في قسـم التاريـخ والحضـارة الإسـلامية بجامعـة الشـارقة، الـذي يـسرد تاريـخ التذهيـب والتزويـق والتنميـق في المخطوطـات في التاريـخ والحضـارة الإسـلامية، ويؤكـد التطـور الجـمالي لهـا عـلى مـر العصـور، ويتتبـع بشـكل متتـالٍ مراحـل تطورهـا وأبعادهـا الجماليـة، وحيثيـات صنعـة التذهيـب والتزويـق، ثـم تفصيـل جماليـات صناعـة المخطـوط، مبينـاً وصولـه إلى أوروبـا عـبر الأندلـس، وتقدمـه بشـكل كبـير في زمـن العثمانيـين.

ويقـدم الكاتـب طـلال سـعد الرميـضي مـن الكويـت، في مقالـه الغـوص عـلى اللؤلـؤ في سـيلان، فكـرة عـن تتبـع أهـالي الخليـج مصـادر الـرزق، فـكان لهـم أن مارسـوا الغـوص في هـيرات الخليـج العـربي، ثـم تعرفـوا إلى مغاصـات سـيلان، ويتتبـع الكاتـب الاسـتعمار الـذي خضعـت لـه مـن البرتغاليـين والهولنديـين والبريطانيـين، ووصـف الجزيـرة والهـيرات ومواسـم الغـوص ووسـائلها، ومقتطفـات شـعرية في وصفهـا.

وفي مقـال «مسـير الكلمـة الشـعرية نحـو فنـون إبداعيـة أخـرى»، يسـلط الكاتـب الدكتـور عبـد الحميـد بورايـو، أسـتاذ جامعـي وباحـث في الـتراث غـير المـادي بالجزائـر، الضـوء عـلى قصيـدة «حيزيـة» التـي تعـود للـتراث الثقـافي غـير المـادي في الجزائـر، التـي قيلـت في عـام 1878م، وتعّـبر عـن مأسـاة عاشـها الشـاعر ومـن يحيـط بـه.

وتعـرج الكاتبـة فاطمـة المزروعـي مـن الإمـارات، في مقالهـا «قصـة الطفـل بـين الهويـة والقيـم والمبـادئ والـتراث والإبـداع» عـلى حضـور الـتراث في أدب الطفـل، لمـا لـه مـن أهميـة كبـيرة، وهنـا المقصـود أنـواع الـتراث المتـوارث ووظائفـه الاجتماعيـة والفكريـة والتربويـة والوطنيـة والقوميـة والإنسـانية.

بينـما ينطلـق الكاتـب الإمـاراتي فهـد المعمـري، نحـو الاحـتراف الـتراثي، مطلقـاً تسـاؤلاً مفـاده: هـل يمكـن تحقيـق الاحـتراف الـتراثي؟ وهـل الاحـتراف مقـترن بالإبـداع أم الإبـداع مقـترن بالاحـتراف، أم هـما وجهـان لعملـة واحـدة؟ بيـد أن الإبـداع دائمـاً مـا يكـون صفـة مكتسـبة لدى الفـرد، ويعمـل عـلى تنميتهـا، فالاحـتراف غـير مكتسـب.

«توظيـف السـيرة الشـعبية في الروايـة العربيـة» هـو مـا يذهـب إليـه الكاتـب البحرينـي الدكتـور فهـد حسـين، حيـث يطـرح اسـتفادة الكتّـاب مـن السـيرة عـبر التاريـخ، وتوظيفهـا بطـرق مختلفـة، كـما فعـل صـلاح عبـد الصبـور وأمـل دنقـل وقاسـم حـداد، ومـن ترجمـوه، ومـن عملـوا إسـقاطات مـن خـلال أحـداث الشـخصيات التراثيـة والشعبيـة.

ويشـير الباحـث والكاتـب الإمـاراتي ماجـد بوشـليبي، في مقالـه «الشـارقة القديمـة (المريجـة) قـراءة في عبقريـة المـكان»، إلى أن «المريجـة» هـي مـن أوائـل الأماكـن التـي سـكنها أهـل الشـارقة، وحيـث تحـضرت لتكـون حـاضرة تنـم عـن عبقريـة مكانيـة، تفـرز في حالاتهـا مـن الأثـر الإنسـاني، فقـد خرجـت منهـا بواكـير التعليـم في المنطقـة، وأول منتـدى ثقـافي، وسـوق وحـرف تقليديـة، وفي حاضرهـا فهـي تحتضـن العديـد مـن المؤسسـات الثقافيـة والأنشـطة والبرامـج ذات الطابـع المتفـرد.

وفي مقـال «محـور الإبـداع في الحكايـة الشـعبية»، لكاتبـه الدكتـور محمـد الجويـلي، كليـة الآداب في جامعـة منوبـة بتونـس، فيقـول: إن إنشـاء الهـزل في الحكايـة فـن قائـم بحـد ذاتـه، ومـا يتـم البحـث فيـه مـا هـو إلا وجـه مـن وجـوه هـذا الإبـداع الـذي يتطلـب الإلمـام بـه مـن جميـع جوانبـه، مؤلفـات ودراسـات.

وتؤكـد الباحثـة الإماراتيـة مريـم سـلطان المزروعـي، في مقالهـا «بيـت محمـد بـن خليفـة آل نهيـان.. ذاكـرة تراثيـة متجـددة بالإبـداع» أن البيـت مـن البيـوت ذات المكانـة والأهميـة، بموقعـه البـارز، حيـث كان أول معلـم للقادمـين مـن أبوظبـي للعـين، ومثـالاً حيـاً عـلى الهندسـة المعماريـة في زمنـه قبـل اكتشـاف البـترول في المنطقـة، وتـم إدراجـه في «اليونسـكو» كموقـع تـراث عالمـي.

وفي مقالـه «اسـتلهام الـتراث الشـعبي.. سـؤال البحـث عـن العالميـة»، ينـوه الدكتـور مصطفـى جـاد، عميـد المعهـد العـالي للفنـون الشـعبية، إلى أن اسـتلهام الـتراث الشـعبي إحـدى صـور التجديـد لهـذا الـتراث يحقـق انتشـاراً أوسـع لـه، ويعـد اسـتلهام الفـن الشـعبي إبـداع فنـي وجـزء مـن إعـادة الإنتـاج.

ويشـير الدكتـور هـاني فيصـل هياجنـة، أسـتاذ كليـة الآثـار والأنثروبولوجيـا في جامعـة اليرمـوك بـالأردن، في مقالـه «مـن الفولكلـور والثقافـة الشـعبية إلى الـتراث الثقـافي غـير المـادي.. قـراءة في تاريـخ المصطلحـات ومدلولاتهـا»، إلى أهميـة تسـليط الضـوء عـلى البواعـث التـي أدت بالمجتمـع إلى التحـول بالمصطلحـات المذكـورة، والانتقـال المفاهيمـي لمصطلـح «الـتراث الثقـافي غـير المـادي» الـذي تبنتـه «اليونسـكو» في عـام 2003م.

تنِّين شَرْشَال (*)

شهرزاد العربي
كاتبة - الجزائر

منذ زمن بعيد، كان هناك جبل لا يقطنه أحد من البشر، تنبت فيه أشجار الدُّوم، والزنابق الشاحبة ذات السُّوق الطويلة، ونبات شوك الجمل ذو النهايات الحادة، وعند سفح ذلك الجبل كانت هناك مغارة يعيش فيها تنين مع صغاره.

كان هذا التنين مخيفاً كثيراً، فجسمه مغطى بالحراشف، وذيله يمتد كأنه ثعبان ضخم، وعلى رأسه قرنان حمراوان، ربما حصل عليهما من الشيطان بعد أن هزمه في لعبة «النرد».

هيمن التنين على نبع الماء، حيث كانت فتيات «شرشال» ـ في الجزائر ـ يأتين كل يوم لملء جرارهن ذات الأعناق الطويلة، ولم يكن هناك أجمل من صوت خرير المياه العذبة يتردّد كأنه أغنية.

عاش سكان شرشال في سلام وأمان مع التنين، ولم يكن هذا الأخير، يبحث عن مشكلات معهم، وقد كان يعيش حزيناً مع أطفاله بعد موت زوجته، التي هاجمتها جنّية وحولتها إلى نخلة، ومنذ ذلك الحين والتنين يعيش وحيداً معتنياً بأبنائه السبعة، الذين كانوا قادرين على نفث النار، رغم صغر سنّهم.

وذات يوم، خرج الصغار السبعة للعب، والاستمتاع بأشعة الشمس بين أشجار الأكاسيا، ورطوبة المكان بفعل النبع، وصادف أن وجد بعض الأطفال في المكان نفسه، يسعون وراء قطف بعض النباتات، لتصنع لهم أمهاتهم منها فطائر لذيذة.

رأى الأطفال التنانين الصغيرة فلم يخشوها، إنما رموها بمقالعهم، مستعملين حجارة حادة، فنزلت كسهام قاتلة على رؤوس الصغار، فهلك منها أربعة، وفر الثلاثة الآخرون خوفاً وهم يبكون، وحملوا الخبر السيئ إلى والدهم.

غضب التنين ـ الأب ـ كثيراً، ذلك لأنه رغم قوته لم يفكر يوماً في الاعتداء على أحد من السكان، بل جعل لهم ورداً وله وورداً.

بعد هذا الاعتداء الغاشم، قرّر التنين الانتقام، وفي غمرة غضبه كان ينفث القطران مع الكبريت والنار، فتهتز الأرض من تحته أقدامه ذات المخالب، وبعد أن أجهده الغضب توقف، وبدأ يفكر في سبيل الثأر لصغاره.

قام التنين بقتل نعجة بنفث النار عليها، ثم أخذ قطعة من جلدها، وكتب عليها بمخالبه، وبدم الضحية العبارة الآتية:

«هكذا تتعفّن مياه النبع والحياة في قلوب كلّ سكان شرشال، كما تعفنت جثة هذه النعجة».

بعدها وضع هذه القطعة من الجلد في قلبها، وألقى بها في النبع، فغلى الماء ثم هدأ كل شيء، وكأن الموت سكن النبع.

جاءت الفتيات لملء جرارهن، وهنّ غير مدركات أنهن حملن الموت لأهاليهن.

طاف ملك الموت يحصد الأرواح، فهلك أناس كثر، وعَمَّ البكاء والنحيب والعويل، وحتى الزغاريد على اعتبار أن هؤلاء الضحايا يعدون شهداء.

لجأ أهل القرية إلى الملك سليمان، وقصوا عليه حكايتهم، بعدها أن استدعى الجميع للشهادة بدءاً من الذين اشتعلت رؤوسهم شيباً بفعل الزمن، وإلى غاية الأطفال الذين قتلوا صغار التنين، وبعد التفكير في الأمر قال لهم:

ـ إن قريتكم وقعت تحت لعنة ألقاها التنين.

بعدها، قرر الملك سليمان الذهاب إلى شرشال لقتل التنين، وخرج ممتطياً أجود حصان لديه، وتمنْطق بسيفه، واتّجه إلى شرشال، حيث أكرمه أهلها، وعندما انتهى من كل ذلك، أخذ ديكاً، وقطع رأسه، ووضعه مع الريش المنفوش على عمامته، وخرج بمفرده للقاء التنين.

عندما سمع التنين وقْع حوافر الحصان قرب مغارته، قال:

ـ ماذا تريد مني أيها الرجل؟

ردّ عليه الملك سليمان:

ـ اخرج إليَّ، لنذهب معاً في نزهة.

قطَّب التنين حاجبيه، وسأله:

ـ وما أدراني أنك لستَ عدوّاً؟!

أشار الملك إلى الديك المعلق على عمامته، وقال له:

ـ هل سأكون بهذه الهيئة لو أردت القتال؟! تعالَ، طالما كانت هذا الرأس في عمامتي فلا تخشَ شيئاً.

صدّقه التنين، ورأى في النزهة بعض الترفيه بعد أن حبس نفسه منذ مقتل صغاره.

خرج التنين وأردفه الملك خلفه على حصانه، الذي جفل من رؤية الوحش، وانطلق الحصان يجر التنين، وعيناه مغمضتان، مستمتعاً بالجولة.

عندما وصل الملك إلى سهل «متيجة»، وبالتحديد عند بحيرة «هلّولة»، حيث كانت الفتيات تغتسلن هناك، وفجأة ألقى الملك برأس الديك، وانتزع سيفه من غمده وغرسه في جسم التنين، وتحت شدة الألم عضّ ذيل الحصان، فسال منه دم حار لطخ لباس الملك.

اتَّجه الملك بسرعة إلى الحمام الملكي في قرية «ريغا»، حيث كانت الجن قد سخّنت المياه، فسارعوا إلى تنظيف أثواب الملك، قبل أن تتمكن «بنات آوى» من أكل جثة التنين، حيث غدت بطونها قبراً له.

(*) ترجمة وإعادة صياغة ـ بتصرف ـ عن كتاب: Jean mauclère..Contes arabes .Fernand Lanore.1949

نظام بيدو للملاحة عبر الأقمار الصناعية

الكاتبة:سميرة شيوى يا لينغ
المترجمة:دلال تشنغ سى ينغ
المراجع: جمال بن علي آل سرحان

كدولة رئيسة مستقلة، يعد إنشاء أنظمة الملاحة وتحديد المواقع والتوقيت عبر الأقمار الصناعية في الصين أمراً بالغ الأهمية لضمان التشغيل الطبيعي للاقتصاد الوطني، وأمن الدفاع الوطني. يجب أن يكون للبلد نظام إحداثيات مستقل خاص به، ولتحديد هذا النظام الإحداثي، فإن الملاحة العالمية عبر الأقمار الصناعية هي إحدى أهم الوسائل، إذا لم يكن لدى الصين نظام ملاحة خاص بها، فلا بد أن تستخدم أنظمة أجنبية، بالتالي لا يوجد ضمان من حيث الموثوقية والأمان. بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن يُظهر إنشاء

نظام ملاحة عبر الأقمار الصناعية قوة وطنية شاملة، والسعي من أجل الحصول على المزيد من حق التكلم في العالم؛ لذلك، فمنذ أواخر القرن العشرين، استكشفت الصين بنشاط أنظمة الملاحة عبر الأقمار الصناعية المناسبة لظروفها الوطنية.

في ذلك الوقت، ومن خلال الجمع بين الظروف الاقتصادية والتقنية المحلية، اقترح الأكاديمي تشن فانغ يونغ بشكل مبتكر فكرة تحديد المواقع ذات النجمة المزدوجة في عام 1983. بعد ذلك، قام الأكاديمي سون جيا دونغ، أول مصمم رئيس لهندسة أنظمة بيدو، بتنظيم المزيد من الأبحاث الدراسات، واقترح استراتيجية تطوير نظام بيدو من «ثلاث خطوات».

الخطوة الأولى، كانت في عام 2000م، وفيها تم إنشاء

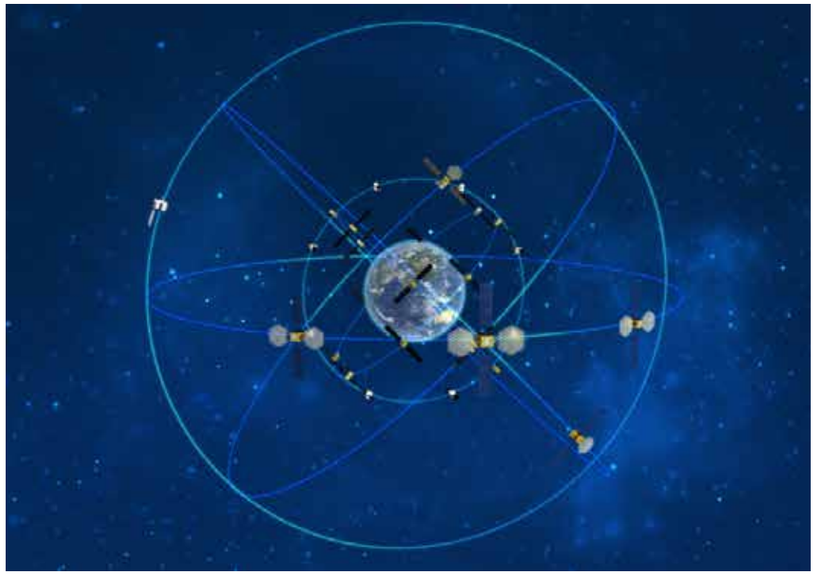

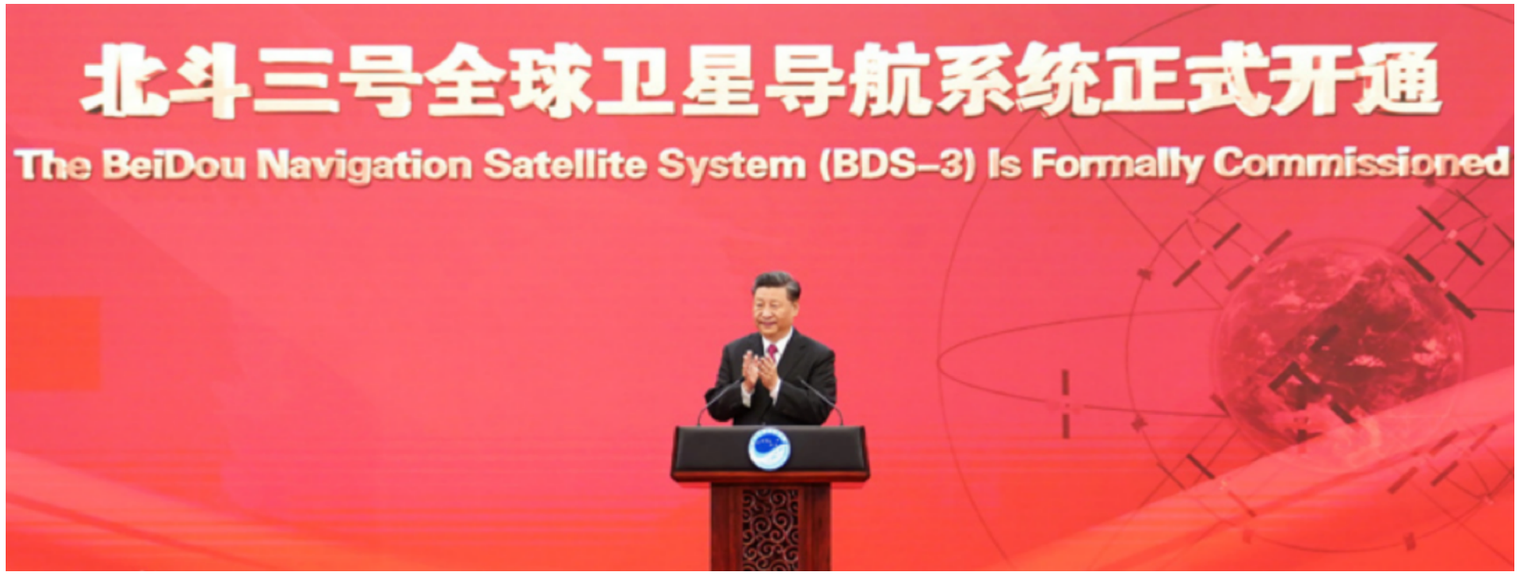

نظـام بيـدو1- (نظـام بيـدو لاختبـار الملاحـة عـبر الأقـمار الصناعيـة) لتقديـم الخدمـات للمسـتخدمين الصينيـين.

الخطـوة الثانيـة، في عـام 2012م، وفيهـا تـم إنشـاء نظام بيـدو2-، لتوفـير الخدمـات للمسـتخدمين في منطقـة آسـيا والمحيـط الهادئ.

الخطـوة الثالثـة، في عـام 2020، وفيهـا تـم إنشـاء نظـام بيـدو العالمـي لتقديـم الخدمـات للمسـتخدمين في جميـع أنحـاء العـالم.

في وقـت لاحـق، عمـل فريـق البحـث العلمـي الصينـي بيـدو بجـد واجتهـاد لتنفيـذ اسـتراتيجية التنميـة ذات «الخطـوات الثـلاث» خطـوة بخطـوة. أخـيراً، أعلـن الأمـين العـام شي جـين بينـغ رسـمياً مـن قاعـة الشـعب الكـبرى: «تـم إطـلاق نظـام بيـدو3- العالمـي للملاحـة عـبر الأقـمار الصناعيـة رسـمياً».

إن الاسـتكمال الناجـح لنظـام الملاحـة عـبر الأقـمار الصناعية الصينـي «بيـدو» لـه أهميـة كبـيرة وخاصـة لتحسـين مكانـة الصـين الدوليـة، وتعزيـز التنميـة الاقتصاديـة والاجتماعيـة، وضـمان الأمـن القومـي. كبنيـة تحتيـة فضائيـة رئيسـة توفـر خدمـات عامـة للعـالم، يقـف نظـام بيـدو للملاحـة عـبر الأقـمار الصناعيـة في «المسـتوى الأول» مـن الإجـراءات العمليـة للصـين لتعزيـز بنـاء مجتمـع مصـير مشـترك للبشريـة.

د. منّي بونعامة
مدير التحرير

الرحلة الحجية

الحـج فريضة دينية، وشـعيرة إسـلامية، أوجب الله سـبحانه وتعالى أداءها على من اسـتطاع إليها سـبيلاً، منـذ أمر نبيـه إبراهيـم الخليل، عليـه السـلام، ببنـاء البيـت العتيـق، ليكون مقصـداً يؤمـه النـاس مـن كل فـجّ عميـق، ليشـهدوا منافع لهم، ويذكروا اسـم الله في أيـام معلومـات على مـا زرقهم مـن بهيمة الأنعام.. ثم ليقضوا تفثهـم، وليوفوا نذورهم وليطّوفـوا بالبيـت العتيق.

منذ ذلـك الحين كانـت للعرب تقاليـد وطقوس تصاحـب أداء هـذا المنسـك الدينـي، فكانـوا يفـدون إلى الحـج في أشـهرهم المعلومة، بعـد الانـصراف من سـوق عـكاظ، ويهلّون من مواقيتهـم، كـما عرفـوا بتقديسـهم هـذه الشـعيرة الدينية قبـل الإسـلام، ولهم قصص وحكايات وأشـعار كثيرة، تغنى فيها الشـعراء بالحـج، وهامـوا وجْداً بالمشـاعر المقدّسـة، وسـطّروا مـا جـادت بـه قرائحهم من شـوق وتـوق وحنـين، سـار بهـا الركبـان، وتناقلها النـاس في كل زمـان ومكان، ويضيـق المقام عـن سردهـا وعرضها. وتشـكّلت عـلى ضوئها طقـوس وتقاليـد راسـخة، درجـت عليهـا المجتمعات قديمـاً، وحافظت عليهـا إلى يوم النـاس هذا.

كـما ازدهر على غـرار هـذه الرحلـة الحجية المباركـة فـن عـربي أصيـل، وأدب عريـق عُـرِف بـأدب الرحلـة، الـذي كان نمطـاً قائماً بذاتـه، لكن جوهـر الرحـلات الحجية ديني محـض، وليـس شـيئاً آخر، حيـث كان الحـاج، عالمـاً أو فقيهـاً أو أديبـاً، يعمد إلى تدويـن رحلتـه، وتوثيـق ذكرياتـه ويومياته التـي كان يدوّنهـا، بدءاً مـن التحضـير للحج، وأخـذ المسـتلزمات الضروريـة، ووداع الأهـل والصحب والخـلان، والسـير في الركب الحجي الذي كان يجـوب الدروب والمسـالك الوعرة، والمحفوفة بالخطـر في أغلب الأحيان، حتى إن الإنسـان لا يأمن فيها على نفسـه وماله؛ لأن الطريق إلى الديار المقدّسـة لم تكن سـهلةً أبـداً. وقد كان تدويـن هذا النمط مـن الرحلات غايته في الأسـاس التحدث بنعمـة الله التي يرى الرحالة المسـلم أنها اكتملـت لديه بأداء الحـج والعودة سـالماً إلى أهله، ويستشـف ذلـك مـن كثـير مـن الرحـلات الحجيـة التي دوّنهـا الحجـاج المسـلمون من شـتى بقاع الدنيـا، وضمّنوا أشـواقهم وحنينهم إلى بيت اللـه الحرام، ومـا شـاهدوه في رحلتهم من أمور عجيبـة وغريبة، وثّقوها في أسـفارهم التـي أصبحت مصـادر مهمة للحيـاة الثقافية في المملكة العربية السـعودية خلال القرون ا لما ضية .

وفي الحـج تلتقي أفئدة المسـلمين، وتتواصل ثقافـات الشـعوب في أيـام معـدودات، ويتناقلـون تجاربهـم.. وهـو مناسـبة كـبرى للصـلات الدينيـة والعلميـة والحضاريـة بـين العلـماء من مختلـف الأماكـن، والتعـارف بين شـعوب بلاد الإسـلام الواسـعة؛ ولذلـك ظلت الرحـلات الحجّيّة بالغة الأهميـة في نقل الأخبار، بين أمصـار دار الإسـلام.

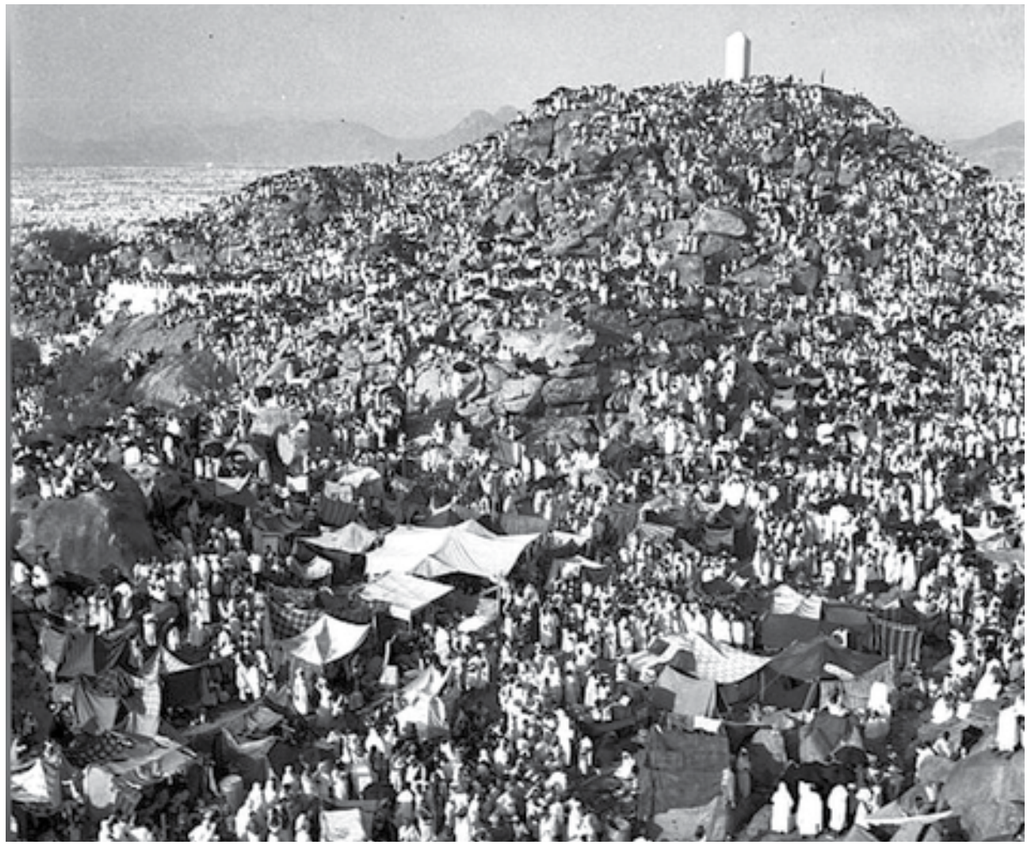

society to this day. We tried to present an integrated and comprehensive image of this interesting topic, which we live this period in its compassionate atmosphere, to the echoes of “Takbeer & Tahleel”.

In addition, we reviewed news and follow-ups of the activities of the Sharjah Institute for Heritage during the past period, highlighting their role in contributing to introducing the Institute’s leading role in spreading heritage, and promoting it on a large scale. We focused on the Institute›s participation within the Sharjah’s delegation in the Seoul International Book Fair, where Sharjah was a distinguished guest of honor at the Exhibition.

This issue also covered a range of rich cultural and heritage themes, including “Sources of Arab Musical Heritage”, “The Art of Manahil”, “Highlighting the Poems of Hamad Khalifa Bushahab”, ‹Proverbs of Plants› and others.

The sections of the issue also included many important heritage and cultural topics, especially those related to the Emirati heritage, which smells of originality, symbolizes tradition and sophistication, and communication between the past and the present. It clearly reflects the extent to which the Emiratis adhere to the heritage of their fathers and grandfathers, and their communication with it, as well as their openness to other useful experiences to learn about their rich human treasures.

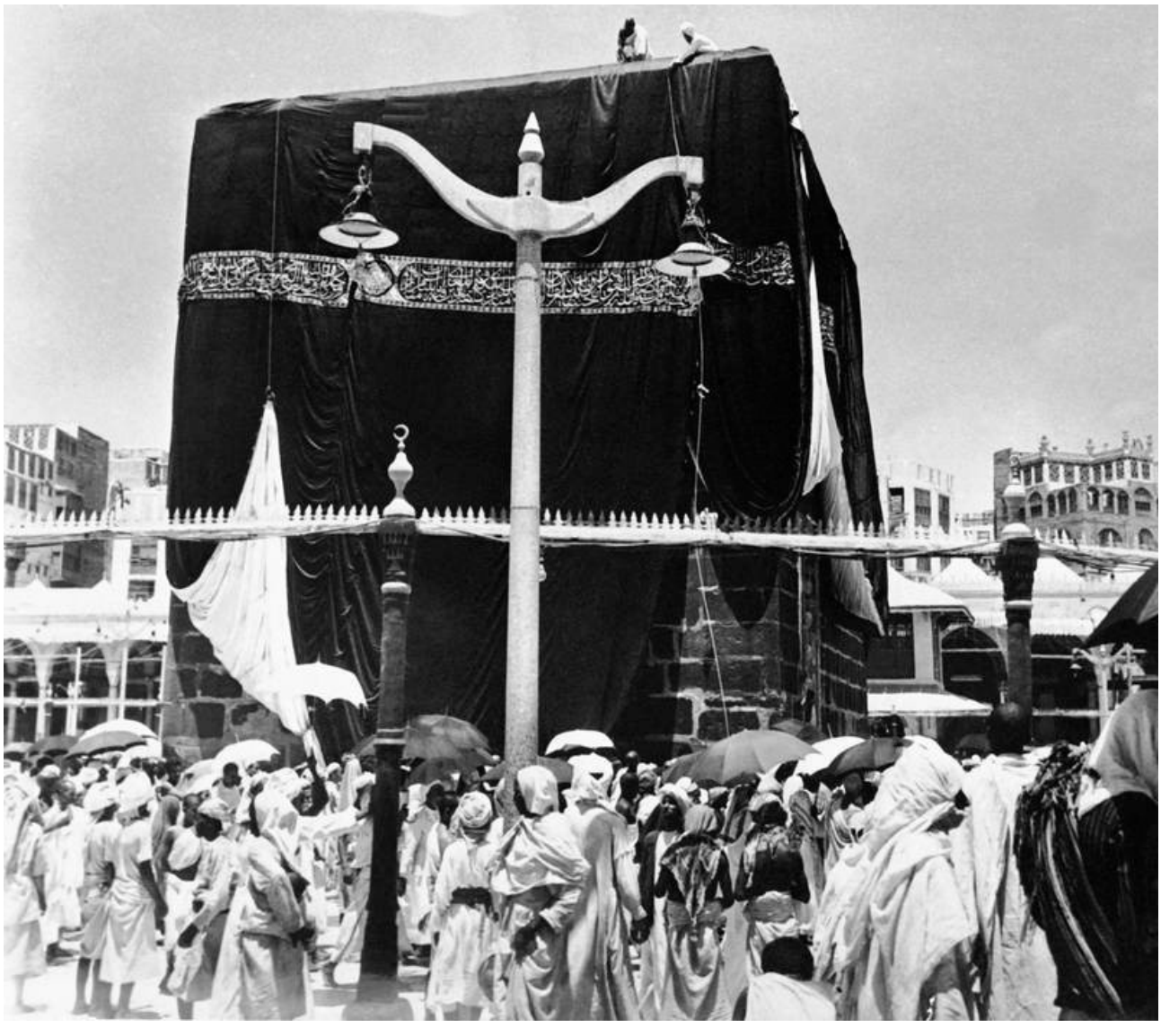

Hajj in Folklore

Hajj in the Arab memory has eternal customs and rituals, inherited by societies since ancient times. Arabs through these customs expressed the extent of their reverence for this valuable Islamic ritual, their adherence to it, and their keenness to perform it, despite all the risks and obstacles that were facing due to the bumpy road, and the fears that accompanied the trip.

The folk memory woven many of the rituals that societies used to follow, and passed them down to generations, starting with preparation for Hajj, buying the necessary supplies of Ihram clothes and others, then seeing off family and relatives, to the start of Hajj journey.

In this issue, we have devoted a special file titled “Hajj in the Arabian Heritage... Well-established Traditions”. We reviewed the rituals and traditions of Hajj, and the accompanying cultural practices that are still living in the minds of the Emirati and Arab